الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية

معهد
الحضارة الإسلامية

العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية

648 هـ / 1250 م ـ 694 هـ / 1296 م

رسالة لنيل شهادة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

إعـــداد:
الطالب يوسف عابد

تحت إشراف:
د. محمد أمين بدوي

لجنة المناقشة:

1 ـ د. محمد عداله ـ جامعة الأمير عبد القادر (قسنطينة)
2 ـ د. غازي جاسم معهد التاريخ ـ وهران
3 ـ عبد اللطيف الصوفي ـ جامعة قسنطينة

السنة الدراسية: 1415 هـ/ 1416 هـ ـ 1994 م / 1995 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

****

الإهداء

****

إلى الذين يعتبرون ويعتزون بتاريخنا الإسلامي.

إلى الذين يكابدون و يحترقون من أجل وقف الغزو الفكري.

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

الحمد لله أولا وأخيرا والشكر لله على ما هيأ لي من العزم والقدرة على إنجاز هذا البحث الذي آمل أن يسد فراغا في المكتبة التاريخية، ولا يسع الباحث وهو يرى المعلومات التي كانت متناثرة هنا و هناك في الكثير من المراجع والمصادر قد انتظمت في سطور وكونت فيما بعد فصولا وأبوابا من بحث علمي، إلا أن يقدم الشكر ويذكر الفضل لأهله اعترافا بجهدهم وتعاونهم وأخص بذلك الدكتور محمد أمين بدوي الذي كان لي شرف البحث العلمي وانجاز هذه الرسالة تحت إشرافه والحقيقة أنه بذل جهدا ووقتا في سبيل تصحيح المعلومات وتعديل مباحث وفصول هذا البحث إلى أن إكتملت صورته على الشكل المبين على صفحات الرسالة.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور محمد عدالة الذي وقف إلى جانبي ناصحا ومرشدا والذي تفضل مشكورا بتبني هذا العمل العلمي إستمرارا لما قام به الدكتور محمد أمين بدوي الذي شاء القدر أن يغادر جامعتنا لظروف معينة.

وفي الأخير أشكر كل من أمدني يد العون وأسمعني كلمة تشجيع في سبيل إعداد هذه الرسالة.

إليهم جميعا أدعو الله أن يجازيهم عني الجزاء الأوفى وأرجو أن أكون قد أضفت لبنة جديدة في خدمة التاريخ الإسلامي.

وأسأل الله التوفيق

الباب الأول

العلاقات السياسية بين الدولتين الحفصية والمملوكية

من 648هـ/1250م-694هـ-1296م

1- الحالة السياسية في إفريقيا ومصر قبيل قيام الدولتين وبعدها.

2 - أهم الأحداث التي واجهت الدولتين وموقف كل منها إزاء الأخرى.

3- الحملة الصليبية التاسعة على تونس وموقف المماليك منها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الحالة السياسية في إفريقيا ومصر قبيل قيام الدولتين وبعدها

1- الحالة السياسية في إفريقية قبيل قيام الدولة الحفصية.

1-1 - نسب الحفصيين واستقلالهم بافريقيا.

1-2- توسع دولة الحفصيين.

1-3- العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ودول المغرب المجاورة.

2 – الوضع السياسي في مصر.

2-1- قيام دولة المماليك.

2-2- الأخطار التي جابهت المماليك.

2-3- ثورة الأعراب.

2-4- الصراع بين المماليك أنفسهم.

2-5- خطر المغول.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بـاسـم اللـه الرحمـــــن الرحيـم

المقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده والصلاة والسلام على النبي المبعوث رحمة للعالمين .

1- دوافع اختياري لهذا البحث

لا ريب في أن العالم الإسلامي إبان القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - قد اجتاز مرحلة من أشد مراحل التاريخ وعورة، وعانت الشعوب المسلمة قساوة ما بعدها قساوة، سواء في ذلك الشرق أو الغرب، فأقطاره كانت فعلا في مفترق الطرق، فالشعوب مرتبكة تبحث عن وسائل النجاة.

ففي المشرق نرى أن الحملات الصليبية تتوقف قليلا ليبدأ الغزو المغولي يخرب ويفسد الحرث والنسل في ديار المسلمين .أما في المغرب الإسلامي، فإن الوضع السياسي لا يختلف عما يحدث في المشرق، فالنزاعات الداخلية، والثورات بين القبائل لم تكن هادئة، وكان هذا الوضع الداخلي بمثابة دعوة للصليبيين الذين أصبحوا يتهيأون لاسترجاع الأندلس كافة وإخراج المسلمين منها وفعلا كانت هزيمة الموحدين في معركة العقاب بأرض الأندلس سنة 609 هـ / 1212 م بمثابة المؤشر الواضح على نهاية دولة الموحدين بالمغرب.

في ظل هذه الأوضاع ظهرت قوتان ،إحداهما مشرقية وهي دولة المماليك ، وثانيهما مغربية وهي دولة الحفصيين ، وبظهور هاتين الدولتين بدأ وجه العالم الإسلامي يتغير نحو الأفضل، وهذا من العوامل التي ولّدت في نفسي الرغبة في اختيار هذا البحث خاصة وأن الدولتين شهدتا أحداثا تاريخية كبرى جديرة بالبحث والدراسة.

إذا كانت أهم صفة امتازت بها نظرة الدول الأوربية نحو الدول الإسلامية هي الحقد الناتج عن التعصب الديني، فإن الحرب التي أعلنتها كل الدول الأوربية كانت دينية صارخة هدفها القضاء على الإسلام ونشر المسيحية في ديار المسلمين وهذا ما صرح به القديس لويس التاسع ملك فرنسا أثناء حملته التاسعة على تونس ثم إن التعاون والتنسيق بين الدولتين الحفصية والمملوكية كان واضحا من أجل التصدي للغزو الصليبي والقضاء عليه وهذا دافع آخر من دوافع اختيار هذا البحث .

كما أن هذا البحث يهدف إلى إظهار وحدة الشعوب الإسلامية وتماسكها أثناء الأزمات وخلال مراحل الإستقرار، ومن أجل تبيان ذلك الترابط عمدت إلى دراسة العلاقات الثقافية والإقتصادية والسياسية بين الدولتين، من خلال نمط الحياة الإجتماعية اليومية لشعوب هاتين الدولتين والتي تعكس بالضرورة ثقافة الأمة الواحدة، وكذا الدور الوظيفي للمؤسسات التعليمية والمالية في الدولتين .

مما سبق يتضح أن البحث والتنقيب في تلك الجوانب له أهميته البالغة لنستطيع إدراك ماكان يجري في التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة التاريخية بصفة خاصة، وأن نتعرف من ناحية أخرى على العلاقات بين الدول الإسلامية بصفة عامة.

أما عن الفترة الزمنية التي أبحث في حوادثها التاريخية السياسية منها والثقافية والإقتصادية فتمتد على طول النصف الثاني من القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي -648هـ/1249م-696هـ/1298م.
وهي الفترة التي شهدت فيها كل من الدولتين أنماطا مختلفة في كل من المجالات السياسية والثقافية والإقتصادية. وكان لا بد من إلقاء الضوء على هذا كله، خاصة وإن الإنتعاشة كانت واضحة لكنها تجسدت ليس فقط في وقف الزحف الصليبي المغولي بل رده وإخراجه من أراضي الشرق الإسلامي .

أما سبب تحديد هذه الفترة الزمنية القصيرة، فإن هذا يعود إلى الأسباب التالية:
-إن هذه الفترة التاريخية شهدت مقاومة إسلامية نوعية ضد الصليبيين والمغول ثم تحولت إلى قوة هجومية تمكنت من إخراج آخر كيان صليبي من الأراضي الإسلامية المشرقية .
-تم انقاذ الحضارة الإسلامية عندما تصدت دولة المماليك للغزو الصليبي والمغولي الذي كان يهدف إلى إنهاء الوجود الإسلامي بصفة عامة. وذلك بعد ما أُسقط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة656هـ/1258م
- ظهرت في هذه الفترة الزمنية خلافة إسلامية في تونس عاصمة الحفصيين .
- في هذه الفترة التاريخية أيضا ظهر التعاون والتنسيق السياسي والعسكري بين دولة مشرقية وأخرى مغربية، وعمل كل من السلطان الظاهر بيبرس وأبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي على إبراز هذا كله وتحقيقه.

أما عن أهم الأماكن التي دارت فيها الأحداث وتعاقبت فإنها تمتد من الشام إلى مصر ومنها إلى إفريقية لتعرج نحو الجنوب الشرقي لأوربا الغربية خاصة جمهوريات إيطاليا، وبلاد الأندلس وقشتالة النصرانية.

أما عن أهم الصعوبات التي واجهتني على طول امتداد فترة إعداد هذه الرسالة فهي كثيرة ويكفي أن أذكر منها طبيعة هذا الموضوع فالعلاقات السياسية والإقتصادية والثقافية بين الدول لها تفاصيل وتشعبات في كل اتصال مباشر أو غير مباشر بين أمة وبين محيطها المعاصر حربا أو سلـــما

وينبغي أن لا يغيب على الأذهان أن دراسة العلاقات الخارجية تختلف عن غيرها من الظواهر التاريخية الأخرى إلى حد ما لأن الأحداث السياسية والحربية من أبرز صفاتها التغيير والتبدل السريع وعدم الإستقرار ، في حين أن الظواهر الأخرى تظل على الثبات وتتسم بالبطء الشديد في التغيير والتبدل، وكعادة الباحث الذي لا يزال يخطو خطواته الأولي ، كنت أظن أن البحث سهلا ميسورا.

ثمة صعوبة أخرى وهي قلة المادة العلمية اللازمة وتشتتها في بطون المصادر وإذا كان الباحثون يشكون عادة من قلة المصادر فإني على النقيض من ذلك فالمصادر كثيرة والبعض منها كتب باللغات الأجنبية ولم يترجم إلى اللغة العربية، الأمر الذي حتم علي السفر والترحال إلى بعض الدول العربية والأجنبية للتزويد بالمصادر وجمع المادة وكذلك الإستعانة ببعض الأساتذة المختصين في التاريخ الإسلامي وما يدور حوله .

2- دراسة لأهم المصادر والمراجع الواردة في البحث:

لقد قسمت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها إلى قسمين رئيسيين وهذا راجع إلى طبيعة المادة العلمية التي تكون البحث

القسم الأول : المصادر والمراجع العربية

أ- المصادر : قمت بترتيب المصادر العربية حسب قربها زمانا ومكانا من الفترة التاريخية التي أنا بصدد الحديث عنها ولهذا تكونت لدي عدة مجموعات من المصادر :

1- مجموعة المصادر المعاصرة للأحداث والقريبة منها مكانا .

2- مجموعة المصادر المتأخرة زمانا والقريبة مكانا من إحدي الدولتين.

3- مجموعة المصادر الخاصة بالرحلة العلمية .

والجدير بالإشارة إلى أن بعض المصادر لازمتني من بداية البحث إلى خاتمته لأنها اشتملت على معلومات سبرت أغوار هذا البحث خاصة لأن من قام بتأليفها كان شاهد عيان لبعض الأحداث .

أ-1 كتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر

المؤلف : محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد بن نشوان بن عبد الظاهر [620هـ/1223م-692هـ/1293م]

يعتبر هذا الكتاب من المصادر القيمة التي أمدتني بمعلومات دقيقة تتصل بالموضوع مباشرة وأهميته تأتي من كونه شاهد عيان للأحداث السياسية ضف إلى ذلك مكانة مؤلفه، فقد كان كاتبا لسلطان دولة المماليك الظاهر بيبرس، ويعتبر الروض الزاهر المصدر العربي الوحيد الذي أشار صراحة إلى سفارة شارل دانجوى ملك صقلية وأخو الملك القديس لويس التاسع التي بعث بها إلى السلطان الظاهر بيبرس في بداية عام 677 هـ/منتصف 1279م، يطلب فيها شفاعته في الصليبي الشام، كما تحدث المؤلف عن رد السلطان الظاهر بيبرس بسفارة يرأسها الشيخ بدر الدين الحاجب وتعتبر هذه المعلومات دقيقة ومهمة لأنها تتفق مع ما جاءت به المصادر الأجنبية وأيضا أوضح لنا الإتصالات التي كانت تجري بين سلطان المماليك وأمراء جمهورية جنوة الإيطالية من أجل إفشال الحملة الصليبية التاسعة على تونس، ولقد أمدنا كتاب الروض الزاهر بمعلومات تؤكد ما وصلنا إليه بصدد اتفاق جنوة ودولة الحفصيين من جهة ومن جهة أخرى أشار المؤلف إلى الرسالة التي بعث بها السلطان المملوكي إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي يحثه فيها على الصمود والشجاعة لمواجهة نزول الصليبيين في سواحل تونس عاصمة الحفصيين، وهدده بالخروج إليه بسبب تهاونه في قتال الغزاة.

أ-2 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

المؤلف : المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)، (825هـ/1442م)

الجزء الأول والثاني نشرهما د/ محمد مصطفى زيادة القاهرة 1956

لقد استفدت من كتابي المقريزي كثيرا، فقد كان كتاب السلوك مصدرا مهما إذ أورد معلومات دقيقة عن الغزو المغولي للأراضي الإسلامية وتطرق إلى كيفية إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد ومواقف أمراء وسلاطين المسلمين، ووصفها بالتخاذل والضعف، ثم تعرض إلى دولة المماليك الأولى واصفا إياها بالمنقذ للأمة الإسلامية مشرقا ومغربا، ولم يكن المقريزي بعيدا عن التحركات والإتصالات السياسية، فقد أورد معلومات حول الإتصالات التي كان يجريها السلطان الظاهر بيبرس بملوك الدول الأوربية وإبرام الإتفاقيات الإقتصادية معها، فكتاب السلوك له أهميته الخاصة لأنه تناول الجوانب العسكرية والسياسية لدولة المماليك بالتفصيل .

أما كتاب المقريزي الثاني الذي اعتمدت عليه فهو كتاب : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار .

كان وجه الفائدة من هذا الكتاب كبيرا ومحددا، فقد أمدني بمعلومات دقيقة عن العلاقات الثقافية بين دولة الحفصيين والمماليك، خاصة وإن المؤلف أفاض في تصنيف المؤسسات التعليمية الخاصة بدولة المماليك وأهم صفة يجدها الباحث هي صفة التواصل والإستمرار في توسيع ميدان التعليم الذي انتهجته دولة المماليك، وتعرض المؤلف إلى مكانة العلماء وأهل العلم في المجتمع المصري كلٌ وفقا لدرجته، وتعدى المؤلف إلى وصف شكل المؤسسة التعليمية سواء كانت زاوية أو مسجد أو مارستان..إلخ

وأشار إلى أنها كانت تخصص رواقا للوافدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

أ-3 كتاب : النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ، ج12، القاهرة 1383هـ/1963

المؤلف : ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن)، ت(874هـ/1469م)

يعتبر الكتاب مهما بالنسبة لتاريخ دولة المماليك فقد أفرد له المؤلف الجزء السابع منه، وقد أفادني في سد بعض ثغرات البحث خاصة الفصل الأول المبحث المتعلق بنشأة وتطور دولة المماليك كما أفادني في الفصل الثاني بمعلومات دقيقة حول إحياء الخلافة الإسلامية ونقلها من بغداد إلى القاهرة إبان حكم المماليك .

أ-4 كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة 1963م

المؤلف : أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ)

تحققت الفائدة من هذا الكتاب في عدة أوجه من البحث أهمها دور القبائل العربية الحضاري ببلاد المغرب، وأشار إلى تقارب صفات العرب للسكان الأصليين لبلاد إفريقية والمغرب، كما أمدني بمعلومات قيمة حول العلاقات الإقتصادية، مركزا على السلع الإفريقية التي كانت القوافل التجارية تحملها إلى مصر وتعود محملة بسلع أخرى نادرة في إفريقية كما تعرض المؤلف إلى المؤسسات التعليمية، متطرقا إلى العلماء والمدرسين .

أ-5كتاب : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

المؤلف : عبد الرحمن ابن خلدون ت(808هـ/1405)

لقد شغل عبد الرحمن بن خلدون وظائف سياسية متعددة، مما مكنه من الإطلاع على الإتصالات السياسية وإبرام الإتفاقيات بين السلاطين والأمراء، فكان على دراية واسعة بالخفايا السياسية للدولة الحفصية، وزيادة على ذلك كثرة تنقلاته وترحاله في مدن وقرى الدولة الحفصية وغيرها من دول المغرب والمشرق، هذا إلى جانب اهتماماته اليومية بالتعليم ومؤسساته، فالكتاب مهم جدا ولا يمكن الإستغناء عنه، أفادني في معظم فصول البحث، حيث أجاب علي عدة تساؤلات وأكد بعض المعلومات التي أوردتها المصادر الأجنبية، خاصة فيما يتعلق بالحملة الصليبية التاسعة على تونس و مساهمة القبائل البربرية والعربية في التصدي للغزو الصليبي .

أ-6 كتاب : الدولتين الموحدية والحفصية

المؤلف : أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الزركشي

تحقيق : الأستاذ محمد ماضور-تونس-1966

اتصف الكتاب بغزارة المعلومات الخاصة بالدولة الموحدية ثم من بعدها الدولة الحفصية والمعلومات دقيقة تمس جوانب الحياة السياسية والثقافية والإقتصادية للدولة، وطريقة عرضه للأحداث هي التسلسل الزمني دون ذكر السنة كما يفعل بعض المؤرخين، حيث يتابع نشاط السلطان ويسجل ما يحدث

أثناء الزيارات أو الحوادث السياسية الكبرى دون أن يترك ما هو ثانوي أو مرّ عرضا، والكتاب مهم لأي باحث في تاريخ الموحدين والحفصيين سواء كان البحث يتعلق بالجانب السياسي أو الإجتماعي للدولتين.

أ-7كتاب : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

المؤلف : ابن عذاري المراكشي (ت بعد712هـ/1314م)

أمدني الكتاب بمعلومات خاصة بهجرات القبائل العربية من الشرق والغرب وأكد دورهم الحضاري في المجتمع البربري متفقا مع ما جاء به القلقشندي وابن خلدون ويتعرض المؤلف إلى السياسة الداخلية للدولة الحفصية، مشيرا إلى الصراعات والثورات القبائلية وأيضا المعارك التي تدور من حين إلى آخر بين دويلات المغرب الثلاثة- المرينية والزيانية والحفصية وقد أمدني بمعلومات حول موضوع علاقات إفريقية بجمهوريات إيطاليا -كما تطرق المؤلف إلى وصف الجانب الإجتماعي للمجتمع المغربي عامة- ويتفق مع ما جاء به ابن القنفد القسنطيني في كتابه الفارسية حول الوضع السياسي والإجتماعي في بلاد المغرب عامة ودولة الحفصيين خاصة.

ب - كتب الرحالة والجغرافيين :

لا يمكن لأي باحث في التاريخ أن يستغني عن كتب الجغرافية، وقد أفادتني هذه الكتب في تفسير عدة نقاط، ظلت غامضة إلى أن تمكنت من الحصول على معلومات جغرافية قيمة منها على سبيل المثال عدم انتشار مؤسسات تعليمية في جهات معينة من الدولة الحفصية بسبب التضاريس الجغرافية التي فرضت العزلة الإجتماعية على بعض القبائل، وحالت دون مشاركتها الفعالة في قتال الصليبيين أثناء حملة لويس التاسع عشر، كما أفادتني المعلومات الجغرافية في توضيح السر في فشل الحملة الصليبية أثناء نزولهم على شواطئ تونس، وعدم قدرة الأعداء علي تحمل حرارة الصيف وهذا بخلاف ما ظهر على القبائل العربية المشاركة في القتال التي قدمت من برقة وطرابلس وغيرها من المناطق المغربية .

ب-1كتاب : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

المؤلف : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي المعروف بالإدريسي ت(548هـ/ 1154م)

المحقق: أ.محمد حاج صادق

هذا الكتاب يتحدث عن مناطق استقرار القبائل العربية التي هاجرت إلى بلاد المغرب، وعن جل المدن المغربية والإفريقية، حيث يفيض في وصفها، وما بها من أشجار، ومياه، وما يتبعها من غلات زراعية وما يحيط بها من أودية وجبال أو صحاري .. وغير ذلك، الأمر الذي سهل عملية استنتاج معلومات تخص العلاقات الإقتصادية بين المشرق والمغرب، وجدير بالإشارة إلى أن كتب الرحلة قد اشتركت مع كتب الجغرافية في تقديم المنفعة العلمية للباحثين من وجهة نظر أخرى، فقد أبانت هي الأخرى أهمية التضاريس الجغرافية في عزل القبائل أو ربطها ببقية التجمعات السكنية، كما توصلت

إلى أن المصادر المائية كانت سببا في قيام مدن بكاملها سواء في المغرب أو المشرق بالإضافة إلى ذلك فإن كتب الرحلات أضافت جانبا آخرا متمثلا في المميزات الثقافية للشعوب، وكذلك الجانب الإجتماعي لسكان المناطق العمرانية، حيث تناولت العادات والتقاليد المنتشرة في أوساطهم، وقد كان كتاب الرحلة لابن جبير (614هـ/1216م) على رأس قائمة كتب الرحالة التي استعنت بها في إنجاز هذا البحث، ويأتي بعد ذلك كتب الرحلة للتجاني، ورحلة ابن بطوطة الذين أجابا عن عدة تساؤلات صادفتني .

القسم الثاني : المراجع الأجنبية

من الميزات التي امتازت بها المراجع الأجنبية خاصة تلك التي تناولت العلاقات السياسية بين المسلمين والصليبيين هي الإستفاضة، والتحدث بشخصية شاهد عيان- وربما يعود ذلك إلى طبيعة الصراع الصليبي الذي شهده القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي-، حيث تمكن الصليبيون من تصفية الأندلس من المسلمين، واستطاعوا إنهاء المقاومة الإسلامية من المغرب الإسلامي، والحقيقة أن هذه المراجع أمدتنا بمعلومات أغفلتها جل المصادر العربية وأهم هذه المراجع هي :

- سيرة القديس لويس Vie de saint Louisوقد تكاملت المعلومات التي قدمها المؤلف في هذا المرجع واتفقت مع ما ذهب إلى ه في كتابه الثاني الذي يحمل عنوانه تاريخ الملك فيليب Histoire du roy philippeوالمؤلف هو المؤرخ نانجي ولقد استفدنا منهما في الإجابة عن عدة تساؤلات حول معارضة بعض المقربين من لويس لفكرة تحويل اتجاه مسار الحملة الصليبية من مصر نحو تونس عاصمة دولة الحفصيين.

لمزيد من المعلومات حول سيرة ودور وليام دي نانجي انظر كتاب :
جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي علي مصر وهزيمة لويس التاسع في المنصورة، ط1، الإسكندرية 1969،صص7-15

-كتاب : سيرة القديس لويس باعترافات مرجريت Vie de Saint Louis par le confisseur de la reine marguerite

هذا الكتاب أمدني بمعلومات تتعلق بقدرة المسلمين على القتال، وما وصل إليه الصليبيون من انهيار وفقدان الثقة في أنفسهم، وقد أفاضت المؤلفة في وصف الملك لويس التاسع، وتعرضت إلى التنسيق الذي دار بين شارل دانجوي وجمهورية جنوة والمسلمين من أجل إفشال الحملة وهذا الإتفاق من المرجح أنه يعود إلى كراهيتها الشديدة لشارل سقيق زوجها لويس التاسع

-كتاب : سيرة القديس لويس
المؤلف : سيرجان ذي جوانفيل Sir jean de join ville
622هـ -678هـ/1225م-1280م

هذا المؤلف ينتمي إلى أسرة كبيرة ساهمت في الحروب الصليبية، وقد أفادني الكتاب في تأكيد مواقف كل من شارل وجمهورية جنوة من الحملة

واضطرارهم للإسهام فيها من ناحية التكتيكية - التمويهية- ومايؤكد هذا الرأي هو حضور شارل دانجوى ليتولى قيادة الحملة الصليبية بعد ما تأكد من انهيار الحالة الصحية لأخيه لويس التاسع، وهذا من أجل المفاوضات مع المسلمين لتحقيق مصالحه و جمهورية جنوة، وهذا بعينه ما أكدته المفاوضات.

- كتاب : برانشفيك روبير Bronschvig . R

البرابرة الشرقيين تحت حكم الحفصيين في القرن الرابع عشر .

هذا المرجع مهم جدا لكل باحث في تاريخ المغرب وقد رافقني المرجع منذ بداية البحث إلى آخره ويمتاز بسعة المعلومات حول جوانب المجتمع الحفصي، فقد أفاض في الجانب السياسي حيث تعرض بإسهاب إلى الثورات الداخلية معتمدا على تحليل الحوادث، كما تعرض إلى الحملة الصليبية، وكانت المعلومات التي قدمها مؤكدة لما جاء به بعض المؤرخين مثل ابن خلدون، وابن القنفد القسنطيني.

لقد انفرد هذا المرجع عن غيره حينما تطرق إلى الجانب الإجتماعي والحضاري للدولة فقد تناول المؤسسات التعليمية، وركز على دور المسجد في نشر الوعي وتكريس العلم. كما حاول جاهدا إبراز الإختلافات بين العرب الوافدين- حسب زعمه- والبرابرة السكان الأصليين لشمال افريقيا وقد تكاملت المعلومات التي قدمها المؤلف مع تلك التي أوردها المؤلف رانسمان ستيفل في كتابه تاريخ الحروب الصليبية الجزء الثالث .ويكاد الكتاب يختص بالحملات الصليبية وقد تعرض بشيئ من التفصيل إلى قوة وشجاعة السلطان الظاهر بيبرس، واصفا إياه بالعدو من الدرجة الأولى للصليبيين .

3-محتويات البحث:

قسمت بحثي هذا إلى الأقسام الآتية:

مقدمة وبابين بحيث يشمل الباب الأول على ثلاثة فصول والباب الثاني على فصلين تناولت في المقدمة دوافع البحث وأهدافه، ثم بعد ذلك تعرضت إلى دراسة عامة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها وفي آخر المقدمة قدمت طريقة عرض المادة العلمية.

فكان الباب الأول وعنوانه العلاقات السياسية بين الدولتين

في الفصل الأول منه، حاولت تقديم صورة عامة عن الوضع السياسي في المجتمع الحفصي مبينا نشأة الدولة وصعوبة توسعها ومد نفوذها على حساب دولة المغرب التي تسعى هي الأخرى إلى التوسع وبسط النفوذ ولإتمام هذا الموضوع انتقلت إلى عرض موجز حول الوضع السياسي في المجتمع المصري إبان دولة المماليك وحتى أظهر طبيعة العلاقات السياسية بين الدولتين انتقلت إلى الفصل الثاني من الباب الأول حيث تعرضت إلى الخطر المشترك بين الدولتين حيث أسرع السلطان الظاهر بيبرس إلى تنصيب خليفة عباسي آخر في القاهرة في الوقت الذي وصلت فيه بيعة معظم الإمارت الإسلامية إلى أبي عبد الله الحفصي سلطان الدولة الحفصية. أما الفصل الثالث من الباب الأول فكان بعنوان حملة لويس التاسع على تونس

وهو الفصل الذي تجلت فيه روح التعاون والتنسيق السياسي بين دولة المماليك ودولة الحفصيين وفي هذا الفصل أجبت عن عدة تساؤلات تتعلق بتحويل مسار الحملة من مصر نحو تونس .ومساهمة ملك صقلية شارل دانجوي بالتنسيق مع جمهورية جنوة من جهة ومع السلطان الظاهر بيبرس، السلطان أبي الله المستنصر بالله الحفصي من جهة ثانية، كل ذلك من زجل كسب مادي استولي عليه كل من ملك صقلية ورئيس جنوة.

واستوعب الباب الثاني من الرسالة العلاقات الثقافية والإقتصادية التي اقتضت الدراسة تقسيمه إلى فصلين:

خصص الأول منه للعلاقات الثقافية بين الدولتين، وحسب طبيعة المادة والعلمية فضلت تقسيمه إلى مبحثين أولهما يتحدث عن المؤسسات التعليمية المختلفة ابتداءا من المسجد إلى المدرسة حيث أوضحت فيه كيفية انتقال المؤسسات التعليمية من المشرق إلى المغرب، ومدى تطورها وسعة انتشارها، أما المنهج التعلمي والمواد التي تدرس والإشراف الإداري وشهادات التخرج ثم الرحلة العلمية فخصصت لها المبحث الثاني من الفصل الأول المتعلق بالعلاقات الثقافية .

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فقد استوعب العلاقات الإقتصادية حيث أظهرت فيه نمط الأسواق والسلع المتبادلة بين الدولتين ونظام الضرائب، كما أشرت إلى التبادل التجاري بين الدولتين والذي كان يتم بواسطة القوافل التي كانت تحمل السلع المغربية وتتحرك في نهاية الخريف نحو مصر لتعود محملة بسلع تفتقدها السوق الحفصية، كما أوضحت في هذا الفصل الطرق التي تسلكها القوافل وأهمية موقع الدولتين ،في الأخير تعرضت إلى النقود والمكاييل في أسواق الدولتين.

4- المنهج المتبع:

بعد القراءة الواسعة للمصادر والمراجع التي تضم معلومات تتعلق بموضوع الرسالة قمت بجمعها وترتيبها زمانا ومكانا ثم وضعتها في السياق العام للحادثة التاريخية آخذا في الحسبان خاصية التغيير التي تطرأ على العلاقات الدولية .

عندئذ اتضحت لي جملة من الحقائق التاريخية ذات الصلة المباشرة أو غير المباشرة بالمسار العام لكل مبحث فقمت بتحليلها وتوظيفها وفقا للمنهج العلمي المحايد المنزه عن الهوى والقائم على الموضوعية بقدر المستطاع وتثنج على هذا عدة حقائق أبرزتها في حينها على طول امتداد البحث .

وفي الأخير أسأل الله عز وجل أن يَنْفَع بهذا الجهد العلمي المتواضع والعمل التاريخي المبتدئ طلاب العلم ورواد التاريخ من أبناء الأمة الإسلامية خاصة والمهتمين بدراسة التاريخ عامة.

والحمد لله أولا وأخيرا

1-1ـ نسب الحفصيين واستقلالهم بافريقيا:

ينتسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص عمر(1) «الهنتاني» (2)، فجدّ الحفصيين الأعلى الذي ينتمون إليه هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- والحفصيون هم ورثة الدولة الموحدية التي دعا إليها الإمام المهدي محمد بن تومرت(3)، حيث ساعده في دعوته وجهاده الشيخ أبي حفص عمر، ولهذا كانت مكانة الحفصيين لدى الموحدين قائمة بعد وفاة شيخهم.

فعلى إثر إنتقال الخليفة الموحدي الناصر بن المنصور يعقوب (4) 595 هـ/610هـ/1199م-1213م.

من مراكش بالمغرب الأقصى إلى تونس على رأس حملة عسكرية كبرى لإخماد ثورة إبن غانية هذا (5) الذي عاث في الأرض فسادا، واستطاع بسط نفوذه على عدة مدن منها قسنطينة وبجاية وبونة.

1- هو الشيخ عمر بن يحي بن محمد بن والد بن علي بن أحمد بن ولال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، -رضي الله عنه- وقد انفرد ابن الشماع بسلسلة النسب انظر : ابو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية تح، د، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربي للكتاب1984-ص48

2- نسبة الى قبيلة هنتانة : وهي قبيلة من أعظم وأشد قبائل مصمودة البربرية، موطنهم جبل درن ...لمراكش بالغرب الأقصى انظر : ابن الشماع : السابق ص48، 49

وهي قبيلة واسعة كبيرة يقال بالبربرية : «ينتي»، وكان ابو حفص هذا هو شيخهم وكبيرهم، وهو الذي دعاهم إلى إتباع ابن تومرت انظر أيضا : عبد الله بن ابراهيم اللولوبي المعروف بالزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية القلقشندي : صبح الأعشى 52. مصور عن ط الأميرية طبعة تونس المحروسة، 1872، ص4.

3- ينتسب ابن تومرت إلى قبيلة «هرغة»، وهي بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية وبعض المؤرخين يرجعونه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر القلقشندي : السابق ص135، أيضا : الزركشي السابق ص2،3.

انظر : ابن خلودن عبد الرحمان : العبر ، ج6.ط .دار الكتاب اللبناني 1983، ص561.

أيضا : خير الدين الزركلي: الإعلام مجلد6، بيروت 1986، ص229.

4- هو ابو عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين انظر : الزركشي : السابق ص13.

وأيضا ابن الشماع : الأدلة البينة ص37، هامش رقم.3

5- ينتسب ابن غانية الى قبيلة مسوفة بصحراء لمتونة وهو مقرب من أمير المسلمين علي بن يوسف من تاشفين سلطان دولة المرابطين، وظهر يحي بن غانية ثائرا على دولة الموحدين بالمناطق الشرقية للمغرب. انظر : عبد الرحمان بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج1، ط .العربية الجزائر 1373هـ /1954م.

فحاربه الخليفة الموحدي الناصر ابن المنصور يعقوب، وانتصر عليه في عدة معارك استعاد على إثرها عدة مدن كان ابن غانية(1) قد سيطر عليها، ثم رحل الناصر بعد ذلك إلى تونس فأقام بها حولا كاملا يتابع أخبار ابن غانية الذي فرّ إلى صحراء برقة وانقطع خبره(2).

وعندئذ قرر الخليفة العودة إلى المغرب ونظر فيمن يوليه افريقيا فلم يجد أنسب من وزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الذي أجاب علي شروط (3)، فوفرها له الخليفة الناصر ورحل عن تونس في شهر رمضان سنة 603هـ/1205م، بعدما عقد لأبي محمد عبد الواحد على ولاية افريقيا، الذي اتصف بحسن التدبير، فصلحت به الأحوال، وانصاعت له الأجناد، وكان يقوم بإكرام الضيف، ويحسن استقبال الوفود (4) واخترع زمام التضييف، وكان يجلس كل يوم سبت لمسائل الناس(5)، بينما يقضى باقي أيام الأسبوع في تنظيم إدارة الولاية، فنظم الجند، ورتب الإدارة ترتيبا يتماشى مع تعلميات وتقاليد الدولة الموحدية(6).

هذا وقد كانت ثورة يحي بن غانية من الإنشغالات الأولى التي واجهت الوالي الحفصي الشيخ محمد عبد الواحد فقد عاد يحي بن غانية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية من جديد وأصبح الشغل الشاغل للحفصيين، ولهذا جهز الشيخ ابو محمد عبد الواحد جيشا ضخما وخرج لقتال ابن غانية، من غير استئذان الخليفة الموحدي الناصر الذي صرف وجهه الى الجهاد بالأندلس في عزم لم يبلغ إليه سلطان مسلم قبله(7) وفي هذه المعركة التي انتصر فيها الشيخ ابو محمد عبد الواحد،، استعملت كافة إمكانيات الجهتين، وعلى إثر إنهزام ابن غانية الذي فرّ ولجأ إلى طربلس الغرب (8).

- 1- انظر الصفحة رقم01 هامش رقم 5

2- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص12، 13

3- من بين الشروط ألا تزيد مدة ولايته على ثلاثة سنين، ولا يسأل عن عمل قام به ولا يعاتب فيه.

انظر: أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب-المسمى التذكار-نشره .أ. الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، ط1. السلفية-القاهرة سنة 1349هـ/ ص92.91

-انظر أيضا الزركشي : السابق ص13

4- الزركشي : السابق ص13

5- ابن الشماع : الأدلة البينة، ص50، 51

6- ابن الشماع : السابق ص54.

7- الزركشي : تاريخ الدولتين ص14

ابن ابي زرع (ابو الحسن علي بن محمد بن عمر) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس طبع حجر، المغرب ، بدون تاريخ ص184.

8- الزركشي : السابق ص13

1-1- نسب الحفصيين واستقلالهم بافريقيا:

ينتسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص عمر(1) «الهنتاني» (2)، فجدّ الحفصيين الأعلى الذي ينتمون إليه هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- والحفصيون هم ورثة الدولة الموحدية التي دعا إليها الإمام المهدي محمد بن تومرت(3)، حيث ساعده في دعوته وجهاده الشيخ أبي حفص عمر، ولهذا كانت مكانة الحفصيين لدى الموحدين قائمة بعد وفاة شيخهم.

فعلى إثر إنتقال الخليفة الموحدي الناصر بن المنصور يعقوب (4) 595 هـ/610هـ/1119م-1213م.

من مراكش بالمغرب الأقصى إلى تونس على رأس حملة عسكرية كبرى لإخماد ثورة إبن غانية هذا (5) الذي عاث في الأرض فسادا، واستطاع بسط نفوذه على عدة مدن منها قسنطينة وبجاية وبونة.

1- هو الشيخ عمر بن يحي بن محمد بن والد بن علي بن أحمد بن ولال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، -رضي الله عنه- وقد انفرد ابن الشماع بسلسلة النسب انظر : ابو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية تح، د، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربي للكتاب1984-ص48

2- نسبة الى قبيلة هنتانة : وهي قبيلة من أعظم وأشد قبائل مصمودة البربرية، موطنهم جبل درن ...لمراكش بالغرب الأقصى انظر : ابن الشماع : السابق ص48، 49

وهي قبيلة واسعة كبيرة يقال بالبربرية : «ينتي»، وكان ابو حفص هذا هو شيخهم وكبيرهم، وهو الذي دعاهم إلى إتباع ابن تومرت انظر أيضا : عبد الله بن ابراهيم اللولوبي المعروف بالزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية القلقشندي : صبح الأعشى 52. مصور عن ط الأميرية طبعة تونس المحروسة، 1872، ص4.

3- ينتسب ابن تومرت إلى قبيلة «هرغة»، وهي بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية وبعض المؤرخين يرجعونه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر القلقشندي : السابق ص135، أيضا : الزركشي السابق ص2،3.

انظر : ابن خلودن عبد الرحمان : العبر ، ج6.ط .دار الكتاب اللبناني 1983، ص561.

أيضا : خير الدين الزركلي: الإعلام مجلد6، بيروت 1986، ص229.

4- هو ابو عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين انظر : الزركشي : السابق ص13.

وأيضا ابن الشماع : الأدلة البينة ص37، هامش رقم3

5- ينتسب ابن غانية الى قبيلة مسوفة بصحراء لمتونة وهو مقرب من أمير المسلمين علي بن يوسف من تاشفين سلطان دولة المرابطين، وظهر يحي بن غانية ثائرا على دولة الموحدين بالمناطق الشرقية للمغرب. انظر : عبد الرحمان بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج1، ط .العربية الجزائر 1373هـ /1954م.

فحاربه الخليفة الموحدي الناصر ابن المنصور يعقوب، وانتصر عليه في عدة معارك استعاد على إثرها عدة مدن كان ابن غانية(1) قد سيطر عليها، ثم رحل الناصر بعد ذلك إلى تونس فأقام بها حولا كاملا يتابع أخبار ابن غانية الذي فرّ إلى صحراء برقة وانقطع خبره(2).

وعندئذ قرر الخليفة العودة إلى المغرب ونظر فيمن يوليه افريقيا فلم يجد أنسب من وزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الذي أجاب علي شروط (3)، فوفرها له الخليفة الناصر ورحل عن تونس في شهر رمضان سنة 603هـ/1205م، بعدما عقد لأبي محمد عبد الواحد على ولاية افريقيا، الذي اتصف بحسن التدبير، فصلحت به الأحوال، وانصاعت له الأجناد، وكان يقوم بإكرام الضيف، ويحسن استقبال الوفود (4) واخترع زمام التضييف، وكان يجلس كل يوم سبت لمسائل الناس(5)، بينما يقضى باقي أيام الأسبوع في تنظيم إدارة الولاية، فنظم الجند، ورتب الإدارة ترتيبا يتماشى مع تعلميات وتقاليد الدولة الموحدية(6).

هذا وقد كانت ثورة يحي بن غانية من الإنشغالات الأولى التي واجهت الوالي الحفصي الشيخ محمد عبد الواحد فقد عاد يحي بن غانية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية من جديد وأصبح الشغل الشاغل للحفصيين، ولهذا جهز الشيخ ابو محمد عبد الواحد جيشا ضخما وخرج لقتال ابن غانية، من غير استئذان الخليفة الموحدي الناصر الذي صرف وجهه الى الجهاد بالأندلس في عزم لم يبلغ إليه سلطان مسلم قبله(7) وفي هذه المعركة التي انتصر فيها الشيخ ابو محمد عبد الواحد،، استعملت كافة إمكانيات الجهتين، وعلى إثر إنهزام ابن غانية الذي فرّ ولجأ إلى طربلس الغرب (8).

- 1- انظر الصفحة رقم01 هامش رقم 5

2- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص12، 13

3- من بين الشروط ألا تزيد مدة ولايته على ثلاثة سنين، ولا يسأل عن عمل قام به ولا يعاتب فيه.

انظر: أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب-المسمى التذكار-نشره .أ. الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، ط1. السلفية-القاهرة سنة 1349هـ/ ص91.92

-انظر أيضا الزركشي : السابق ص13

4- الزركشي : السابق ص13

5- ابن الشماع : الأدلة البينة، ص50، 51

6- ابن الشماع : السابق ص54.

7- الزركشي : تاريخ الدولتين ص14

ابن ابي زرع (ابو الحسن علي بن محمد بن عمر) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس طبع حجر، المغرب ، بدون تاريخ ص184.

8- الزركشي : السابق ص13

عاد الشيخ الحفصي إلى تونس معززا مكرما، وهكذا بدأ الحفصيون يشلكون نواة دولتهم والتي لم يُفصح عنها بعد، وخاصة أن الوضع السياسي لدولة الموحدين كان يزداد سوءا، فقد توفى السلطان الناصر يوم 10شعبان 610هـ/5أفريل 1213م(1)، وترك الخلافة لولده إبن أبي عبد الله محمد الناصر الذي لم يَنل رضا مشيخة الحفصيين فتأخرت بيعة الأمير الشيخ الحفصي أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص(2) وهكذا ظل ولاء الحفصيين للموحدين متأرجحا بين الإنفصال والتبعية الى أن توفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد سنة 618هـ/ 1221م، بمدينة تونس(3).

وبعد وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد، إفترق الناس فريقين بين عبد الرحمان إبنه وإبن أخيه ابراهيم بن اسماعيل ابن الشيخ أبي حفص، ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد (4) لكن الأحداث لم تتوقف، واستمر التوتر يسود القبائل المختلفة، زيادة على ظهور يحي بن غانية مرة أخرى وأصبح يهدد مشارف مدينة تونس(5) وبالرغم من أنه انهزم مرة أخرى، فإن الفتن لم تهدأ إلا بعد ما جاء أحد الرجال الحفصيين الأقوياء، وهو الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي(6)، 626هـ/647هـ/1229م/1249م) ، الذي استقل بافريقيا عن الموحدين وأخذ البيعة لنفسه، وساد حكمه في افريقيا، ودانت له طرابلس الغرب بالولاء، واعترف بسلطانه أمراء سبتة وغرناطة واشبيلية وبلنسية. وفي عهد السلطان أبي زكريا يحي أصبحت تونس محل اهتمام دول الغرب والأندلس(7)، وتعدى ذلك إلى سلاطين وأمراء دول المشرق الإسلامي. وخير دليل على ذلك انتقال مركز الخلافة الإسلامية من المشرق إلى تونس، على إثر الغزو المغولي لبغداد واسقاطه الخلافة العباسية سنة 658هـ/1260م.

1-إبن الشماع : الأدلة البينة النورانية، حاشية رقم 2 ص53،
وأيضا الزركشي :تاريخ الدولتين ص14.

2- الزركشي : السابق ص14- ابن خلدون (عبدالرحمان) : العبر، مجلد 6 ط، دار الكتاب اللبنانية سنة1983، ص587 انظر أيضا : ابن الشماع : الأدلة البينة ص52، الزركشي : تاريخ الدولتين ص14، المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) : السلوك لمعرفة دول الملوك،ج نشر وتحقيق د.محمد مصطفى زيادة ط2، القاهرة 1956 ص62

4- راجع ذلك في : ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية، من حاشية رقم 2ص53.

الزركشي : تاريخ الدولتين ص24. ابن خلدون (عبدالرحمان) العبر : مجلد 6، ص587

ابن القنفذ : (ابو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب) : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية» نشر محمد الشاذلي النيصر، وعبد المجيد التركي، تونس 1968م، ص106

5- الزركشي : تاريخ الدولتين ص14

6- هو أبو زكريا يحي بن أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ولد سنة 599هـ/1203، وتعلم عن الشيخ الرعيني السوسي (ابو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الصوفية) من قصانيفة أحياء علوم الدين-تهافت الفلاسفة

7- ابن الشماع : الأدلة البينة حاشية رقم 2ص52. الضربيني (أبو العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدراية، تحقيق وتقديم د.عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1400هـ، ص172.

ثم جددت بيعته بعد وصوله إلى حضرة تونس (1)، وذلك سنة 647هـ/ 1249م وعمره لا يتجاوز اثنتين وعشرين سنة، وقد انتهج نفس سياسة أبيه الذي إمتاز بالحكمة حيث ضبط الشؤون الإدارية والسياسية. فتوسع ملكه، وعظم شأن الدولة الحفصية وظلت تحكم البلاد الإفريقية قرابة ثلاثة قرون ونصف من الزمن. ومما زادها تمكينا أن حكمهم استند على أسس الخلافة الإسلامية الشرعية، وأقصد بذلك نسبهم القرشي، ومن تم أصلهم العربي، زيادة على ذلك زعمهم وإشاعتهم بأن جدهم يتصل بالخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-(2)، ولذا عرفت دولتهم باسم الدولة العمرية أو الفاروقية(3)، وجدير بالإشارة أن السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد قد بويع بالخلافة الإسلامية، ولقب بأمير المؤمنين المستنصر بالله(4).

وكانت حدود الدولة الحفصية بعدما ضمت كل من قسنطينة وبجاية وما جاورهما تشمل طرابلس الغرب في ليبيا شرقا ومعظم أجزاء الدولة الجزائرية حاليا ومن الناحية الغربية كانت جبال سعيدة (5)، تمثل الحدود السياسية والطبيعية لدولة الحفصيين، أما حدودها الشمالية فكانت سواحل البحر الأبيض المتوسط. وتمتد جنوبا إلى منطقة توات(6) لتنحرف بعد ذلك نحو سجلماسة (7)

1- ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج4، نشرة أ.هويتي ميرندا، ومحمد بن تاويت التطواني وابراهيم الكتاني، الرباط1962، ص267.

وانظر أيضا : القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى في صناعة الأنشا ج5، مصور عن ط، الأميرية، القاهرة 1963/1383، ص126-275.

-الزركشي : تاريخ الدولتين ص24.

2- ابن خلدون : عبد الرحمان : العبر مجلد 6، ص579 . و الزركشي : السابق : 18، 149

3- ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب) : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية. نشر محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، تونس 1968ص108.

4- انظر ذلك في الفصل الـ ص

5- ابن الشماع : الأدلة البينة ص34.

6- ابن سعيد المغربي : «كتاب الجغرافيا» ، ط1، بيروت، 1970، ص14.

وأيضا : د.مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية بتاريخ ص181 وابن خلدون (عبد الرحمان) : العبر مجلد 6، ص120.

7- سجلماسة : وهي مدينة بنيت سنة (140هـ) وهي مدينة سهلة أرضها سبخة وحولها أرياض كثيرة وهي في أول الصحراء قريبة من بلاد السوس من الناحية الشرقية بالمغرب الأقصى. انظر : البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد افريقيا أو المغرب ، ط .مكتبة المثنى بغداد بدون تاريخ ص138. وكانت مدينة عظمة إسلامية بينها وبين البحر الرومي (المحيط الأطلسي)خمس عشرة مرحلة وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج5، ص163

1-2 ـ توسع دولة الحفصيين:

بعد أن هدأت الأطراف القبائلية المتنازعة، وصار اسم الأمير أبي زكريا يحي الحفصي على كل لسان مذكورا بالخير، والدعاء له بالفلاح، بادر بخلع بيعة بني عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين(1)، ثم نهض إلى قسنطينة 628 هـ/1230م، لاسترجاعها وضمها إلى دولته، حيث حاصرها أياما، ثم دخلها وقبض على واليها وعين واليا آخر عليها وبعدها رحل إلى بجاية ففتحها وقبض على واليها وصيرهما إلى المهدية معتقلين وبعث بأهلهما وولدهما إلى الأندلس فنزلوا باشبيلية(2).

رجع إلى تونس لضرورة العمل السياسي، حيث استقبل وفود بعض الإمارات الأندلسية التي جاءت لتقديم البيعة(3)، وفي 634هـ/1236م، عاد مرة أخرى إلى بجاية ليفتقد شؤون الولاية وبعدها إلى الجزائر فحاصرها وافتتحها ثم ولّى عليها من قبله(4)، وعرّج في الأخير نحو بلاد مغراوة فأطاعه بني منديل(5)، وتجاهر بنو توجين(6)، بالإعتراض فحاربهم وأوقع بهم هزيمة بعد أن قبض على رئيسهم عبد القوي ابن الفاسي وبعث به إلى تونس.

وهكذا كان الأمير أبا زكريا رجلا استقامت به الأحوال إلى أن مات في مدينة بونة(7) سنة 647هـ/1249م. وتولى الحكم من بعده ولده أبو عبد الله محمد 647/672هـ 1249/1277م، الذي أخذ له البيعة على الخاصة وسائر قادة العسكر عمه محمد اللحياني في مدينة بونة.

1- ابن الشماع : الأدلة البينة ص58، الزركشي : تاريخ الدولتين ص18.

2- الزركشي : السابق ص19.

3- منها وفد أهل بلنسية، واشبيلية وشاطبة (شرقي قرطبة)

انظر : ابن خلدون (عبد الرحمان) : العبر مجلد 6 ص601-604

د.عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ط1، القاهرة 1383/1964، ص373

4- الزركشي :السابق ص21

5- بلاد مغراوة : هي منطقة تبعد بحوالي مسيرة أربع إلى خمسة أيام جنوب غرب الجزائر على وادي الشلف، انظر : ابن خلدون : العبر ج6، ص102، ابن عذاري : البيان المغرب ج3، ص268.

6- بنو توجين : هم قبائل تتمركز بالقرب من تلمسان من الناحية الغربية وبالقرب من جبل الونشريس ينحدرون من مغراوة انظر : ابن خلدون : العبر :ج 7، ص223

7- بونة هي مدينة قريبة من حدود مدينة تونس وهي آلان تابعة للجزائر.

انظر ذلك : ابن سعيد : «كتاب الجغرافيا»، ط1، بيروت ، 1970، ص145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-3- العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ودول المغرب المجاورة

منذ بداية القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي- ونظام حكم الدولة الموحدية يعاني من الضعف الإداري، والإضطراب السياسي ومن تم العجز العسكري، وسبب ذلك يعود إلى الثورات الداخلية من جهة، والتوسع الصليبي الذي أخذ يسترجع الأراضي الأندلسية من جهة أخرى، هذا الوضع السياسي الحرج دفع بعض شيوخ القبائل بأن يعلنوا استقلالهم بالمناطق التي يقيمون عليها، وأظهروا ملامح الإنفصال عن الدولة الأم، كما فعلت الدولة الحفصية سنة 603هـ/1205م، حيث أبدت رغبتها في الاستقلال دون الإفصاح عليه. وظلت تهيء أمورها الإدارية والعسكرية إلى أن أتيحت لها الفرصة المناسبة سنة 625هـ/1227م، حيث تم الإعلان الرسمي عن الاستقلال بأرض افريقيا (القسم الشرقي للمغرب الإسلامي) ويعتبر انفصال الحفصيين عن دولة الموحدين دافعا لبعض القبائل الأخرى على الإستقلال، فقد سلك الزيانيون(1) نفس الطريقة، حيث أنشأ أبوعزة العبد الوادي إمارة سنة 627 هـ/1229م تابعة للموحدين عاصمتها مراكش وأخذ يمهد للإستقلال الذي أعلنه أخوه الأمير يغمراسن سنة 633هـ/1235م واختار تلمسان عاصمة له (2).

أما قبائل بني مرين فقد حددت موقفها من الدولة الموحدية منذ أمد بعيد فقد إتخذت الصحاري موطنا لها، وحياة البدو الرحل نمطا لحياتها، ويكفي أن ندلل على ذلك بوصف المؤرخ المغربي إبن أبي دينار حيث يقول : «..بنو مرين كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب افريقيا، ويتنقلون من مكان إلى آخر، وجل أموالهم الإبل والخيل وطعامهم اللحوم والتمر..»(3).

---

1 -تنسب هذه الدولة إلى بني عبد الواد، وهم بطن من بطون زناتة، وهؤلاء كانوا يحيون حياة التنقل والترحال في صحراء المغرب الأوسط. وقد قاوم بنو عبد الواد الموحدين أول الأمر ولكنهم أصبحوا من معاونيهم وحلفائهم في المغرب الأوسط. واستقروا نتيجة للإقطاعات التي منحها لهم الموحدون في نواحي تلمسان، واستقلوا عنهم سنة 633هـ، حيث تولى يغمراسن بني زيان أمر بني عبد الواد، أنظر ذلك: يحي بني خلدون: بغية الرواد ج1، الجزائر 1321 / 1903، ص104، عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ، ج2، ط2، بيروت1965ص125.

2- ابن خلدون (عبد الرحمان) : العبر مجلد6، ص610

وكانت تلمسان تحمل في القديم اسم قيصرية في الوقت الذي كانت فيه خاضعة لسيطرة الرومان، ثم آلت إلى ملوكها الأقدمين، وهم بني عبد الواد المنتمون إلى قبيلة مغراوة، وقد احتفظوا بالملك ثلاثة قرون إلى أن انتزعه منهم أمير كبير هو يغمراسن بن زيان ومن ثم أصبح إسم بني عبد الواد بالزيانيين. نسبة إلى أولاد زيان.

أنظر : الحسن الوازني الفاسي: وصف افريقية ط2، ج2، بيروت 1983، ص7.

3- المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح .محمد سعيد العريان القاهرة 1383/1963م، ص120

وجدير بالإشارة إلى أن قبائل بني مرين لم تكن خاملة، وإنما كانت نشيطة حيث كان لها دور في السياق العام لأحداث المغرب(1)، فقد كانت تسبب المتاعب للدولة الموحدية وفي كثير من الأحيان كانت المعارك حامية الوطيس بين قبائل بني مرين ودولة الموحدين مثل المعركة التي قتل فيها شيخ المرينيين المخضّب سنة 540هـ/1145م (2). وبعد أن قويت شكوتهم دخلوا المغرب الأقصى من أجل الإستحواذ على خيراته (3) وبدأوا يفكرون جديا في الإطاحة بسلطان دولة الموحدين الذين منعوهم من توسيع نفوذهم-حسب زعمهم (4)، وهكذا اتضحت صورة المغرب الإسلامي السياسي قبل نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي حيث ظهرت فيه ثلاثة دول هي دولة الحفصيين في شرق المغرب، ودولة الزيانيين في وسطه، أما الدولة المرينية فاكتفت بغرب المغرب الإسلامي، وجدير بالإشارة إلى أن هذه الدول الثلاثة تسعى كل واحدة لتتوسع على حساب الأخرى.

1- مجهول : الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تح، محمد بن أبي شنب، ط ،جول كربونل الجزائر 1339/ 1920، ص18، 19.

2- ابن خلدون : العبر ، ط بولاق ج7، القاهرة 1284، ص167.

3- محمد الفاسي : التعريف بالمغرب، معهد الدراسات العربية العالمية، ط1961، ص46.

4- محمد الفاسي : السابق، نفس الصفحة.

وأيضا: محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني، مجلة الهيئة، العدد الثامن، السنة الأولى 1382هـ/1962م، ص18

وجسّد المرينيون رغبتهم في الاطاحة بالموحدين في كثير من المعارك وكانت مرقعه وادي تلاغ، التي اشتبك فيها جيش قبائل بني مرين بقيادة شيخهم عبد الحق المريني مع جيش الموحدين سنة 591هـ/1193، وانتصر المرينيون انتصارا باهرا في هذه الموقعة ، انظر : ابن خلدون : العبر ، بولاق ،ج7، ص167.ووادي تلاغ يقع بين رباط تازا والمقرمدة : انظر السلاوي: الإستقصاء بدون تاريخ، ج2، ص3.4.

ولهذا كانت الأوضاع السياسية في المغرب الإسلامي تتصف بالإضطراب و القلاقل التي تتركها الثورات القبائلية و حركات التوسع التي تنتهجها الدول الثلاثة، فبالنسبة لدولة الزيانيين كان سلطانها يغمراسن بن زيان يسعى بكل ما يملك من قوة الى توطيد أركان دولته وتوسيع حيزها الجغرافي والسياسي باستمالة شيوخ القبائل العربية والبربرية المجاورة لعاصمة دولته تلمسان فقد بدأ حملته بمحاولة اقناعهم بضرورة التكتل وتجميع القوى، فتلك هي الوسيلة الحقيقية لإستمرار البقاء (1)، لكن هذه المحاولات وطريقة عرضها على القبائل كانت فاترة بسبب الخوف من الإصطدام بقوة دولة الحفصيين والتي تنمو وتزداد على مرّ الأيام بطريقة محكمة، فالأمير الحفصي أبي زكريا يحي ما فتئ يحقق الإنتصار تلو الآخر، فبعد أن أخضع عدة جهات من الشرق، إتصل بأمير الزيانيين طالبا منه قطع صلته بالدولة الموحدية و الدخول في طاعة الحفصيين (2).

امتنع أمير الزيانيين يغمراسن بن زيان معللا ذلك بالظرف السياسي الداخلي بأنه غير مناسب ولكن الحقيقة هي أن قوة الدولة الموحدية مازالت قادرة على حماية حدود إمارته،

1 - ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية و تونس ، تح، محمد شمام ،ط3 ، 1387 ،ص 126.

2 - الزركشي : تاريخ الدولتين ،ص21

و أشير الى أن الزيانيين كانوا يتبعون الحفصيين تارة و يثورون عليهم تارة أخرى وقد إستطاعوا أن يوفروا لأنفسهم الأمن و الإستقرار في ظل سياسة التقارب مع الحفصيين و ذلك مدة مائة و ثلاثين سنة .

و في القرن التاسع أي سنة 848 هـ/1424 استطاع السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز الحفصي ملك تونس أن يحتل تلمسان واكتفى بإخضاع بني زيان لسلطته . و قد وصل حفيده أبو عمرو عثمان الى أسوار تلمسان عام 866 هـ/1462 انظر :الحسن الوزان الفاسي وصف افريقية ج2 ،ط2، ص8 حاشية رقم3

ولذلك اتصفت سياسة دولة الزيانيين بالإزدواجية وباللين والمراوغة(1) تارة في مواقفها إزاء الأحداث التي تهدد كيان دول المغرب في هذه الفترة الزمنية هذا الموقف لم يكن واضحًا مما دفع السلطان أبي زكريا الحفصي الى إعلان التعبئة العامة في صفوف عساكر دولته الفتية، وطلب الدعم من بعض القبائل المؤيدة له من أجل إزالة عقبة الزيانيين التي تحول دون الوصول إلى الهدف المنشود والذي يتمثل في الدولة الحفصية الكبرى (2).

وفعلا قاد السلطان الحفصي حملة عسكرية على عاصمة الزيانيين - تلمسان - وذلك في شهر شوال سنة 639 هـ/1241 م (3). وحاصرها حتى أخذها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة 640 هـ/1242م فلما رأى يغمراسن ما أحاط بالبلد قَصَدَ باب القصبة، فارًّا بأهله وماله وبذلك إفتتحت جيوش الحفصيين تلمسان (4). و بعد نهاية الحصار وترتيب الأوضاع أعلنت دولة الزيانيين موافقتها في الدخول تحت طاعة دولة الحفصيين .ولذلك اتصفت العلاقات السياسية بين الزيانيين والحفصيين بغير المستقرة ، تارة تتصف بالود والتعاون ، ومرة أخرى بالجفاء والتوتر، فقد حاولت دولة الزيانيين الإنفصال عن الحفصيين سنة659 هـ/1260 وأخضعوا بالقوة.

---

1 - ابن عذاري: البيان المغرب ص360

2 - ابن خلدون (عبد الرحمان) : العبر ج6 ، ط بولاق ،ص287

3 - انظر ذلك بالتفصيل : ابن الشماع : الأدلة البينة ص

ابن القنفد: الفارسية ص109

الزركشي: تاريخ الدولتين ص121

و قد أشار الزركشي الى أن هذا الجيش وصلت حمولته أربعة و ستون ألفا من الفرسان و خالفه في ذلك ابن خلدون (ابوزكريا يحي)حيث أشار إلى اثني عشرة ألفا من الفرسان

انظر : ابن خلدون (أبي زكريا يحي):بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد ط .بالجزائر 1321 هـ/1903 م ص112 .

4 - الزركشي: السابق ص21

ابن خلدون (ابوزكريا يحي) : نفس المصدر و الصفحة.

5 - الزركشي: السابق ص22

ابن عذارى: البيان المغرب ج4،ص 425 .

6 - ابن خلدون (عبد الرحمان): العبر ج6 بيروت ص292

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما علاقة الحفصيين بدولة المرينيين فإنه يلاحظ من سير الأحداث أنها مرت بمرحلتين أثناء الفترة التي نحن بصدد بحث حوادثها، فالأولى إمتازت بتبعية المرينيين لدولة الحفصيين منذ سنة 625هـ/1227م (1)، ويبدو من خلال السياق العام للأحداث التي مرت بها دولة المرينيين، أنها تبعية ظاهرية ولا أكثر، فعلى أساس مكانة دولة الحفصيين، فإن القبائل لن تتأخر في تدعيم بني مرين في مجهودها العسكري مادام هؤلاء تحت راية بني حفص هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبتعدوا عن حملات الحفصيين الذين قد يحاصروهم مثلما فعلوا مع بني زيان(2)، الأمر الذي يسهّل لبني مرين التفرغ وحشد كل طاقاتهم المادية والمعنوية لتوسيع دولتهم الكبرى التي يطمحون في تكوينها، والأحداث العسكرية المستقبلية أوضحت ذلك فقد إحتل بنو مرين مدينة مكناسة الزيتون(3) سنة 642هـ/1244م، وفي سنة 643هـ/1244م، أرسل أهل مكناسة بيعتهم إلى الأمير أبي زكريا الحفصي (4) وقد قام بمراسيم البيعة الشيخ أبو المطرف بن عميرة المخزومي(5)، وقد كان سقوط هذه المدينة في أيدي المرينيين، بمثابة الفاجعة الكبرى للدولة الموحدية المتهاوية.

1- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى، ج5، ص 196
وأيضا : د.أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ، ج 1 بنغازي ليبيا سنة1967، ص54

2 -أنظر: ص.. من هذا الفصل

3- تقع بين بلدة سلفات وجبل زرهول جنوب مدينة فاس المغربية.
أنظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ج 1. الرباط 1973; ص272

4 - مجهول: الدخيرة السنية ص 71،70.
القلقشندي صبح الاعشى ج5، ص196

5 - وهو من أعلام العصر ومشاهيره كان يشغل منصب قضاء مدينة مكناسة الزيتون أنظر: السلاوي: الإستقصا ج2، ص06
إبن عذاري: البيان المغرب ج4 ص 446
د.عنان: عصر المرابطين والموحدين ق2. ص524
القلقشندي: السابق ص 197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واستمر المرينيون في مضايقة الدولة الموحدية، بالاستيلاء على المدن وضم بعض المناطق إليهم بعد ماكانت تابعة للموحدين ومما تجدر الإشارة إليه أن الزيانيين لم يرقهم هذا التحول لصالح المرنيين فقاموا بشن غارات على أطراف المغرب الأقصى وخاصة المناطق المحيطة بوادي أم الربيع (1)فكان يغمراسن أمير الزيانيين يراقب تطور الأحداث ويحاول بسط نفوذه هو الآخر على بعض الأقاليم نذكر منها اقليم سجلماسة الذي سيطر عليه المرينيون من قبل وتُعتبر المعركة التي دارت بين المرينيين والزيانين عند وادي إسيلي سنة 670هـ/1271م (2)والتي أنتصر خلالها المرينيون إنتصارا حاسما منعطفا غيّر الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الإسلامي رأسا على عقب، إذ فتحت الأبواب أمام المرينيين وتقدموا نحو تلمسان عاصمة الزيانيين فحاصروها، وساعدتهم في ذلك قبائل توجين بقيادة زعيمها محمد بن عبد القوي التجيني (3) بالدعم والمساندة في الحصار. وبذلك كثر عدد الجيوش المرينية الأمر الذي تطلب تطوير الإدارة، والمرافق الحكومية حيث أمر السلطان المريني سنة 674 هـ/1275 ببناء عاصمة جديدة سماها (فاس الجديدة) (4).

1- مجهول : الدخيرة السنية، ص130

ابن خلدون : العبر ، ط.بولاق، ج7، ص179

2- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ط. الرباط 1973

ابن خلدون :السابق ص180

3- هذه القبائل كانت قد قدمت ولاءها للدولة الحفصية إبان حصار هذه الأخيرة لمدينة تلمسان أنظر ص.. من هذا الفصل

ابن خلدون : السابق : ص181

4- مجهول :السابق ص186، 1875

السلاوي، الاستقصا، ج2، مصر، 1312هـ، ص22

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإذا تتبعنا العلاقات السياسية بين المرينيين والزيانيين نجدها علاقات إتسمت بالعداوة والبغضاء، فقد مرت بمرحلتين هامتين خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي- فالمرحلة الأولى اتسمت بالصراع ودامت من 610هـ/1212م(1)، إلى سقوط الورحدين سنة 668هـ/ 1269م، أما المرحلة الثانية فامتدت من نهاية الأولى إلى سنة 714هـ/1314(2) وتتصف هذه المرحلة بسيطرة الدولة المرينية، وقيامها بعدة حملات تأديبية على الزيانيين في عقر دارهم تلمسان(3).

ولم تكن الأحداث التي وقعت بين المرينيين والزيانيين بعيدة عن أعين الدولة الحفصية، التي كانت علاقتها السياسية مع دولة بني مرين تتصف بالود منذ النشأة إلى غاية حصار المريني لتلمسان عاصمة الزيانيين سنة 671هـ/1272م(4)، حيث شهدت العلاقات بينهما نوعا من الفتور وخاصة منذ عهد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بن يعقوب الذي أراد أن تكون تبعية المرينين للحفصيين إسمية لا أكثر وقد أثر هذا الموقف على العلاقات بين الدولتين، حيث اتصفت فيما بعد بالجفاء فقد أصبحت كل من الدولتين تستقبل الثائرين على الأخرى(5).

1- ابن خلدون : العبر، ط. بولاق7، ص167

2- مجهول : الدخيرة السنية ص ص68، 69

3- السلاوي : الاستقصا، ج2، ص ص 36-37

أ.عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، بيروت 1965، ص78

4- ابن خلدون : العبر، السابق ص184

5- عندما حاصر المرينيون تلمسان خرج الأمير راشد بن محمد على المرينيين وفرّ إلى تونس وقريب من هذا الحادث فرّ ثائرا آخر على الحفصيين إلى بلاط المرينيين سنة 701هـ/1301م

ابن خلدون : السابق ص225.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- الوضع السياسي في مصر

1-قيام دولة المماليك

إن السنوات الأخيرة من النصف الأول للقرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي كانت مرحلة صعبة بالنسبة للصليبيين المقيمين في الشرق الإسلامي الأدنى، فقد تميزت بسقوط بيت المقدس سنة 642هـ/1244م، في أيدي المسلمين (1)، وكان لهذا السقوط صدى عميق وواسع روج له دعاة الروح الصليبية الحاقدة، وعليه فلابد أن تجد من تستجيب لها فبعد الإتصالات بالملوك والقديسيين في أوربا، أبدى الملك لويس التاسع رغبته في تنظيم حملة صليبية على مصر، وهذا انطلاقا من الإعتقاد السائد في أوربا والذي يرى أنه ما دامت مصر باقية على ماهي عليه من البأس والقوة، فإن كل مشاريع الصليبيين في الشرق الأسلامي الأدنى مآلها الفشل(2)، وحتى يوفر لويس التاسع لنفسه أسباب الانتصار على المسلمين في مصر، انتقل إلى جزيرة قبرص التابعة لحكم أسرة آل لوزجنانLusignan وهم مسيحيون لاتينيون. وانطلاقا من هذه القاعدة إتصل الملك الفرنسي بالمغول طالبا منهم المساهمة في تطهير الأراضي المقدسة من المسلمين، أو البقاء على الحياد في الحروب بين المسيحيين والمسلمين (3).

لكن هذا الاستعداد الصليبي لم يقابله حزم إسلامي في الأراضي المصرية والشامية، فالسلطان الصالح أيوب لم يكن يملك قدرة كافية على التصدي وخاصة أن أمير جيشه فخر الدين(4) إنسحب بجيشه وحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني (5)، ليتولى قيادة الجيش الإسلامي، ويفهم من هذه المعلومات التي قدمها المقريزي أن المسلمين لا يملكون خطة للتنفيذ، بل يوجد إختلاف بين السلطان والأمراء على قيادة الجيش الإسلامي(6).

1- المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 : تح، مصطفى زيادة، القاهرة 1936، ص334، الحاشية رقم 2

2- المقريزي : السابق : ص335

3- عبد الله ابراهيم محمد راجع : علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس، رسالة الماجستير، جامعة الأزهر سنة 1983، ص119.

4- الأمير فخر الدين : هو الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ بن حمويه، من أكابر أمراء السلطان الأيوبي الصالح أيوب كان فاضلا مهيبا، قتله الفرنج أثناء الحملة الصليبية الثامنة على دمياط في ذي القعدة سنة 647هـ/ 1249 ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13، ص178 بيروت 1982/1402 ، ص178

5- المقريزي : السلوك ج 1، ص345

6- المقريزي : السابق : نفس الصفحة

ومما يوضح هذه المعلومات وفاة السلطان الصالح أيوب وإخفاء خبر موته خشية الإرتباك الذي قد يحدث في أوساط الجيش (1). وكل الإجراءات الأخرى التي أخذها المسلمون باءت بالفشل الذريع(2)، ولم يجد الصليبيون أية صعوبة في دخول مدينة المنصورة التي عاثوا فيها فسادا.

حيث استمروا في هجومهم يقتلون المسلمين أينما وجدوهم، وقد وصلت طلائع الصليبيين إلى قصر السلطان نفسه، وهكذا اتضح للمسلمين في ديار مصر والشام أن يوم الهزيمة المشؤوم قد حلّ كما تبين للصليبيين أن يوم الإنتقام من المسلمين قد أقبل.

وبعد إنتصار المسلمين على الصليبيين وفشل حملتهم على مصر، ظهرت فتنة منصب السلطان الذي يتولى أمر المسلمين في مصر، ذلك أن تورانشاه ولي العهد وابن السلطان الصالح أيوب أرتاب في موقف المماليك البحرية الذين أنقذوا مصر من غزو صليبي جديد، فكان منه الإعراض عنهم. وقرب غيرهم منه، وأمر طبيعي أن هذا يسبب لهم ضيقا في هذا الوقت إذ كيف يعقل أن يزرعوا وغيرهم يحصد الإنتاج ويستغله، ولهذا قرر المماليك وضع حد للسلطان توراشناه(3)، ولم ينتظروا وقتا طويلا حتى ينفذوا ما أجمعوا عليه، حيث قامت جماعة منهم في صباح يوم الاثنين 27محرم 648هـ 2ماي 1250 بقتل السلطان (4)، وبعد ذلك دخلت مصر في دوامة فراغ سياسي بسبب خلو منصب السلطان الذي ينال رضا المماليك البحرية وحتى يتداركوا أمرهم تمّ إسناد السلطة إلى شجرة الدر-زوجة الملك الصالح أيوب- ورغم إعتراض جهات كثيرة من الشيوخ، والقضاة، ورجال السياسة، فإن شجرة الدّر بادرت بتصفية المشاكل العالقة مع الصليبيين، وإنهاء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد السلطان تورانشاه، وأسفرت تلك المفاوضات على تسريح الملك لويس التاسع مقابل فدية مالية (5)، وعلى إثر ذلك أبحرت قافلة لويس يوم 4 /صفر 648هـ/7ماي1250، وقد اقترن ذلك بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك بمصر.

1- قامت زوجته شجرة الدر بتدبير شؤون الدولة ريثما يحضر ابن زوجها وولي عهده تورانشاه الذي يتولى حصن كيفا بالعراق راجع: أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج6، القاهرة 1929، ص231، 232

2- المقريزي : السابق : ص349.

3- الملك المعظم تورانشاه هو ابن الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل، أنظر

المقريزي : السلوك ،ج1، ص358 -359

إبن كثير البادية والنهاية ج13، ص180

4- ابوشامة : الذيل على الروضتين، تح. عزت العطار الحسيني القاهرة 1947-ص180

5- المقريزي : السابق ص362 . و أبو المحاس: النجوم الزاهرة ج6، ص374

6- المقريزي : السابق ص364 . و أبو المحاس: السابق : ص375

2- الأخطار التي جابهت المماليك

من المؤسف حقا أن تتكرر صور الثورات الداخلية التي صادفت تطور بناء الدولة الحفصية بافريقيا في المغرب الإسلامي، في بلاد مصر وتمنع دولة المماليك الناشئة من بسط نفوذها في الوقت المناسب، فبعد الأدوار الرائعة والمشرّفة التي قام بها المماليك أمام الصليبيين، وجدوا أنفسهم أمام وضع سياسي جد معقد، فقد تحكمت في نسج خيوطه ثلاثة قوى:

2-1- الأيوبيون :

بعد تنصيب شجرة الدر سلطانة على المماليك، بادرت ببسط نفوذها على ولاة الشام(1)، لكن لم يكن ذلك سهلا مقبولا من أمراء بني أيوب، سيما أنهم يعتقدون أن لهم الحق الشرعي في حكم مصر والشام، الأمر الذي جعلهم يرفضون الإعتراف بما تم في مصر من قيام المماليك في الحكم(2)، وامتنع الكثير منهم عن الإعتراف بالولاء للنظام الجديد، وبهذا الموقف السياسي اختلت أوضاع الشام السياسية (3).

لقد أدرك المماليك في مصر أن الأمر معقد جدا، وأن موقف الأيوبيين هذا يهدد كيانهم في مصر وخاصة أن الخليفة العباسي المستعصم بالله كتب إليهم يقول: «..إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاخبرونا حتى نسيّر إليكم رجلا..». واستغل الأيوبيون هذه العملية، وجمعوا عساكرهم بقيادة الناصر يوسف صاحب حلب، وزحفوا على مصر، قاصدين افتكاك الحكم من المماليك والقضاء عليهم(4)، وفي تلك الأثناء كان الملك القديس لويس التاسع يقيم بالشام عقب إطلاق سراحه من سجن المنصورة وبقي يتابع باهتمام العلاقات بين الإيوبيين والمماليك وينتظر ما تسفر عنه الأحداث.

وكان قبل قد تحالف مع المماليك ضد الأيوبيين (5)، لكن هذا التحالف أفسدته المعارك التي دارت بين المماليك والأيوبيين وخاصة تلك التي دارت على مشارف مدينة غزة سنة 651هـ/1252م، وانتصر فيها الملك الأيوبي الناصر يوسف، وعندئذ اضطر الملك لويس التاسع إلى مغادرة الأراضي المقدسة 652هـ/1254م.

1- المقريزي : السلوك ج1، ص363

2- ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، مصر 1953، 1957، ص373

3- استولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان على ثروات مدينة غزّ، وثار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحي نائب ولاية الكرك وغيّر ذلك، انظر المقريزي السلوك ج1، ص366

4- المقريزي : السابق ص367

5- المقريزي : السلوك ج1، ص385، 386

وأيضا أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج7، ص10

2-2- ثورة الأعراب

العقبة الثانية التي جابهت دولة المماليك وهي في مرحلة النشأة والتطور، تلك الثورة الداخلية التي أشعل فتيلها الأعراب في مصر سنة 652 هـ/1253م، وجدير بالإشارة إلى أن القبائل العربية قد استوطنت بلاد مصر بعد الفتح الاسلامي ومارست فلاحة الأرض وزراعتها، واطلق عليهم اسم العرب المزارعة، وكانوا يتمتعون بمكانة عالية لسبب واحد هو أنهم كانوا درع الدولة أثناء الحروب، وخاصة إبان الحروب الصليبية(1).

وفي الحقيقة لم تحفظ لهم دولة المماليك هذه المكانة وراحت تفرض عليهم ضرائب مجحفة، وتُغيّر في أسعار المنتجات الفلاحية دون التشاور مع شيوخ هذه القبائل.

الأمر الذي دفع بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات عديدة تعبيرا عن سخطهم واحتاجاجا على هذه المعاملات الغير مألوفة على الأقل بالنسبة لهم، وكثيرا ما انهزم فيها العرب نظرا لقوة المماليك وبراعتهم في فنون القتال (2)، وأسباب هذه الثورات زيادة على العامل الإقتصادي السابق الذكر، ترجع إلى عوامل سياسية فدولة المماليك منذ انتصارها على الأيوبيين في وقعة العباسة، بالغوا في الاستهتار وإبعاد غيرهم من الحكم وفي هذا المنحى يقول المقريزي : «لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم» (3)

وقد توسعت حركة التمرد، ولم تبق مقتصرة على القبائل العربية فقط بل تحولت إلى حركة شعبية عامة (4)، وتزعم تلك الثورة شيخ شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي رغب في السلطنة وأفصح غير ما مر بأن الحكم في مصر يجب أن يسند للعرب، وليس للأرقاء (5)، واتصل حصن الدين هذا بالملك الناصر يوسف الأيوبي يطلب منه المساعدة في محاربة السلطان المملوكي المعز أيبك(6).

1- المقريزي : السلوك، ج1، ص380

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج7، ص9

2- هم جنود يؤخذون أطفالا من مختلف جهات العالم عن طريق البيع والشراء. ويربون تربية عسكرية اسلامية في مدارس خاصة فيتحولون إلى فرق عسكرية تابعة لأمير أو سلطان أي للأستاذ الذي اشتراهم.

راجع : د/محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك -مجلة كلية الآداب : القاهرة ج1، سنة 1936، ص162

3- المقريزي : السابق نفس الصفحة.

4- قال في ذلك أبو المحاسن : إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق»

انظر ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج7، ص14

5- القلقشندي : صبح الأعشى، ج 4، ص683

6- المقريزي :السلوك، ج1، ص386

وكان العرب في ذلك الوقت في قوة من الرجال والفرسان والمال، فكونوا جيشا كبيرا وتمكسوا بزعيمهم حصن الدين، مما جعل السلطان المملوكي يشعر بخطر القوة العربية، وأرسل حملة عسكرية لتأديب هذه القوة، وفعلا خرج الفارس أقطاي من القاهرة على رأس خمسة آلاف فارس من جودة المماليك وتوجه نحو الأعراب، وتمكن المماليك من كسر الإنتفاضة بفضل تفوقهم الحربي وانهارت المقاومة الشعبية في ببليس سنة 658هـ/1253(1)، وبقيت الثورة في مصر الوسطى حيث أقام الشريف حصن الدين حكومته هناك، ولم يتمكن سلاطين المماليك من القضاء عليه حتى جاء السلطان الظاهر بيبرس وقبض عليه ثم شنقه بمدينة الاسكندرية (2) وبذلك تكون دولة المماليك قد تخلصت من ثاني العناصر المهددة لقيام دولة المماليك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المقريزي : السابق، ص387

2- يقال : أن الشريف حصن الدين كان قد طلب الأمان من أبيك فأمنه، فانخدع الشريف واتجه هو وأصحابه إلى القاهرة فشنقوا جميعا.

المقريزي :السلوك، ج1، ص388

بينما يرى شهاب الدين العمري غير هذا ويقول أنه شنق على يد السلطان الظاهر بيبرس.

انظر : شهاب الدين العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، ص188

2-3- الصراع بين المماليك أنفسهم:

تولى المعز أيبك السلطنة سنة 648هـ/1250م، ليجد أمامه عقبة هددت كيان دولته الفتية، تمثلت هذه العقبة في مؤامرة المماليك البحرية التي يتزعمها الأمير فارس الدين أقطاي، ولذلك عمل السلطان على تقوية نفوذه، فبادر إلى إنشاء فرقة من المماليك تحميه وتمنع غيرها من الإطاحة (1)، كما عيّن أحد ممالكيه الأقوياء نائبا للسلطنة وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى وبذلك إنفرد بالسلطنة(2)، وفي الوقت الذي عظم فيه شأن فارس الدين أقطاي بعد إنتصاره على ثورة العرب، بدأ يتطلع نحو السلطنة فلقب بين أصدقائه بالملك الجواد (3)، الأمر الذي جعل السلطان أيبك يصمم على قتله غيلة (4).

وبهذا الحادث تفرق شمل المماليك البحرية، والتجأ بعض منهم إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام مثل الأمير الناصر يوسف صاحب حلب، والمغيث عمر ملك الكرك، وبعضهم إلتجأ إلى دولة سلاجقة الروم(5)، وهكذا انقسم المماليك إلى فئتين متناحرتين، الشيء الذي عرّض قيام دولة المماليك لأصعب أزمة ذلك أن الأيوبيين قد عادوا وطلبوا من السلطان أيبك التنازل على بعض الأراضي التي حازها وقد نشب حرب بين أيبك والسلطان الناصر يوسف ولم تهدأ البلاد إلا بعد أن تدخل الخليفة العباسي المستعصم سنة 654هـ/1256م.

1- عرفت هذه الفرقة بالمماليك المعزية نسبة إلى السلطان المعز أيبك.

2- المقريزي : السلوك، ج1، ص381، 384.

3- راجع ذلك بالتفصيل في كتاب : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج7، ص11

4- فعلا قتل بقلعة الجبل بالقاهرة.

انظر : المقريزي: السلوك، ج1، ص390

5- المقريزي : السابق، ص393

6- المقريزي : السابق، نفس الصفحة

وفي هذه الأثناء بدأ خطر المغول يلوح في الأفق، مما يكون أدهى وأعظم إذا لم يوضع المماليك حد للمؤمرات والدسائس، وخاصة تلك التي تحبك بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية، انظر ذلك : إبن واصل : مفرج الكروب، ج 1، ص166

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطر المغول

إن ما حدث من تدمير بغداد وسلب لأهلها على أيدي المغول واقتراب خطره من الشام ومصر، أدى إلى أن يقرر المماليك بقيادة الأمير سيف الدين قطز أن يقاوموا الغزو المغولي مهما كلفهم ذلك وخاصة أن المغول قد استولوا على عدة مدن تابعة لدمشق (1)، ولما كانت الجيوش الشامية غير منظمة، ومضطربة من شدة الهلع، فإن المغول تمكنوا بسهولة من السيطرة على بلاد الشام حيث سقطت المدن الكبيرة الثلاثة وهي بغداد، حلب، دمشق، واعتبر هذا من الكوارث الفاجعة التي هزت المسلمين في جميع أنحاء العالم، وقد وصف السيوطي هذه الفاجعة بقوله : «فلا يستغرب أحد إذا قيل له أن العالم على وشك الانهيار»(3)، وفي سنة 1260، وجه هولاكو سفارة إلى مصر تطلب من السلطان سيف الدين قطز التسليم (4) والرسالة كلها تهديد واحتقار، ولكن قطز اجتمع بالأمراء وقرروا محاربة المغول وحتى لا يترك مجالا للتردد والخذلان، أمر بقتل الرسل الموفدين من قبل هولاكو، وسار على رأس قوة ضخمة من المسلمين لقتال المغول. واستعد المماليك لخوض معركة عين جالوت التي دارت بين المسلمين والمغول سنة 658هـ/1260م، حيث حمل المسلمون بقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز على المغول وقتلوا الكثير من أفراد المغول ومن بينهم القائد كتبغا وكثير من رجاله، ومن النقاط التي أجمع عليها المؤرخون أن هذه الموقعة كانت نقطة تحول هامة في تاريخ المسلمين، حيث أنقذت مصر وبلاد الشام من دمار شامل شبيه بما حدث في بغداد أثناء سقوط الخلافة العباسية. بعد إنتهاء المعركة لصالح المسلمين عمد السلطان المملوكي سيف الدين قطز إلى عملية تطهير واسعة وسريعة في بلاد الشام، حيث استرد دمشق، وحلب وأثناء عودته إلى مصر القاهرة حاضرة الدولة، ظهر خلاف بين السلطان قطز والأمير الظاهر بيبرس، أفضى إلى أن أصبح كل واحد يحترس من الآخر(5) لقد عزم الأمير الظاهر بيبرس على التخلص من سيف الدين قطز ولهذا كان قد دبر مؤامرة مع مجموعة من المقربين إليه(6)، وبدأ يتحين الفرصة المؤاتية لاغتياله، وفعلا كان له ذلك عندما إقترب الموكب من القاهرة، فقد تمكن من قتله غيلة(7).

1-د . السيد : الباز العريني : المغول، بيروت ،1981، ص243

2- حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة 1949، ص111

الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، القاهرة 1956، ص14

3- السيوطي: تاريخ الخلفاء، القاهرة ، 1251، ص309

المقريزي : الخطط، ج1، القاهرة 1934، 139، ص364

4- جاء في بداية الرسالة : من ملك الملوك، شرقا وغربا، القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك، الدين هربوا من سيوفنا ..» انظر ذلك في كتاب : د.السيد الباز العريني : المغول دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص255

5- المقريزي : السلوك، ج1، ص430 . و أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ،ج7، ص81-82

6- المقريزي : السابق، ص435

7- أبوالمحاسن : السابق، ص83-84

وبعد أن تم تنصيب الأمير الظاهر بيبرس سلطانا للمماليك كان شغله الشاغل هو تصفية الوجود المغولي، إذ بقي المغول يبحثون عن الوقت المناسب للأخذ بالثأر وفي إنتظار ذلك فهم يغيرون من حين إلى آخر على القرى والمدن النائية بالشمال العراقي.

واستمر العداء بينهما حتى بعد وفاة هولاكو سنة 663هـ/1265م، فإن خليفته ابنه إبغا استمر على نهج سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من جهة والودية تجاه الصليبيين في كل من الشام وارمينية الصغرى من جهة ثانية، ولكن بيبرس وقف بحزم وعزم على إستئصال الوجود المغولي ومنعهم من تحقيق آمالهم، وقد اشتبك معهم غير مرة (1)

تيقّن إبغا المغولي من استحالة الإنتصار على دولة المماليك، ولهذا لجأ إلى طلب الصلح وقال: «..فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا..»(2)، لكن بيبرس رفض طلب الصلح وقرر ألا يتوقف عن ضربات المغول حتى يسترجع جميع الأراضي التي اغتصبها المغول من المسلمين(3)، ولهذا عمد المغول إلى التحالف مع سلاجقة الروم، ومع ذلك فقد هزمهم بيبرس في معركة فاصلة سنة 674هـ/1267م، على أراضي بلستين بأرض السلاجقة (4).

وكان لهذه الموقعة أثر كبير في نفوس المغول، حيث دبّ الشقاق وتعمقت الإختلافات في صفوفهم الأمر الذي جعل إبغا المغولي يصرف همه عن أي عمل انتقامي ضد المسلمين في الشام أو العراق، وهكذا هدأت جهة المغول وابتعد خطره(5) مما دفع بالسلطان الظاهر بيبرس إلى التفرغ للصليبيين.

1- مثل المعركة التي دارت حول منطقة البيرة، وهي قلعة هامة تقع على وادي الفرات وقد انتصر فيها بيبرس، وفرّ المغول تاركين أموال طائلة وذلك سنة 663هـ/1265

انظر : بيبرس الدودار : التحفة الملوكية في الدولة التركية24029، مكتبة جامعة القاهرة.ص140

2- المقريزي : السلوك، ج1، ص574

3 - المقريزي : السابق ص 602

4- بيبرس الدودار :السابق، ص142

5- بيبرس الدودار المنصوري : التحفة الملوكية، ص144

الفصل الثاني

أهم الأحداث التي واجهت الدولتين

1- إحياء الخلافة الإسلامية في تونس .

أ- موقف دولة المماليك من الخلافة في تونس

ب- إحياءالخلافة الإسلامية في القاهرة

جـ- فتور العلاقات بين الدولتين

2- الخطر الصليبي المشترك بين الدولتين وموقف كلاهما منه

أ- موقف دولة الحفصيين

ب- موقف دولة المماليك

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1ـ إحياء الخلافة الإسلامية في تونس:

كان الأمير أبو زكريا يحي الأول مؤسس الدولة الحفصية بإفريقية يعمل على توسيع نفوذ سلطانه، على أساس أن الحفصيين هم امتداد للموحدين كما مرّ سابقا (1)، وفعلا تمكن من تحقيق طموحاته فبسط نفوذه على تلمسان حاضرة الزيانيين، ومراكش حاضرة المرينيين وبينما هو في طريقه إلى المغرب الأقصى، عاجلته المنية في مدينة بونة -"العناب "- المتاخمة لمدينة تونس 29-جمادي الآخرة 647هـ / 09-أكتوبر 1249(2) وعلى إثر ذلك بويع لابنه أبو عبد الله وعمره لا يتجاوز الواحد والعشرين عاما (3)، ولقب بالأمير بعد بيعته الثانية التي أخذت له أثناء عودته إلى تونس، ولم يتلقب بأمير المؤمنين إلا بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم، ويبدو من خلال سير الأحداث أن الذي دفع بالحفصيين إلى اتخاذ هذا الموقف هو زيادة مركزهم كأكبر قوة إسلامية آن ذاك، وبعد أن تلقب بهذا اللقب واختار الشعار "الحمد لله والشكر لله "وخطب على منابر البلاد (4)،وأوعَزَ إلى الجهات المختلفة من المغرب والمشرق الإسلاميين بأخذ البيعة له، فوجدت دعوته قبولا من كافة الجهات، ففي سنة 652هـ / 1254م جاءته بيعة بني مرين(5) وفي نفس السنة وصلته بيعة كل من أمير غرناطة، وأمير بني زيان وكذلك بيعة أمير كانو من بلاد السودان.

والجدير بالذكر أن المصادر التي تمكنا من الإطلاع عليها قد اختلفت في تحديد تاريخ إعلان الخلافة الحفصية، فقد حددها ابن خلدون في شهر رجب سنة 647هـ/أكتوبر 1249م(6) في حين حدد تاريخها الزركشي بيوم 24/ي الحجة - 650هـ-/25فبراير 1253/م .

1-أنظر ذلك في الفصل الأول ص( )

2-دفن في مدينة بونة بعد وفاته ثم نقل جثمانه إلى مدينة قسنطينة التابعة لدولة الحفصيين راجع : الزركشي: تاريخ الدولتين ص 20

3-أخذ له البيعة عمه محمد الليحاني بنفس المدينة التي توفي بها أبوه وذلك بعد ثلاثة أيام من وفاته أنظر الزركشي: السابق ص 25

4-القلقشندي : صبح الأعشى ج6-ط1، القاهرة 1383هـ / 1963م، ص29.

ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تونس 1387هـ/ص118

5- ابن خلدون : العبر ج6، بيروت 1983، ص652

6- ابن خلدون : العبر ج6 ص226

أما ابن تغري بردي فقد ذكر في حوادث سنة 652هـ / 1253 شيئا عن هذا حينما قال : "..وفيها وصلت الأخبار باستيلاء إنسان على افريقية وادعى أنه خليفة، وتلقب بالمستنصر أمير المؤمنين وخطب له في تلك النواحي " (1) أما ابن أبي دينار فقد جعل إعلانها سنة 657هـ/1259(2) أي بعد سقوط الخلافة في بغداد على أيدي المغول، وبمناقشة هذه الروايات التاريخية وتحليلها يتضح أن هذا الحدث له من الأهمية بمكان، وشغل بال أهل الأمة الإسلامية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التاريخ الذي حدده ابن خلدون يبتعد عن الواقع التاريخي، لأن الظروف السياسية والإجتماعية لم تكن مهيأة في ذلك الوقت لإتخاذ مثل هذا الموقف الصعب، وليس من المعقول أن يعلن الأمير أبو عبد الله المستنصر بالله الحفصي بتولّيه الخلافة وهو لم يتأكد بعد من الإجماع الخاص بسلطنة الحفصيين، وزيادة على ذلك فإن بيعة أمراء أهل المغرب والأندلس لم تصل بعد إلى تونس حاضرة الحفصيين، ولذلك فإن الإعلان عن خلافته لم يتم إلا بعد القيام بضبط أمور بلاده وبلاد المغرب على الأقل وبالمقارنة بين هذا وما ذهب إليه ابن أبي دينار نجد هذا الأخير يقوم بخلط بين تاريخ وصول بيعة أمير مكة والدعاء للخليفة الحفصي وتاريخ إعلان الخلافة . أما ابن تغري بردي فإنه لم يحدد التاريخ أصلا، بل حدد تاريخ علمه بإعلانها وانطلاقا من الروايات التاريخية السابقة والسياق التاريخي العام للأحداث في المشرق والمغرب، فإننا نرجح ما أورده الزركشي، حيث حدد تاريخ الإعلان عن الخلافة ب24/ذي الحجة/650هـ/4ماي1252م وذلك لأن هذا المؤرخ من المهتمين بتاريخ الدولة الحفصية، فضلا عن كونه من سكان المغرب فهو قريب من الحدث السياسي الهام وأيضا، فإن هذا التاريخ يتناسب مع الوضع السياسيي العام الذي يعيشه المسلمون عامة.

ففي المشرق لم يتحقق الإستقرار بعد في مسألة سلطان الدولة المملوكية الناشئة التي مازالت لم تبسط نفوذها على الأراضي المصرية (3)، ناهيك عن المواقف العدائية للإمارات الإسلامية في الشام والأخطر من هذا وذاك مدى الإستعداد الضخم الذي يقوم به المغول لإسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد فقد شعر سكان المشرق بأن منصب الخلافة الإسلامية لا يزال شاغرا وهذا ما أحس به مسلموا المغرب ذلك أن الدولة الموحدية أصبحت فعلا عاجزة عن حماية أراضي المسلمين في المغرب، كل ذلك أمام استفحال أمر الصليبيين في الأندلس القريبة من أفريقية، هذا وقد دعّم هذا الرأي مؤرخ الدولة الحفصية ابن القنفذ القسنطيني في كتابه الفارسية في

1- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج7 ط1 القاهرة 1930-1972ص32

2-ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس تحقيق محمد شمام تونس 1388هـ / 1968ص 140

3-المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج 1 مصطفى زيادة -القاهرة 1936ص334

حدده بتاريخ أواخر سنة 650هـ/1252(1) وجدير بالإشارة إلى أن الخليفة أبو عبد الله محمد الحفصي، قد خص وصول بيعة شريف مكة إلى حضرة تونس باحتفال كبير حيث حضر الشعراء، والقضاة، وشيوخ القبائل، والخطباء ثم قرأت البيعة ورفعت أعلام الدولة الحفصية في موسم حج 656هـ/1258 م وذكر اسم أبي عبد الله الحفصي على منابر مساجد مكة والمدينة(3)وبهذا الحدث العظيم ازدادت الدولة الحفصية هيبة، وبلغت قمة مجدها، وتوطدت أركانها واكتسبت مكانة روحية تعادل ما كان يتمتع به خلفاء بغداد(4) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-قبل هذا التاريخ كان الزيانيون قد انفصلوا عن الموحدين، وكذلك بنو مرين الذين يحاولون الإستلاء على أكبر المدن الموحدية، ضف إلى ذلك ما اقتطعته الدولة الحفصية، فلم يبق في أيدي الموحدين سوى جزء صغير في المغرب الأقصى

انظر الزركشي: تاريخ الدولتين ص21

ابن خلدون(أبو زكريايحي): بغية الرواد، ص112

ابن خلدون:عبد الرحمان:العبر ج6 ص652

2-ابن القنفد :الفارسية ص120

3-ابن القنفذ:السابق ، ص116-117

4-أحمد مختار العبادي (الدكتور): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية، ب ت ص125

1-1موقف المماليك من الخلافة الحفصية:

إن إحياء الخلافة الإسلامية من قبل السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي قد كشف عن طبيعة العلاقات السياسية بين دولة الحفصيين ودولة المماليك فمن الإشارات الواردة في بعض المصادر يمكن القول أن العلاقات بين الدولتين كانت ودية منذ البداية فقد ذكر ابن القنفذ صراحة في حوادث سنة 647هـ/1249م أن الأمير أبي زكريا يحي الحفصي قد بعث برسالة إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب يخبره فيها عن استعدادات الملك لويس التاسع الفرنسي لغزو الديارالمصرية ويحثه فيها على تقديم الأسباب الكافية لمنع هذا الغزو وفي نفس الوقت يعتذر عن عدم المبادرة إليه بنفسه وجنده لخشيته من عدوه ملك صقلية المجاورة له ومن أعراب إفريقيا (1). ولم نعثر في كتب العربية أو الأجنبية التي تعرضت لذكر العلاقات بين الدولتين إلا على معلومات نزرة مشتتة لكنها قد تساعد مع ذلك على تصور موقف دولة المماليك من الخلافة الحفصية فعندما دارت المعركة التاريخية بين المماليك والتتار في عين جالوت بفلسطين (2)، وخرج المماليك منتصرين في هذه الموقعة الفاصلة وفرح المسلمون بهذا الإنتصار العظيم، وأرسل سلطان دولة المماليك سفارات البشائر إلى كافة سلاطين المسلمين ومنها سفارة خاصة إلى المستنصر بالله الحفصي، الذي احتفل هو الأخر بهذا الإنتصار ويعلق على ذلك ابن القنفذ قائلا «...لما قرئ كتاب هزيمة التتار على المستنصر بالله الحفصي وخاطبه السلطان المملوكي في الكتاب المذكور بأمير المؤمنين، كان هذا من أكبر آمال المستنصر وأحبها إليه...»(3).

1-ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص112

وكان الأمير الحفصي أبي زكريا يتمتع بسمعة طيبة عند حكام مصر في آخر عهد الأيوبيين ولذلك كان يبعث بكبار الشيوخ المعارضين لسياسته إلى مصر للمنفى. فعندما قبض على وزيره ميمون بن موسى أخذ أمواله ثم صرفه إلى الإسكندرية بمصر أنظر ذلك الزركشي :تاريخ الدولتين ص19 .

2-عين جالوت هي منطقة شاسعة بفلسطين، تقع في الجنوب الشرقي من مدينة الناصرة وفيها انتصر المسلمون على المغول 2/سبتمبر/1260م

انظر :د/السيد الباز العريني: المغول ، بيروت 1981 ;ص260

3-ابن القنفذ: السابق ص112

ويمكن الإستنتاج من هذا الموقف المملوكي أن السلطان سيف الدين قطز أراد أن يستفيد من الروح المعنوية العالية للمسلمين، وعزم على ضرورة المواصلة في التعبئة العامة لمجابهة تلك الأخطار التي تحدق به مستقبلا، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى العمل على استرجاع كل الأراضي الإسلامية من أيدي الصليبيين من جهة أخرى مع إبعاد هذا الخطر بشتى السبل،أما موضوع الخلافة الإسلامية ومن هو أحق بها فيؤجل إلى ما بعد، والذي دفعني إلى إبداءهذا الرأي هو امتناع دولة المماليك عن بيعة المستنصر بالله الحفصي .فلما تم للظاهر بيبرس إحياء الخلافة عمل على استعادة نفوذ سلاطين مصر على بلاد الحجاز والقضاء على نفوذ حكام بعض الأقطار الإسلامية فيها ومنعهم من التدخل في شؤونها وكان موضوع الدعاء للمستنصر بالله الحفصي بالحرم المكي وامتداد نفوذه إلى مكة من الأمور التي شغل بها السلطان الظاهر بيبرس، لهذا لم يتردد عند خروجه لأداء فريضة الحج سنة667هـ/1269م(1) في العمل من أجل القضاء على نفوذ الخليفة الحفصي، ولكن هذا الإجراء لم يمنع المستنصر بالله الحفصي من التنسيق مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أثناء حملة الصليبيين على تونس، حيث كتب بيبرس إلى صاحب تونس يخبره بأن العساكر ستصل إلى تونس نجدة على الفرنج(2) وعند انتهاء الحملة الصليبية بالفشل بعث المستنصر الحفصي رسالة بالبشرى إلى سلطان المماليك بيبرس فسُرّ بذلك النبأ، وكتب بدوره إلى سائر نوابه يعلمهم بالخبر (4) وهذا يوضح وجود علاقات حسنة بين بيبرس والمستنصر بالله الحفصي،إلا أن المقريزي أورد خبرا مغايرا، يؤكد تقاعس المستنصر عن مواجهة تلك الحملة مما أغضب بيبرس وكتب إليه ينكر عليه عدم خروجه للتصدي وقد قال له:« .. مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين..»(5)

1- المقريزي : السلوك ج1ص503

2- المقريزي : السابق ص587-588،590

3- ابن القنفذ: الفارسية ص132

4- ابن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، بالقاهرة 1912، ص121-122

5- ذكر المقريزي أن المستنصر الحفصي سعى في طلب الصلح مع لويس التاسع وأرسل له ثمانين ألف دينار ... فأخذها الفرنسيس ولم يصالحوه

المقريزي :السابق ص601

2-1 إحياء الخلافة الإسلامية في القاهرة:

بعد أن استولى المغول على بغداد، تمكن الأمير أبو القاسم أحمد من الإفلات ولجأ إلى عرب العراق حيث أقام عندهم (1) وبعد أن انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، اتجه الأمير أبو القاسم إلى القاهرة على أساس أن المماليك أثبتوا أنهم القوة القادرة على حماية الأراضي الإسلامية ومن جهة أخرى فقد ترامت إليه الأخبار بأن الأمير الظاهر بيبرس كان يبحث عمن بقي من العباسيين ليتولى الخلافة وهكذا بمجرد أن سمع السلطان المملوكي بقدومه حتى خرج للقائه في موكب حافل (2)شاركت فيه كل فئات الشعب حتى النصارى بالإنجيل واليهود بالتوراة، فكان يوما مشهودا(3)، وتم فعلا تولية أبي القاسم أحمد الخلافة في [13-رجب-659هـ/13-يونيو-1261م].بعد مضي ثلاثة أعوام ونصف تقريبا على سقوط الخلافة الإسلامية(4)وما كاد الخليفة العباسي الجديد يتقلد أمور الخلافة حتى أمر بتجهيز خلعة سوداء وطوق وقيد من ذهب وأمر بكتابة تقليد السلطنة للظاهر بيبرس لتثبيته وإقرار سلطنته وتولى الشيخ فخر الدين ابراهيم بن لقمان رئيس الكتاب تحرير هذا التقليد وكتابته (5)

ثم أعلن في حفل يليق بالمقام أن أباالقاسم أحمد ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب وسجل ذلك، ثم قام بمبايعته، وتبعه السلطان ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام (6) ومن بعدهم الأمراءوالوزراء على طبقاتهم.

1- كان الأمير أبي القاسم أحمد معتقلا ببغداد مع جماعة من الأعراب وتمكن من الإفلات صحبة جماعة من أمراء الأعراب وقدم الجميع إلى القاهرة لعلمهم أن السلطان الظاهر بيبرس يبحث عن تنصيب خليفة عباسي

انظر المقريزي : السلوك ، ج1القاهرة 1936،ص448

-ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13 ;ص331

2- يصفه ابن خلدون بأنه ضم الوزير الصاحب بهاء الدين من حنأ وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجموع العسكر.انظر : ابن خلدون العبر ، مج5 ;بيروت 1983ص835

3- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج7القاهرة 1930-1972ص109

4- ابن تغري بردي : السابق ،ص102

ابن كثير : السابق، ص231-232

5- ابن خلدون : السابق ،ص825

6- المقريزي: السلوك ،ج1القاهرة 1936،ص450

لقب بالمستنصر بالله (1) وخطب باسمه على المنابر قبل ذكر السلطان كما نقشت السكة باسمهما وكتب السلطان بيبرس إلى الجهات مختلفة من العالم الإسلامي كمافعل السلطان أبو عبد الله الحفصي من قبل، وعبر الشيخ أبو شامة أن خلافة المستنصر قوبلت بفرحة حيث قال :«...وسر الناس بذلك سرورا عظيما..»(2)لكن أشراف مكة لم يطمئنوا إلى ذلك بل استغلوه من أجل توسيع نفوذهم وتأكيد استقلالهم عن مصر واليمن، واتخذوا أسلوب الدعاء في الخطبة بالحرم المكي محل مساومة وكان ملوك المسلمين يتقربون إليهم ويسعون لاكتساب ودهم ويقدمون لهم الهدايا (3)ولهذا الغرض كانت الخطبة تابعة لأمير اليمن تارة وتارة أخرى للسلطان المملوكي أو الحفصي بإفريقية (4)

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس كان شغله الشاغل هو السيطرة على الحجاز بصفة خاصة في أنحاء العالم الإسلامي عامة لما في ذلك من مكاسب روحية وسياسية، فظلا عن المكسب المادي وأقصد بذلك المبالغ الهامة التي ستدخل خزانة البلاد من الرسوم المتحصلة على البضائع التجارية المارة عبر طريق الحجاز التجاري البري والبحري القادم من جهة عدن واليمن والبحر الأحمر، والمؤكد تاريخيا أن حكام مصر ابتداءا من الطولونيين والإخشيديين ومرورا بالفاطميين والأيوبيين من قبل عصر المماليك وانتهاءا بالعصر العثماني من بعدهم جميعهم قد سلكوا هذا النهج، وسعوا جاهدين لبسط سيادتهم المطلقة على الحجاز، ولعل اتخاذهم لقب« ..خدام الحرمين الشريفين ..»(5)يدخل ضمن بسط السيطرة على منافذ وطرق التجارة المارة عبر موانئ الحجاز المطلة على البحر الأحمر ومن هنا يحقق المماليك تدفق الأموال على خزينة البلاد من الرسوم المفروضة على السلع المارة عبر هذا الطريق (6)

1- أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ،ج3،بيروت ب ت،ص213

- المقريزي : السابق ،ص451

2- أبو شامة : الذيل على الروضتين، بيروت1974ص213

- ابن خلدون العبر مجلد 5ص826

3- المقريزي : السابق ج2 ،ص32-33

4- د/أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية ب،ت ص129

5- بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سارع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إلى إرسال الأموال والهدايا والكسوة مع سفارة إلى الحجاز لإصلاح الحرم النبوي وحملت الكسوة وطيف بها في شوارع القاهرة ومصر بصحبة القضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة وأمر بجعل الخطبة في مكة والمدينة باسم الخليفة العباسي واسم السلطان بيبرس بدلا من المستنصر بالله الحفصي: انظرالمقريزي : السابق، ج1ص502.504.544

ابن فهد:اتحاف الورى ، ج2ص84.87

6- عن أهمية الطريق انظر: المراجع التالية د/جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي دار المعارف القاهرة 1967ص140

- بيبرس الدودار : التحفة المملوكية، رقم 24029مكتبة جامعة القاهرة ص141

- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص141

1-3 موقف الحفصيين من إحياء الخلافة في القاهرة:

كان سلاطين وأمراء الأقطار الإسلامية يخشون صاحب مصر، ويتحاشون مخالفته أو الدخول في صراع معه لما كان يتمتع به دولتهم من قوة، وهي قاعدة حكمت العلاقات مع السلاطين المماليك، ولم يكن لإحياء الخلافة دور في تحسن علاقات الحفصيين بالمماليك أو تدهورها ذلك أن صاحب تونس لم يعترف بهذه الخلافة وظل يدعو لنفسه على منابر بلاده، ولما كانت زعامة السلطان المملوكي تعتمد على قوة نفوذه وامتداد سلطانه، فقد أصبح ملاذا للاجئين إليه من أمراء البيت الحفصي كلما اعترضتهم المشكلات ففي عام 709هـ/1309م استولى خالد بن المنتخب يحي بن ابراهيم بن زكريا الحفصي على تونس وقتل صاحبها أبا بكر بن عبد الرحمان وعمل على التخلص من بعض أبناء الأسرة الحفصية -ومنهم أبو يحي زكريا بن أحمد الحفصي المعروف بالليحاني، فتمكن من الفرار ولجأ إلى مصر مستنجدا بسلطانها الناصر محمد بن قلاوون الذي لم يتردد في إمداده بقوة عسكرية مكنته من الإنتصار على ابن المنتخب وقتله وحينئذ استقر الليحاني في الحكم ودعا للناصر محمد على منابر بلاده (1)وعندما ثار أبو بكر بن المنتخب يحي ضد الليحانى انتقاما لمقتل أخيه خالد بن المنتخب، لجأ الليحاني إلى مصر وأقام بالإسكندرية (2)إلى أن تمكن ابنه محمد من إيقاع الهزيمة بأبي بكر بن المنتخب فعاد إلى تونس (3)

1- د/محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ،القاهرة 1963 ص142-143

- د/أحمدشلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،ج1القاهرة 1967، ص378

2- ابن كثير: البداية والنهاية ج14ص129-130

- ابن حجر : الدرر الكامنة ج3، ص113

3- أبو الفدا : المختصر ،ج3ص190

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-4فتور العلاقات بين الدولتين:

بقيت مكة شبه مستقلة عن سلطة الخلافة سواء العباسية أو الحفصية أو اليمنية إلى أن ظهر نزاع بين الأمير الشريف ادريس بن قتادة وشريكه في الإمرة أبى نمى (1) بن أبي سعيد بن علي بن قتادة وذلك سنة 667هـ/1269 م (2). وأسفر النزاع عن انتصار أبي النمى على شريكه ادريس وطرده من مكة ومن تم تحقق له الإنفراد بإمرة مكة ومن أجل توطيد أركان سلطته راسل السلطان المملوكي وأخبره بما يجري بمكة (3) فكانت المراسلة سببا في خروج السلطان الظاهر بيبرس في نفس السنة لأداء فريضة الحج ووضع الأسس الكفيلة باستقرار الأوضاع في بلاد الحجاز وأخذ ولاء حكامها ومنع الدعاء للمستنصر بالله الحفصي في الخطبة، وإبعاد اتباعه وأنصاره (4) وكتب السلطان بيبرس إلى أمير مكة يشركه في الحكم، وبذلك استعادت مصر مكانتها وبسط نفوذها على بلاد الحجاز، وصارت الخطبة والسكة باسم السلطان المملوكي (5)، وأمر طبيعي أن تترك هذه الإجراءات آثارا في السياسة التي تربط الدولة الحفصية بالدولة المملوكية، غير محدودة.وعلى الرغم من إحياء السلطان الظاهر بيبرس للخلافة العباسية في القاهرة وبذله الجهود المكثفة لمنع الدعاء للمستنصر بالله الحفصي وإسقاط اسمه من الخطبة بمكة والمدينة فإن أمراء مكة امتنعوا عن ذكر اسم الخليفة الذي عينه المماليك بالقاهرة على منابر مساجدهم وأن الدعاء للعباسيين في الحرمين الشريفين قد بَطُل بعد مقتل المستعصم (6)وأن بلاد الحجاز كانت من بين الأقطار الإسلامية التي ساد فيها الشك حول صحة نسب خلفاء القاهرة .

1- أبو نمى محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني شارك عمه إدريس في إمارة مكة ثم تخلص منه وانفرد بالإمارة توفي بتاريخ 4صفر -701هـ-1301/10/09

انظر : ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى تحقيق فهيم شلتوت ،جدة 1984ج3ص76

2-ابن فهد: السابق نفس الجزء 77-78

3-ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور ، ج12 دار الكتب ، القاهرة ص45ب ب رقم 3197

4- ابن الفرات :السابق ، نفس الصفحة

5-المقريزي : السلوك ، ج1ص504

6- السيوطي : حسن المحاضرة في إخبار مصر والقاهرة، ج2 القاهرة 1328هـ، ص69

ولهذا لم يهتم أشراف الحجاز بأمر الحصول على تفويض أو تقليد منهم، ومن ناحية أخرى يبدو أن السلطان الظاهر بيبرس لم يحرص بدوره على إرغام أمراء مكة على الدعاء لخليفة القاهرة، والإكتفاء بالدعاء للسلطان ونقش اسمه على السكة (1)واستمر الوضع على ذلك بالنسبة للسلطان المملوكي، طالما ظل قويا وقادرا على فرض سلطانه وتجدر الإشارة هنا إلى أن نفوذ الحفصيين وغيرهم ممن سعوا إلى تحقيق نوع من النفوذ ببلاد الحجاز لم يكن يتجاوز ذكرهم في الخطبة وأن اشتراك أكثر من شريف في إمرة مكة في وقت واحد (2) أدى إلى ميل كل منهم إلى إحدى القوى الخارجية فكان لهذا الوضع أثره في خلق الخلافات المستمرة بين الأمراء المشاركين ووقوع الحرب بينهم واستعانة كل منهم بإحدى القوى المحيطة لمساندته في صراعه بهدف الإنفراد بالإمرة (3) وذلك مقابل التلويح بالوعود لمن يساعدهم بالدعاء له في الخطبة كوسيلة للإغراء (4).وأيما كان الأمر فقد أفضت تلك الصراعات إلى عدم استتباب الأمن، وانتشار الفوضى في بلاد الحجاز وتعرض أهل مكة والمجاورين لها للقتل والنهب ولم يسلم من ذلك الحجاج والمعتمرون والتجار وخاصة في مواسم الحج. ففي سنة 651هـ/1253احتدم الصراع بين أمير مكة جماز بن حسن بن قتادة وبين شريكه في الإمارة أبي سعد حسن بن علي بن قتادة، فلجأ الشريف جماز إلى الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي صاحب دمشق وحلب للإستنصار به ضد الشريف أبي سعد حسن وتعهد الشريف جماز للناصر يوسف بذكر اسمه في الخطبة بالحرم المكي (5)

ورغم ما قدمه صاحب دمشق من مساعدات للشريف جماز مما مكنه من تحقيق انفراده بإمرة مكة فإن جماز نكث بعهده وخطب للمظفر يوسف صاحب اليمن(6) وهكذا عمل أشراف مكة على الإستفادة من الظروف المحيطة فتارة تكون الخطبة لصاحب اليمن وأخرى للسلطان المملوكي (7)أو للحفصيين وغيرهم(8) .

1- سعيد عاشور : العصر المملوكي، ص230

- السيوطي :حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، القاهرة 1328هـ، ص69

2- الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، القاهرة 1956هـ ،ج2ص226

3- الفاسي :السابق، ج2ص224

4- الفاسي : السابق ص226

5- ابن تغري بردي : المنهل الصافي ،ج3ص9وأيضا الخزرجي(أبو الحسن علي بن الحسن) : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، القاهرة 1911ص106

6- ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج3، ص9

7- الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج2 ص236

8- د/أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك ص193-195

-دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 129

2- الخطر الصليبي المشترك بين الدولتين:

لقد أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي ثلاثا فقط (1) وهي مملكة قشتالة، وأراجون، والبرتغال، وإذا كانت البرتغال قد اختارت العمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضي الإسلامية المتاخمة لها من ناحية الجنوب، فإن قشتالة وأراجون وجها جهودهما معا لتحقيق الهدف الأكبر الذي تسعى إليه إسبانيا النصرانية منذ قرون (2) وهو القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس .

في هذا الوقت أخذ زعماء الإمارات الإسلامية يتربص بعضهم ببعض ويحاول كل واحد منهم أن يتقوى على حساب الآخر بانتزاع أملاكه وعندئذ شعرت مملكة قشتالة القوية بأن الفرصة مناسبة لتسديد ضرباتها القاتلة إلى الأندلس، وأسرع ملكها فرناندو الثالث بغزو الأراضي وافتكاك القلاع والحصون من أيدي المسلمين. فقد غزا قرطبة سنة 632هـ/1233م في الوقت الذي هاجم فيه خايمي الأول ملك أراجون بلنسية وأخذ أميرها زيان يستصرخ المسلمين .

الأمر الذي سهل للقشتاليين دخول قرطبة ورفعوا الصليب فوق مسجدها (3) سنة 633هـ/1234وكان سقوط قرطبة نذيرا بما آلت إليه الدولة الإسلامية في الأندلس من الضعف والهوان .

1- لقد اختفت مملكة ليون المجاورة لقشتالة من جهة الغرب، ذلك أنه لما توفي ألفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة في سنة 1214م خلفه ولده الطفل هنري .أما ابنته الكبيرة برنجيريا فقد تزوجت بألفونسو التاسع ملك ليون، وكان ألفونسو النبيل قد قرر في وصيته أنه إذا انقرض عقبه من الذكور فإن العرش يؤول إلى ابنته الكبرى برنجيريا ثم إلى أعقابها الشرعيين وهكذا قدر لفرناندو الثالث أن يكون من أعظم ملوك قشتالة ولما توفي أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية سنة 1230م خلفه أيضا في ملك ليون باعتباره وارث العرش الشرعي وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون

انظر : د/محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ،ط4القاهرة 1987ص87-88

2- عرفت هذه الحركات بحركة الإسترجاع la reconquista وهي ذات مدلول تاريخي فقد عمل الإسبان منذ الفتح الإسلامي على استرجاع الأراضي وقد ازدادت هذه الحركة نشاطا منذ ضعف دولة الموحدين، وانقسام المغرب الإسلامي إلى دويلات . انظر :

محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية ص241

3-د/ محمد عبد الله عنان : السابق ، ص79

وفي الوقت الذي اشتدت فيه الحرب بين المسلمين في شرق الأندلس، زاد ضغط نصارى الأندلس، حيث بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية، واستولى عليها صلحا (1) 641هـ/1243م ومنها توجه إلى إمارة غرناطة الناشئة حيث انتزع منها حصن أراجونة وعدة حصون أخرى (2)، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا العدوان الغاشم، فاضطر إلى عقد الصلح والإنضواء تحت حماية ملك قشتالة وبذلك تعززت قوة فرناندو الثالث وبلغت ذروة السلطان، وأصبحت الأندلس الجنوبية تحت حمايته (3)

وأخذ فرناندو في الوقت ذاته يستعد لافتتاح إشبيلية أقوى قواعد وحصون الأندلس حيث استولى على معظم حصونها سنة 644هـ/1246 م وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء الذين أبدوا إصرارا وعنادا كبيرين في الدفاع عن مدينتهم، ولكن ذلك لا يكفي أمام التحضير والإستعداد الكافي للنصارى وفي الأخير اضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرناندو(4) الأمر الذي أذهب الأمل في نفوس المسلمين المدافعين عن إشبيلية واضطروا إلى تسليم الحاضرة الإسلامية الكبيرة، ودخل النصارى في 23/ ديسمبر / 1248م، أوائل رمضان 646هـ وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى في يد النصارى .

1- أشباخ (يوسف): تاريخ الأندلاس، ترجمة د/ عبد الله عنان ، ج2ص114

2- أشباخ (يوسف) : السابق ص115 ومابعدها

وأيضا : R GROUSSET/ HISTOIRE DE CROISADE; T3 P 649

3- ابن عذاري : البيان المغرب ، القسم الثالث ص 381-382

ابن خلدون : العبر ،ج4 ص190

4- ابن خلدون : السابق ص200

مجهول : الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الجزائر 1920ص71-76

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما مملكة أراجون فقد بقيت ترتب شؤونها الداخلية، حيث كان ملكها بيدرو الثاني الذي خلف أباه ألفونسو وأخذ يعمل على توسيع دائرة ملكه وما لبث أن توفى قتيلا في إحدى المعارك سنة 610هـ-1213 م(1)فخلفه ولده خايمي (يعقوب) وهو طفل صغير بالرغم من معارضة عمه سانشو، وترتب على ذلك حروب أهلية استمرت عدة سنوات، ولكنها انتهت بانتصار حزب خايمي على الثوار (2) فعاد من جديد إلى الجلوس على العرش وذلك سنة 626هـ/ 1227م وفي الوقت الذي استقر في عرشه عزم على محاربة المسلمين وأن ينتزع هو الآخر قسما من أراضي المسلمين، فباشر بغزو جزر البليار (3) (الجزائر الشرقية) وكانت ميورقة وباقي الجزائر تابعة لإمارة بلنسية التي يسيطر عليها أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد وصلت إلى مرحلة السقوط حيث دافع المسلمون دفاعا حقيقيا منقطع النظير ومع ذلك وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تسليم الجزيرة سنة 626هـ/1227م(4) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين / ترجمة د/ محمد عبد الله عنان - القاهرة 1958 -ص381-383 ص414-417

المقري : نفح الطيب ،ج4ص469

2- يوسف اشباخ : السابق ص382

3- بعد الإنتصارات المتتالية التي حققها خايمي الأول على المسلمين، توجه إلى مدينة طرخونة بالجزر الشرقية بساحل قطلونية، حيث استقبل هناك في نهاية شهر ذي الحجة 627هـ/26أكتوبر 1230م استقبالا حارا واطلق عليه اسم الفاتح -Conquistador-وقد شيدوا له تمثالا كبيرا

انظر : د/ عصام سالم سالم : جزر الأندلس المنسية ، بيروت 1984ص436

4-المقري :السابق نفس المجزد ص471

الحميري : الروض المعطار ،ص 568

2-1 موقف الحفصيين من الخطر:

في الوقت الذي كاد خايمي الأول يبسط نفوذه على الجزيرة شرع في التحضير لفتح بلنسية وسار فعلا إلى غزوها في جيش ضخم سنة 636هـ/ 1238م، وكانت الإمارة قد عمتها الفوضى، وسكن أهلها الخوف والإرباك ولم يجد أميرها أبو جميل ما يدافع به عن إمارته، وكان المسلمون في الأندلس قد فقدوا قوتهم العسكرية وشردوا من ديارهم، فما كان من أبي جميل إلا أن بعث وزيره ابن الأبار القضاعي(1) إلى أمير الدولة الحفصية أبي زكريا الحفصي يستصرخه (2) ويستنجد به ضد النصارى .

وألقى الشاعر ابن الأبار بين يدي السلطان الحفصي أبي زكريا يحي قصيدة مشهورة يصف فيها الوضع المأساوي الذي يعيشه المسلمون في بلنسية خاصة وفي الأندلس بصفة عامة والقصيدة مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ويا للمساجد عادت للعدا بيعا
وللنداء غدا أثناءها جرسا

1- هو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البلنسي الشهير بابن الأبار 595هـ/1199م -، 658هـ/1259 فقيه، محدث، حافظ، مقري، نحوي، أديب، لغوي، كاتب، مؤرخ من تصانيفه تكملة الصلة لابن بشكوال، الحلة السراء.

انظر : ابن الشماع : الأدلة البينة حاشية رقم 2ص59- الغبريني : عنوان الدراية ص 183-186

2- انظر القصيدة بكاملها في : المقري : نفح الطيب ، ج4ص457ومابعدها

وأسرع السلطان أبي زكريا إلى إغاثة بلنسية، حيث أمدهم بالإمدادات القتالية وبعض المؤن في عدة سفن، ولكها لم تصل إلى سكان المدينة لأن الحصار كان محكما واستمر حوالي شهر (1)، وعلى إثر مضاعفة النصارى حصارهم وتكثيف هجوماتهم اضطر المسلمون إلى تسليم المدينة بشرط أن يؤمن أهلها في أموالهم وأنفسهم (2) وأن يغادرها من شاء منهم وكان ذلك في 17/صفر/ 636هـ-28/سبتمبر / 1238(3) .

وكان سقوط بلنسية بمثابة تحفيز الملك خايمي على متابعة غزواته لباقي الأراضي الإسلامية، حيث استولى على دانية سنة 641هـ/1243م، وشاطبة وأريولة سنة 644هـ/1246م، وكان خايمي شديد القساوة على المسلمين حيث أخرجهم جميعا من الأراضي التي غزاها، وهكذا تحولت المدن الإسلامية تباعا إلى مدن وقواعد نصرانية، وتبعها في ذلك تحول المسلمين إلى أقلية تعيش في ظل الحكم الإسباني (4).

أما الكثير من المسلمين فقد اضطروا إلى الهجرة الجماعية نحو شمال أفريقيا وخاصة مدن الدولة الحفصية التي رحبت بالمسلمين الفارين من بطش الصليبيين بالأندلس، ولذلك عزم ملك أراجون على مطاردتهم وغزوا بلاد الحفصيين (5)الذين يدعمونهم .

وفعلا استغل النصارى خلافا شبّ بين أمراءالدولة الحفصية، واستجابوا إلى طلب الإعانة الذي تقدم به الأمير أبو بكر بن عيسى الكومي عامل مدينة قسنطينة والذي يكنى بابن الوزير وأرسل الملك الأراجوني أسطولا بحريا ليرسو في ميناء القل المجاورة لقسنطينة (6) وذلك سنة 681هـ/1282م وقد استعد السكان وجابهوا الغزاة مما أدى إلى إخفاق الحملة، وقد اتهم السعيد بن الحكم المشرف على جزيرة منورقة بالخيانة والتهرب من دفع الجزية والسعي إلى الإستقلال عن نظام حكم الأراجون مستعينا بدولة إفريقية .

1- المقري : السابق ص460

2- المقري : السابق نفس الصفحة

3- المقري : السابق نفس الصفحة

4- اهتم خايمي بالإصلاحات الداخلية، وقمت في عهده تعديلات تشريعية خطيرة وتوفي بعد حكم طويل سنة 1274 م/672هـ . انظر : د/ نجاة باشا : التجارة في المغرب من القرن الرابع حتى الثامن الهجري ، تونس 1976ص91

5-د/ عصام سالم : جزر الأندلس المنسية ، بيروت 1984 ص450

6- عندما علم بذلك السعيد بن الحكم حاكم جزيرة منورقة -بجر البليار- ارسل سفينة خفيفة سريعة إلى مرسى القل لإشعار أهلها وهو قريب من قسنطينة .انظر :

-الحميري : الروض المعطار ، ص 466

- أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا . الجزائر 1976، ص354

الحقيقة أن جزيرة منورقة قد ازدهرت وتطورت في عهده بسبب سياسته الحكيمة وصلته الوثيقة بالممالك المسيحية من جهة وسلاطين البلاد الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط (1)

وإذا جاز لنا وصف الوضع السياسي العام ببلاد الأندلس في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - فإننا نرى أن شبح الفناء أخذ يهدد المسلمين(2) وبدأت قواعدهم العظيمة تسقط تباعا في أيدي النصارى كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك وأخذت بعد ذلك عناصر الإظطراب والفوضى تتمخض عن وضع سياسي جديد في الأندلس فقد تشكلت نواة لدولة إسلامية أفرادها هم شتات المسلمين في الأندلس هذه الدولة المستقلة هي مملكة غرناطة (3) في حين أخذت الممالك النصرانية السالفة الذكر تتنافس على اقتطاع الأراضي من الكيانات الإسلامية المتبقية في الأندلس، محققة بذلك هدف حركة الإسترداد المسيحي التي ما فتئ النصارى والصليبيون يسعون إلى تحقيقها منذ زمن بعيد .

لم تكن مثل هذه السياسة تغيب عن أذهان أمراء وسلاطين دولة الحفصيين يظهر ذلك جليا في المجهود السياسي الذي حاولت إظهاره الدولة الحفصية لتدارك الموقف المتأزم وفك الحصار على المسلمين معتمدة هذه المرة على قوة العمل السياسي ليكون متنفسا لمعاناة المسلمين وإيقاف زحف الخطر النصراني، حيث اتصلت بالملك خايمي الأول ملك أراجون (4) وعرضت عليه إمكانية قيام علاقات سياسية وتجارية، حيث اقترحت عليه امتيازات تجارية نظير مساعدات عسكرية وسياسية يقدمونها للحفصيين في صراعهم الدائر ضد الصليبيين .

1-ابن القنفد القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 139

-ابن خلدون : العبر ،مج 6 ص 685-687

2- د/نجاة باشا :التجارة في المغرب حتى القرن الثامن الهجري -تونس 1976ص108

3- ابن خلدون : العبر ، ج6 ص283-285

الغبريني : عنوان الدراية ،ص261،257

4- المقري : نفح الطيب ص 455-462

5- يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص426

وتشير المصادر التي تمكنا من الإطلاع عليها أن الملك خايمي الأول إلتزم فعلا بمضمون الإتفاقيات التي أبرمها مع المسلمين .حيث شارك مستشارون عسكريون أراجونيون في وضع خطة عسكرية إلى جانب السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي (1) وذهب الملك خايمي الأول إلى أبعد من ذلك حيث اتصل بآل هنشتاون وطلب منهم منع مساهمة الملك الصقلي شارل دانجوى في أية محاولة تنال من الدولة الحفصية (2)والغريب في الأمر أن خايمي هذا كان يمارس السياسة بازدواجية، فنجده أحيانا يقوم بالتعاون مع دولة الحفصيين ليأمن جانبهم عما يقوم به من أعمال على أرض الأندلس إزاء المسلمين الموجودين بمللكته فقد ثبت تاريخيا أنه مارس كل أنواع الضغط والتعذيب ضدهم بهدف تشريدهم (3) وطردهم من مملكته ومما يدل على أن خايمي هذا متشبع بالروح الصليبية - مساهمته الفعلية في إعداد حملة صليبية على المشرق الإسلامي سنة 667هـ/1269 م(4)وهذه المواقف توضح لنا أن خايمي هذا يريد تحقيق مصالحه الوطنية قبل كل اعتبار آخر وجدير بالإشارة إلى أن هذه الصفات كانت سائدة إبان الحروب الصليبية فقد كانت جمهوريات إيطاليا على سبيل المثال، تتبنى هذه السياسة فشعار جنوة كان «..نحن جنويون أولا ثم مسيحيون ..»

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 -إ بن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص 363

2- كان ملوك صقلية يطمعون في الإستيلاء على تونس ومن بينهم الملك شارل دانجوى أخو الملك القديس لويس التاسع -ولهذا كان يكن كرها للحفصيين - ويبحث عن الفرص المناسبة لضربهم . انظر ذلك في :

د/نجاة باشا : التجارة في المغرب من القرن الرابع حتى القرن الثامن الهجري ،ص90

3- وصف الملك الأراجواني - خايمي الأول بالفاتح في الأوساط المسيحية انظر :

يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة : د/ محمد عبد الله عنان القاهرة 1377/ 1958،ص422

4- فشلت هذه الحملة بسبب العواصف الهوجاء التي هاجمتة قرب سواحل فرنسا .

ابن عبد الظاهر : السابق ص361

ولهذا كانت كل من جنوة والبندقية قد نشطت تجارتهما مع الدولتين الحفصية والمملوكية حيث تعززت علاقتهما السياسية مع الدولتين وازدادت نفوذهما وتوسعت عبر الطريق التي تجتاز أسيا الوسطى إلى البحر الأسود (1) وقد اتبع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سياسة حكيمة مع التجار البنادقة والجنوية إذ أنه كان يثير الحماس والمنافسة بينهما لمن يدفع أكثر يأخذ امتيازات أكثر في الموانئ المصرية والشامية، وعن طريق البنادقة كان يجس نبض أوربا وما يدور بين ملوكها لدرجة أن البعض يتهم البندقية بأنها وبكل صراحة حليفة المسلمين، هذا وقد نجح بيبرس في إقناع البنادقة بعدم اشتراكهم في الحملة الصليبية المزمع توجيهها إلى تونس (4) وذلك مقابل بعض الإمتيازات التجارية في موانئ الدولة المملوكية (5) وإن الجنويين كانوا يزودون مصر بالرقيق .

أما حكام شمال إفريقيا عامة فقد أفردوا في معاهداته مع الجمهويات الإيطالية وخاصة البندقية بنودا اشترطوا فيها ألا يتعرض أحد من المسلمين بأذى أو ضرر في البحر أو في ميناء من الموانئ التي قد يلتقي فيها المسلمون بالإيطاليين (6) والخلاصة أن العلاقات السياسية بين هذه الجمهوريات جميعا ودول المشرق والمغرب الإسلاميين كانت حسنة في مجملها ومهما يكن من أمر فقد كان لكل جمهورية من الجمهوريات الإيطالية بيزة، وجنوة، والبندقية في بلاد المغرب أكثر من قنصلية ترعى شؤون تجارها، وزائريها .

1-د/ لجاة باشا : التجارة في المغرب من القرن الرابع حتى القرن الثامن الهجري -تونس 1976ص88

2- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ص165

3-ابن عبد الظاهر : السابق ص166

4- فعلا إن البندقية لم تشارك لا من قريب أو بعيد في الحملة واكتفت باستغلال الإمتيازات التي انفردت بها في كل من المشرق والمغرب .

- ابن عبد الظاهر : السابق ص168

5- وجه ملك انجلترا ادوارد اللوم إلى كل من جنوة والبندقية على هذا التقارب مع المسلمين -فاطلعوه على الشهادات التي حصلوا عليها من المحكمة العليا في عكا .انظر :

معاهدات البندقية 1231مادة 1251/01، مادة 22،01-1171

6- معاهدة جنوة لسنة 1236 MMAS-Latrie -Traites de paix et commerce et documentd divers concernant les relations des chretiens -avec les arabes de l'afrique paris 1866p154;p196

2-2موقف دولة المماليك :

بالرغم من حدة الصراع الدائر بين دولة المماليك وكل من المغول والصليبيين فلم تغفل أو تتراخى عما يحدث للمسلمين في الأندلس، فقد كانت علاقتها السياسية متطورة مع بعض الجمهوريات والممالك، فمثلا علاقتها مع أمير مملكة اشبيليا ألفونس العاشر كانت حسنة، وقد تم تبادل الرسل والهدايا بين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وملك اشبيليا، ففي المحرم سنة 664هـ/أكتوبر 1265م أرسل ألفونس العاشر رسولا يحمل هدية إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وكانت هذه السفارة تتضمن المودة واستعراض الخدمة (1) ورد السلطان المملوكي بالقبول (2)، وظهر من تتابع الأحداث التاريخية أن السلطان الإشبيلي كان يمهد لعقد معاهدات تجارية مع دولة المماليك وبعد مرور فترة زمنية تم فعلا عقد معاهدة تجارية بين البلدين سنة 669هـ/1270م وفي سنة 674هـ/1275م بعث سلطان مصر رسلا إلى ملك اشبيلية يحملون هدايا ثمينة، وبالفعل قاموا بالإبحار من الإسكندرية في ذي القعدة 674هـ/أفريل 1276وأثناء وصولهم إلى أرض الأندلس حاصرهم صاحب برشلونة النصراني أياما ثم أفرج عنهم فواصلوا سيرهم إلى أن نزلوا بأرض مملكة اشبيلية وكانوا كلما مروا على بلد خرج إليهم أهلها وتلقوهم بالأفراح والحفاوة والإكرام (4)

1-ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ،ص 337

2- ابن عبد الظاهر : السابق نفس الصفحة

3- د/عبد الله ابراهيم محمد راجع : علاقة مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس، رسالة ماجستير ، جامعة الأزهر، القاهرة 1983ص119

4- النويري : نهاية الأرب ،ج8، القاهرة، 1954، ص229

المقريزي : السلوك ،ج1ص621

وعندما وصل هؤلاء إلى السلطان الإشبيلي وجدوا استقبالا مناسبا يليق بمكانة السلطان المصري لدى مملكة اشبيلية، وخصهم ألفونس العاشر بمحادثات وعبر لهم عن فرحته بتحسن العلاقات السياسية ثم جهز لهم مركبا وعادوا إلى الإسكندرية في أواخر ذي الحجة سنة 674هـ/يونيو 1276 م، فوصلوا إلى ديارهم بالقاهرة في صفر 675هـ/1276م ومع تتابع الحوادث والإتصالات نجد أن عدم مشاركة السلطان ألفونس العاشر في الحملة الصليبية التاسعة على تونس ترجع إلى ارتباطه بالمسلمين في المشرق وخوفا من أن يفقد امتيازاته التجارية في موانئ الإسكندرية وصور (1) ..

ونفس التقارب نلمسه بين المسلمين، وفريدريك الثاني ملك صقلية، فعلى إثر الحملة الصليبية التي قام بها على مدينة عكا بفلسطين يوم 5شوال 625هـ/07-سبتمبر 1227م تحسنت العلاقات البابوية الصقلية، حيث التقى البابا بفريديريك الثاني عام 1229م وتم الإتفاق على التنسيق والتشاور بينهما (2)، وبذلك ساد الإستقرار جمهورية صقلية وعم الرخاء، الأمر الذي سمح لفريديريك بأن ينمي علاقاته السياسية والتجارية بالمغرب والمشرق الإسلاميين (3)فأسرع إلى سلطان دولة الحفصيين وعقد معاهدة تحالف وصداقة مع الأمير أبي زكريا الحفصي، أقر الحفصيون من خلالها بدفع ضريبة سنوية لملك صقلية مقابل مساعدة عسكرية وسياسية ضد أي عدوان يهدد بلاد الحفصيين (4)

1- د/ عبد الله ابراهيم محمد راجح : علاقة مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس ، القاهرة 1983ص125-127

2- د/مصطفى حسن محمد الكناني : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، الإسكندرية 1981ص25

وأيضا : د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ص166

3- د/مصطفى حسن محمد الكيناني : نفس المرجع ص26

4- لا يعتبر الأمير أبي زكريا يحي الحفصي أول من يدفع مثل هذه الضرائب فقد كان الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن [558هـ586هـ] يدفع ضريبة إلى الملك وليام الثاني (ملك صقلية آنذاك)على أن تقدم كهدية سنوية وتبعه في ذلك أمراء تونس إلى أن جاء أبو زكريا يحي فجمدها على إثر طرد المسلمين من صقلية انظر ذلك في : MAS Latrie;l;

-Traites de paix et commerce et documentd divers concernant les relations des chretiens avec les arabes de l'afrique paris 1866p154

وقد أورد العلامة ابن خلدون في كتابه العبر أن السلطان أبي زكريا يحي الحفصي قد أمضى مع فريديريك الثاني اتفاقية (1) تعهد من خلالها ملك صقلية برد حقوق جميع المسلمين القاطنين بصقلية الذين سلبت منهم سابقا وبالسماح لهم بالعودة إلى مدينة بارما (2)، وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات بين الحفصيين وفريدريك الثاني تحسنت ووصلت إلى مستوى التمثيل السياسي، فقد أشار إلى ذلك صراحة المؤرخ برونيشفيك –brunschvig (3)وليس من قبيل الصدفة أن نجد تحسنا في العلاقات السياسية بين جمهورية صقلية والدولة المملوكية، بل هي من صميم التنسيق السياسي بين دولتي الحفصيين والمماليك نظرا للأخطار التي كانت تهدد الدولتين فقد حرص سلاطين مصر والشام في عهد المماليك على الإحتفاظ بعلاقات الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين (4)، كما توطدت أواصر الصداقة بين المماليك والصقلتين أيام فريدريك الثاني وجمعهما العداء المشترك للصليبين (5)، واستمرت العلاقات الحسنة بين دولة المماليك وملك صقلية الجديد منفريد بن فريدريك الثاني [1258م-1266م] الذي واصل علاقات الود مع دول المشرق والمغرب الإسلاميين وهذه المكانة التي حظيت بها صقلية جعلها تقف محايدة في الحروب الصليبية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-ابن خلدون : العبر ،ج6، ص282

2- ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة

3- عين الملك فريدريك الثاني مندوبا له بتونس حاضرة الدولة الحفصية وأعطى له صلاحيات واسعة انظر :
Brunschivig: La berberie orientale, t2,p93

4 - أطلق المؤرخون المحدثون على صقلية ونابولي مملكة الصقليين أو صقلية وتسكيانة انظر ذلك في : د/جمال سرور : الظاهر بيبرس، ط1القاهرة 1982ص: 118

5- كانت العلاقات بين مصر والصقلتين متطورة أيام الملك الأيوبي الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب راجع: د/ محمد الصغير : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية ص98

وإضافة إلى ماسبق فإن إزدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، بسبب العراقيل وقلة الأمن وقطع الطرق التجارية الرئيسية الأخرى بين المشرق وأوربا على أيدي المغول، هؤلاء الذين استولوا على بغداد وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى (1)، وكان من نتيجة ذلك بطبيعة الحال استعمال طريق البحر الأحمر، ومن تم ازدياد حركة مرور السفن التجارية بين دولة المماليك، ومختلف بلدان المغرب الإسلامي والغرب الأوربي (2) ومن بين تلك البلدان جزيرة صقلية، ذات الموقع الممتاز في البحر المتوسط والتي تطل علي طرق التجارة الهامة نحو أوربا وشمال إفريقيا وهكذا إذا أخذنا العاملين السابقين، السياسي والإقتصادي اتضحت لنا أسباب تلك العلاقات الودية التي استمرت بين دول مصر، وملوك صقلية من جهة وسلاطين افريقية وملوك صقلية من جهة أخرى، وهذا منذ القرن الرابع الهجري (3) وتأكيدا لما ورد من معلومات تفيد بمدى متانة العلاقات بين دولة الحفصيين والمماليك من جهة والإمبراطور فريدريك الثاني من جهة أخرى .

وإثباتا لحسن العلاقات سارع السلطان الحفصي أبي زكريا يحي الأول إلى إعلان موقف واضح إلى جانب ملك صقلية فريدريك الثاني عندما دارت معارك بينه وبين قوات جمهورية جنوة الإيطالية حول مدينة بارما، وأمده بقوة كبيرة من مسلمي إفريقية والمغرب، ومهما كانت الأمور والأحوال

1-د/ سعيد عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ،ط1، القاهرة 1979 ص296

2- د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة رقم 1982-ص153

3- من أهم مظاهر تلك العلاقات الودية بين مصر وصقلية سفارة جمال الدين بن واصل إلى صقلاية في رمضان 659هـ -أغسطس 1261م، وجمال الدين بن واصل هذا هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم قاضي مصر وأحد الأئمة - ولد بحماة في ثاني شوال 604هـ/1206م توفي سنة 697هـ برع في العلوم العقلية والشرعية، من أهم مؤلفاته : مفرج الكروب في أخبا ربني أيوب راجع : د/ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ،ط2، القاهرة 1979 ص143-144

فقد انتهت المعركة بانتصار جنوة واكتساحهم المدينة وذلك في 21/ شوال -645هـ / 18- فبراير -1248م- وأسروا عددا كبيرا من المسلمين المشاركين في المعركة إلى جانب فريدريك الثاني وهم على شكل هيئة تجار لإخفاء هويتهم الحقيقية(1)، وهذا لا يدع مجالا للشك في مدى صحة العلاقات الحسنة التي تربط دولة الحفصيين بفريدريك الثاني، وعلى كل فإن الحرب استمرت بين جنوة وصقلية إلى درجة أن جنوة استغاثت بالبابوية لإمدادها بالمساعدات اللازمة حتى تتفرغ لصناعة السفن الحربية المخصصة للحملة الصليبية الثامنة على مصر فكان من البابا أن تدخل بنفسه لتهدئة نفوس القادة الجنويين ، وأمدهم بالمال وبعض الوسائل (2) كما اتصل البابا بالملك الفرنسي لويس التاسع لدراسة الخطط الحربية وإقرارها مع عدم إغفال دور جنوة في تنفيذ خطة محكمة ضد فريدريك الثاني الذي لم يفته هذا الأمر وأراد أن يخدعهم هو الآخر، فبعث برسالة عاجلة إلى الملك لويس التاسع يخبره فيها بأنه مستعد للإبحار والمساهمة في الحملة التي ستنطلق بعد وقت قصير، وهو يعلم مسبقا بأن مساهمته تتطلب تغيرا في مهام الحملة وكان ذلك غير ممكن وإنما بادر إلى ذلك طمعا في رفع قرار الحرمان والعزل المتخذ ضده.(3)

وفي نهاية هذا الحديث نجد أن الوضع السياسي بين المسلمين وملك صقلية من جهة وبين البابا وملك صقلية من جهة ثانية بقي متأرجحا بين التوتر والإستقرار، واستمر على هذا النمط إلى أن عين شارل دانجوى CHARLES D'ANJOIشقيق الملك الفرنسي ملكا على صقلية الذي بادر إلىيتهدئة الوضع وتخفيف حدة الصراع الإمبراطوري البابوي، وفعلا تمكن من ذلك عندما أسر كوندراين (4) الذي أصدر في حقه قرارا بالإعدام في مدينة نابولي سنة 666هـ/1268م(5) .

1- في هذه الأثناء استعد الملك الفرنسي لويس التاسع للقيام بحملة صليبية على مصر والشام أي سنة 648هـ/1250م، وساعدته في ذلك جنوة بتوفير السفن والمعدات اللازمة انظر ذلك بالتفصيل في :

BERGER; E; Les registres d'innocent4; paris 1884 t1;p299

2- د/ مصطفى حسن محمد الكيناني : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص249، حاشية رقم 1، 2 لصفحة 250

3- د/ مصطفى حسن محمد الكيناني : السابق ص254.

4- كوندراين هو ابن الملك كوندرادو الذي حكم صقلية من 648هـ- 652هـ / 1250-1254م والذي ورث العرش عن أبيه : انظر :

د/ مصطفي الكيناني : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى ،ص142

5- د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ، ص170

الفصل الثالث

الحملة الصليبية التاسعة على تونس وموقف دولة المماليك منها.

1- أسباب الحملة.

2- تحويل مسار الحملة نحو تونس.

3- الاتصالات بين الدولتين بهذا الشأن.

4-وصول الحملة إلى تونس.

5- نتائج الحملة وتقييمها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- أسباب الحملة :

1-1- موقف دولة المماليك من صليبي الشام:

بعد الانتصار الساحق الذي حققته دولة المماليك على المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، في رمضان 658هـ/سبتمبر1260م، ظهر الخلاف الحاد بين السلطان سيف الدين قطز والأمير الظاهر بيبرس (1)، واستفحل الأمر بينهما لدرجة أن الأمير بيبرس أصبح يفكر جديا في الإطاحة بالسلطان. وأثناء عودة موكب النصر إلى القاهرة، دبر الأمير بيبرس مؤامرة للسلطان وقتله، ليقبل عليه الأمراء والمماليك لتقديم الولاء في نفس اليوم الذي لقي فيه قطز مصرعه 17/ذي القعدة 658هـ/24أكتوبر1260م(2) تم تنصيب الأمير الظاهر بيبرس سلطانا للمماليك في نفس السنة(3).

كان من أولويات السلطان الجديد هو تصفية الوجود الصليبي من الأراضي الاسلامية في المشرق وكان بعض أمرائهم قد ساندوا المغول في غزوه، فاتجه مباشرة نحو انطاكية التي تحالف أميرها بوهمند السادس مع المغول، وتواصلت غارات المسلمين على هذه الإمارة الصليبية طوال سنة 1262 (4)، وفي هذا الأثناء كانت تجرى الإتصالات السياسية بين المماليك وأميري الصليبيين في عكا وبيروت حول أسرى الطرفين، ورغم أن الإمارتين التزمتا الحياد في حرب المسلمين ضد المغول إلا أن الظاهر بيبرس ربط المسألة بما يحدث في جمهوريات ايطاليا (5).

1- انظر ترجمته في الفصل الثاني ص..

2-د. السيد الباز العريني : المغول، بيروت، 1981، ص265

3- المقريزي : السلوك، ج1، ص478

د.الباز العريني : السابق، 266

4- المقريزي : السابق، ص479

5- تنازع حكام جنوة مع حكام البندقية عام 1255 على إمتلاك عكا وسقط في المعارك التي دارت بينهما عشرون ألف رجل، وكانت هذه المعارك سببا في تفكك وحدة المسيحيين في بلاد الشام وظل النزاع قائما بين جنوة والبندقية حتى عـــام1379م، انظر ذلك في كتاب د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في آواخر العصور الوسطى: رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة 1968 ص275

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

.إستغل المماليك فرصة التفكك الصليبي، وراحوا يواصلون الضغط، حيث بعث السلطان الظاهر بيبرس فرقة عسكرية إلى عكا فاقتحموا أبوابها ودخلوها سنة 661هـ/ 1263م(1)، وعندما تبين للصليبيين أن جنوة تساعد المسلمين، إتخذوا قرارا بعزلها واعتبروها مسؤولة عن هذه الوضعية السياسية الصعبة التي يعيشها المسيحيون في الشرق الأدنى(2)، وعلى هذا الأساس كثفوا من مجهودهم الحربي ضد جنوة، وأخذوا يحاصرونها حيث وجدوا مصالحها، فاضطرت جنوة إلى التعامل المكشوف مع العدو التقليدي للصليبيين، المتمثل في دولة المماليك الفتية، وامضوا معهم معاهدة 661هـ/ 1263م، التزمت جنوة بمقتضاها الحياد في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، مقابل امتيازات تجارية في موانىء مصر والشام(3)، وعلى هذا الأساس تولى تجار جنوة توريد السلع والرقيق الأبيض لدولة المماليك(4)، الأمر الذي مكن السلطان الظاهر بيبرس من تكوين قوة معادية للصليبيين وتتكون من دولة المماليك وجمهورية جنوة إضافة إلى مانفريد ملك صقلية الذي تربطه بالعالم الاسلامي صداقة متينة(5)، وكانت هذه القوة قد أوقفت الصليبيين وجعلتهم يشعرون بالحرج والعجز أمام صيحات الإستغاثة الصادرة من الأراضي المقدسة إلى البابا (6).

والصليبيين عامة. وخاصة عندما وصلت جيوش السلطان بيبرس ألى أسوار انطاكية التي تمّ تحريرها من سيطرة الصليبيين في شهر رمضان سنة 666هـ/ماي1268م (7)،

1- أفادت بعض الروايات أن اتفاقا انعقد بين السلطان الظاهر بيبرس وجنوة يقضي بمساعدة بيبرس للاستيلاء على عكا انظر:د.الباز العريني: المغول، ص271، وحاشية رقم 1

2-د.عبد اللطيف محمد الصغير: علاقات مصر التجارية بدول أوربا الجنوبية، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة رقم 20 ص77.

3- المقريزي : السلوك، ج1، ص495

4- تختلف أسعار العبد تبعا لحالته الصحية أو سنه أو مصدر جلبه، وجنسه، وكان أكثرهم سعرا التتري، حيث كان يباع بسعر 130-140 دوكات ، ويليه الجركسي بين 110-120، دوكات، ثم اليوناني فالألباني انظر ذلك د.محمد الصغير : السابق، ص80 وما بعدها.

5- انظر ذلك في الفصل الثاني ص..

6- ابن كثير : البداية والنهاية، ج13، بيروت ص258، 259

7- ابن كثير، السابق، ج13، ص251

ولما كثرت أصوات طلب النجدة، وقع الملك لويس التاسع في حرج شديد، ذلك لأنه بعد رحيله إلى فرنسا تبين له دور مصر المهم في كافة المشروعات التي تحفظ امتيازات الصليبيين في مصر والشام. ولهذا بدأ في تهيئة الظروف المناسبة لعقد معاهدات صداقة مع مصر(1).

ومثلما شهدت ساحة القتال ضغطا عسكريا من قبل المسلمين، عرفت الساحة السياسية تحركا ونشاطا مصريا، إذا انتقلت في هذه الأثناء سفارة مملوكية إلى جنوة الصديق التقليدي لدولة الظاهر بيبرس، ويبدو وفقا لما أشار إليه المؤرخ نانجي NANGIE أن سبب تلك السفارة هو من أجل كسب موقف شارك دانجو ملك صقلية وأخ لويس التاسع(2)، ومما يؤكد هذه المعلومات أن الملك شارل بادر بإرسال سفارة إلى السلطان الظاهر بيبرس يثمّن فيها وجوه المعاملة الحسنة مع الفرنج والمسيحيين عامة في بلاد الشام(3).

لكن سقوط المستوطنات في أيدي قوات السلطان الظاهر بيبرس وأصوات الإستغاثة المتكررة، حالت دون تطبيق المعاهدات المبرمة بين دولة المماليك، وملك قبرص شارك دانجوى وبسقوط أنطاكيا في الشام اهتزت أوربا بكاملها، وراحت تحمل المسؤولية إلى البابا كليمونت الرابع الفرنسي الأصل (663هـ/ 667هـ 1265م/1268م، الذي كان من بين أولويات مشاريعه إعادة الحكم اللاتيني إلى القسطنطينية (4)

1-د.محمد الصغير : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، ص110.

2- انظر ذلك في كتاب : NANGIE; Vie de saint-louis, PP441-447

3- دعم هذا الرأي مؤرخ الحروب الصليبية -رانسمان ستيفن- حيث أشار إلى أنه تم الاتفاق المبدئي على أن يتوسط شارل دانجوى بين الظاهر بيبرس والملك لويس ملك فرنسا حول مسألة الوجود الصليبي في الشام.

انظر ذلك: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، القاهرة 1396هـ، 1976م، ص336

S,RUMCIMAM، وانسمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص500

4- ظل الصراع دائرا بين البيزنطيين واللاتينيين على حكم القسطنطينية منذ عام 603هـ/1204م، حتى سنة 660هـ/1261م، حينما استطاع ميخائيل الثامن باليولوجس استعادة العرش البيزنطي بمساعدة جنوة في هذا المعني وللمزيد من المعلومات عن الدولة البيزنطية إثر سقوط القسطنطينية بأيدي اللاتينين

انظر : د/عمر كمال توفيق: الدولة البيزنطية الاسكندرية 1977، ص195، 210

د/جوزيف نسيم : تاريخ الدولة البيزنطية الاسكندرية 1984، ص261، 273

رانسمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد : القاهرة 1961، ص55، 211

بالتنسيق مع ملك صقلية شارل دانجوى(1)-، وكانت فرنسا آنذاك قد بلغت مكانة هامة بين دول أوربا بفضل جهود وحنكة فيليب أغسطس (579هـ-621هـ 1180م-1223م، وقد ترك لولده لويس الثامن (621هـ-625هـ1223 م-1226م)، ثروة هائلة ودولة قوية ورثها لويس التاسع، وجدير بالإشارة إلى أن لويس التاسع كان عند توليه العرش تحت وصاية أمه الملكة بلانس القشتالية BLANCHE OF CASTILE أو «المرأة الذئب» حسبما عرفها معاصروها(2)، ولقد أدارت بلانش أمور البلاد بحزم وجمعت السلطة كلها في يد لويس التاسع، الذي اهتم باصلاح حال البلاد وتنظيم الإدارة مستعينا على ذلك بالثروة الهائلة التي ورثها عن والده كذلك اهتم بالكنيسة وأعفى رجالها من الضرائب(3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- Nangi, vie de saint louis Paris 1825 page 439

2- د/سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى : ج1، ص259، 272

3- لقدأشارت الملكة مرجريت دي بروفانس زوجة لويس أن زوجها الملك كان يحب رجال الكنيسة ويكره الإسلام والمسلمين، ولا تفارقه الرغبة في الي الثأر لهزيمته في المنصورة بمصر انظر ذلك

Marguerite, le confesseur de la reine Paris 1840 PP 61-64

1-2 قبرص ودورها في ظهور الحملة الصليبية التاسعة:

إحتلت قبرص موقعا جغرافيا جعلها هامًا مطمعا لكثير من القوى الكبرى على مر العصور(1).

لقد دخلت في حوزة الدولة البيزنطية في أواخر القرن الرابع الميلادي 395م، وقد أدرك المسلمون أهميتها فعملوا على بسط سلطانهم عليها (2) لكنها ظلت في حوزة الدولة البيزنطية حتى استولى عليها رتشارد الأول قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة سنة 1191م، ومنذ ذلك الحين أصبحت داخلة في نطاق الحروب الصليبية حتى أصبحت مركزا لتموين بقايا الدويلات الصليبية بالشام طيلة قرون، وصارت قوة للفرنج كما غدت محطة للحملات الصليبية القادمة من الغرب، وشاركت بجهد كبير في حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر سنة 647هـ/1249م، وقد أعقب فشل هذه الحملة قيام دولة المماليك في مصر، فتطلع المسلمون إليها وبعد دحر المغول في عين جالوت 658هـ/1260م، تزعمت مصر المملوكية العالم الإسلامي ضد المعسكر الصليبي الذي تتزعمه قبرص تحت أسرة لوزجنان «الصليبية» والدليل على ذلك أن معظم الحملات الصليبية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري لم تأت من الغرب مباشرة بل قام به ملوك أسرة لوزجنان في قبرص(3)

وفي وصاية هيوالأنطاكي على عرش قبرص، قام السلطان بيبرس بهجومه الكبير على الصليبيين بالشام سنة 661هـ/1263م، وهو الهجوم الذي أعقبه تخلصه من خطر الملك المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك(4)

فسارع هيو إلى مدّ الصليبيين بقوة كبيرة قدرها ألف ومائة فارس، ولكن هيو يبدو أنه وصل متأخرا بنجدته فلم يستطع القيام بشيء عند استيلاء بيبرس على قيسارية، وحيفاء وأرسوف فأغار على طبرية ثم عاد مسرعا إلى عكا (1)

1- تعد جزيرة قبرص من أهم جزر البحر المتوسط وتقع في الركن الشمالي الشرقي منه، موقعها جعلها ملتقى القارات أوربا، آسيا، افريقيا، وهي قنطرة بين الشرق والغرب: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج7، ص26.

2- بدأ الفتح لهذه الجزيرة في العهد الإسلامي على يد معاوية بن أبي سفيان يوم كان أميرا على الشام انظر : ابن خلدون ك العبر، ج5، قسم4، ص975

3- د/عزيز موريال عطية : الصليبيون في العصور الوسطي، ص44.

4- المقريزي : السلوك ،ج1،ق2، ص483

5- رانسمان ستيفن: تاريخ الحروبا لصليبية، ج3، بيروت 1969م، ص41

وظل هيو الأنطاكي وصيا على عرش قبرص حتى سنة 665هـ/1267م، حيث توفى هيو الثاني ملك قبرص ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره فخلفه هيو الأنطاكي الوصي باسم الملك هيو الثالث(1)، وفي سنة 667هـ/1269 م، استطاع أن يجمع بين تاجي مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية في عكا حيث تمّ تتويجه في مدينة صور 2رمضان667هـ، 24سبتمبر1269م ملكا عليها وبذلك تم توحيد المملكتين من جديد.

ومن ذلك الوقت تمكن من القيام بدور هام في الحروب الصليبية بوصفة ملكا على أكبر مملكتين صليبيتين، وقد أظهر منذ البداية سياسته العدوانية ضد المسلمين عامة، وقد قبض على رسل السلطان الظاهر بيبرس وهم في طريقهم إلى سلاجقة الروم أثناء مرورهم بقبرص رغم الأمان المعطى لهم من قبل صليبي الشام(2).

ولما كان السلطان بيبرس وقتئذ مشغولا بتوطيد سلطانه ولم يكن على استعداد للقيام بعمل حربي كبير ضد قبرص في ذلك الوقت، فإنه إكتفي بدعوة بعض زعماء الصليبيين بالشام ومعاتبتهم بغدر صاحب قبرص بالرسل، ويتضح من الخطة التي اتبعها بيبرس معهم في تلك المناسبة، مدى حنقه على هيو الثالث لإعتدائه على المسلمين(3).

وفكر السلطان الظاهر بيبرس في غزو مملكة قبرص وأخذ يعد العدة لذلك وقد سنحت له الفرصة في شوال سنة 669هـ/ماي 1271م، عندما علم أن هيو الثالث ملك قبرص قد حضر إلى عكا لتفقد شؤون مملكة بيت المقدس الصليبية ولنجدة أهلها من إغارة جيش السلطان بيبرس(4) فرأى أن يهاجم الجزيرة في غيبته فأرسل سبعة مراكب بقيادة إبن حسون(5)،

1- رانسمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ج3 ص561

2 - المقريزي : السلوك، ج1، ق2، ص485

3- توجد تلك الخطبة في كتاب : ابن عبد الظاهر الروض الزاهر، ص ص 153-156

وأيضا المقريزي : السلوك، ج1 ق2 ، ص 486.

4- ابن كثير : البداية والنهاية، ج13، ص259

5- لم أستطع ترجمة لبيانه .

وعمل خدعة حربية حيث طلى ظاهر السفن بالقار(1) ورسم عليها الصلبان من الخارج حتى تظهر للصليبيين وكأنها سفنهم العائدة من الشام وتنطلي الحيلة عليهم(2)، غير أن هذه الحيلة لم يقدر لها أن تتم فقد هبت رياح عاصفة بالغرب من ثغر نياسول (3) فحطمت عدة مراكب واستطاع القبارصة أين يأسروا من كان فيها من المصريين وعددهم ألف وثلثمائة مقاتل، أما المراكب الباقية فقد نجا بها إبن حسون وعاد إلى مصر (4).

ولما علم السلطان الظاهر بيبرس أن أسرى المسلمين في قبرص قد تمّ نقلهم إلى صور أرسل سنة 673هـ/1274م، الأمير فخر الدين المقري الحاجب لابتياعهم، فتغالى الصليبيون في ثمن الرؤساء(5)، وباعوا القواد والرماة لطائفة من إخوانهم صليبي الشام، ففادى هؤلاء الصليبيون أسراهم لدى السلطان بيبرس(6) وبقي رؤساء هؤلاء الجند المأسورين لديهم فحبسوهم في قلعة عكا-ولجأ السلطان إلى إرشاء الحراس المكلفين بحرساتهم في القلعة فأطلقوهم وهربوهم إلى القاهرة دون أن يشعر بهم الصليبيون وقد أحدث هروبهم فتنة كبيرة في صفوف الصليبيين.

والواقع أن بيبرس لم تفتر همته عن إنشاء أسطول جديد بدلا من الذي تحطم بثغر «يناسول» في جزيرة قبرص وقد توجس هيليو الثالث خيفة من بيبرس لسرعة تحركاته من جهة وأدرك إنه لا يمكن إنقاذ إمارات الساحل الصليبي بالشام ألا عن طريق أحد أمرين إما بتوجيه حملة صليبية جديدة من جهة غرب مصر(7)، وإما بقيام المغول بمحاولة أخرى لغزو الشام ومصر.

ونظرا للظروف السياسية الجديدة لم يتمكن المغول من غزو الأراضي الإسلامية ولهذا لم يبق إلا الإحتمال الثاني وهو إعداد حملة صليبية جديدة على مصر.

1- القار هو مادة سوداء حالكة تستعمل في طلاء الأدوات الخشبية.

2- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص386، هذا وقد اختلف بعض المؤرخين في عدد المراكب فقد ذكر المقريزي في كتابه السلوك، ج1، ص593، بأن عددها ستة عشرة وحدد العدد ابن تغري بردي، والنويري، بسبعة عشر انظر : النجوم الزاهرة ، ج7، ص154، نهاية الأرب ج28، ورقة 173ويرى ابن خلودن بزن عددها كان عشرة ابن خلدون : العبر، ح5، ص390

3- يقع التغر في مدخل سبناء قبرص الشرقي انظر : ابن عبد الظاهر: السابق، ص390

4- ابن عبد الظاهر : السابق، 387

5- إبن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد، ط.باريس1920، ص167

6- إبن عبد الظاهر : السابق، ص392.

7- عبد الحليم المصري: الرحلة السلطانية وتاريخ السلطنة المصرية، القاهرة 1976، ص130

الدعوة والإعداد للحملة:

إن الملك لويس التاسع لم يتقبل هزيمتة وفشل الحملة الصليبية الثامنة التي قادها بنفسه على مصر سنة 648هـ/1250م، ولذلك فكر في الثأر من المماليك الدين أخرجوه صاغرا من ديار مصر والشام واستغل صرخات الإستغاثة التي نادت بالتدخل السريع لإنقاذ حياتهم من هجومات السلطان الظاهر بيبرس، ودعا إلى عقد مؤتمر واسع يحضره ملوك وحكام أوربا الغربية لدراسة مسألة نجدة الأراضي المقدسة(1)، وتمّ الإجتماع يوم 27جمادى ثاني 665هـ/24مارس 1267م، وحضره سيرجان بوانفيل Sir jean de joinville الرفيق الملازم للملك لويس التاسع(2)، وقد حضر المؤتمر الكثيرون من النبلاء والكونتات، وبعد أن ألقى الملك لويس خطابه دعاهم فيه إلى حمل السلاح والاستعداد لإنقاذ الأراضي المقدسة من المسلمين، وحمل لويس الصليب هو وأولاده الثلاثة فيليب Fillip وبيتروPietro والحزين Tristamo (3) معلنا بذلك عن بداية الحملة، وبعد إنتهاء المؤتمر، بدأ لويس جهوده للإعداد للحملة، فكاتب حكام المدن الإيطالية وعلى رأسهم الجنوية والبنادقة كما أرسل إلى أخيه شارل دانجو-ملك صقلية.

والبابا يرجوهما المساهمة في إنجاح الحملة(4)، وجمع جهودهما للإسهام في حملته ضد المسلمين في الأراضي المقدسة.

وكان ردّ فعل البابا كليمنت الرابع Clement سريعا، إذ شجع الحملة وأصدر أوامره إلى كافة الكنائس الغربية بتسخير أموالها للمساعدة في إعدادها (5).

Grousset, Histoire des croisades, Paris 1936,T3 P65-1

2- إن جوانفيل قد عارض فكرة الحملة لسوء أحوال فرنسا السياسية، وعدم مقدرة الملك لويس التاسع على إحراز النصر مرة أخرى أنظر ذلك بالتفصيل في Grousset, op, cit., P524

3- ولد في مدينة دمياط عام 1250م في ظروف صعبة حيث كان والده أسيرا بدار ابن لقمان بالمنصورة وعرف باسم كونت نيفير Comte de nevers عام 1266م بزواجه من يولاندYolande التي ورثتها عن أبيها أيودEudes دوق بورجوني Bourgogne مات أثناء وجود الحملة في تونس عام 1270م، أسماه ابن خلدون «دمياط» لمولده بها.

انظر ابن خلدون : العبر، مج6، القسم 5، بيروت 1983، ص670، 671

4- جدير بالاشارة الى أن شارل دانجوى والبابا كليمنت الرابع 1265-1268م قد شرعا في اعداد مشروع صليبي ضد القسطنطينية من أجل إعادة الحكم اللاتيني انظر ذلك بالتفصيل.

Nangie, vie de saint louis, P 441

Grousset, histoire des croisade, P654 -5

هذا وفي الوقت الذي كانت الإتصالات جارية على قدم وساق بين الجنوية من جانب والبابوية والملك لويس من جانب آخر(1) لإعداد الحملة وصلت معلومات من الأراضي المقدسة تطالب البابوية بسرعة نجدة الكيان الصليبي الذي أذن بالإنهيار في بلاد الشام(2).

فكان أن كثف لويس التاسع جهوده مع الجنوية والبابوية لسرعة إعداد الحملة لانقاذ الصليبيين بالشام، وتحرير الأراضي المقدسة من المسلمين تلك الحملة التي لم يلعب الجنوية الدور الأساسي في إعدادها وقيادة أساطيلها فحسب، بل كان لهم أكبر الأثر في تغير مسارها وافشالها أيضا.

وهذا ما سيقوم بتوضيحه بالتفصيل على إمتداد صفحات الفصل. وصلت الأخبار المتعلقة بإعداد حملة صليبية جديدة على مصر إلى آذان السلطان الظاهر بيبرس، وهو يتابع إنجاز وعده المتعلق باخراج الصليبيين من الشام، فعاد مسرعا إلى مصر، حيث أمر بانشاء السفن وتحسين الثغور، وترميم الأسوار(3).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- كان التفاهم يجري بين الأطراف منأزجل توقف شارل عن اعداد حملته ضد القسطنطينية ولقد كان الفضل في ذلك يعزي إلى لويس التاسع الذي دعم رغبة الجنوية، خاصة بعد رفض البنادقة المساهمة في الحملة. ولقد نجحت السفارة الجنوية في عقد معاهدة صداقة مع شارل دانجو. أسفرت عن ذلك نتائج هامة أثرت في السير العام للحملة انظر ذلك.

Nangie, op, cit, 2, P508

2- انظر ذلك في الصفحات من هذا الفصل.

3- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص389.

تحويل مسار الحملة نحو تونس:

إن مسألة تحويل مسار الحملة الصليبية التاسعة عن اتجاهها نحو مصر إلى تونس، ظلت تشغل بال المؤرخين والباحثين، ويبقى بحثها محل إجتهاد. ذلك لأن المادة العلمية الخاصة بتحويل مسار الحملة تؤخذ من مصادر أجنبية ولم نعثر على ما ييسّر غور هذا التحول في المصادر العربية، فقد ذهب المؤرخ الكبير برونشفيك Brumschvig إلى أن نجاح الحملة الصليبية على مصر يعني القضاء النهائي على إمتيازات جمهورية جنوة في مصر والشام (1)، وحفاظا على امتيازاتها التجارية وتنفيذا لمعاهدة الصداقة والتعاون التي تربطهم بدولة المماليك أخذوا يبحثون عن أسباب مقنعة لدى الملك لويس التاسع، ولما عرف بحماسه الشديد لنشر المسيحية (2)، أشاعت جنوة خبرا يفيد بأن المستنصر بالله الحفصي سلطان افريقيا يرغب في التخلي عن الدين الإسلامي، واعتناق الدين المسيحي الكاثوليكي، وقد قاطعه أهل افريقيا بسبب عقيدته الفاسدة حسب زعمهم(3)، ولما أحست جنوة بغضب الملك لويس التاسع وتقبله الفكرة من حيث المبدأ عرضوا عليه إمكانيتهم ومساعدتهم.

إن غير مسار الحملة نحو تونس، محاولين إقناعه بعداء المسلمين للمسيحيين أينما كانوا وانطلاقا من تنصير المستنصر بالله الحفصي وشعبه(4)، في تونس، يمكن أن تواصل الحملة طريقها باتجاه مصر، وبعد تردد كبير ومناقشة داخل مركب قيادة الحملة أبدى لويس مرونة في موقفه وأصبح لا يرى مانعا مادام الهدف يتحقق(5).

1- انظر صفحة رقم من الفصل الثاني..

joinville / vie et miracle de saint louis, nat paris p40, n 2829

2- عرف لويس التاسع بتعصبه الشديد للمسيحية، وتفانيه في نشر الدين المسيحي ومدى كرهه للإسلام والمسلمين، وقد كانت أمه بلانش القشتالية تسمى الملكة الصالحة Blanche la bonne وقد كانت المفرطة في حب إبنها لويس التاسع، وقد عكفت على تربيته على الفضائل المسيحية وكانت تقول له أنها تفضل أن تراه ميتا على أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية.

Joinville, op, cit, pp, 45-49 -3

4- عن تحويل الحملة والأسباب المتعلقة برغبة لويس في نشر المسيحية في دار الإسلام

انظر: د/سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ط2، القاهرة 1971، ص238

د/محمد محمد أمين : شمال افريقيا والحركة الصليبية (1189م-1390م)

مقال في مجلة الدراسات الافريقية العدد الثالث/القاهرة/1974

Nangie, vie de saint-louis pp-241-248 -5

لقد اعتبرت جنوة موافقة الملك لويس على تغير مسار الحملة نحو تونس نجاحا كبيرا في سياستها وأن هذا التغير سيكون له الأثر الإقتصادي الواضح على حياة سكان جمهورية جنوة، ولا غرابة في موقف جنوة الإزدواجي هذا إذا علمنا أن شعارهم هو : «نحن جنويون أولا بعد ذلك مسيحيون»(1)، مادمنا نناقش موضوع تحويل مسار الحملة، فمن الضروري الإشارة إلى أن رأيا آخر مفاده أن الملك لويس التاسع اضطر إلى التعاون مع جنوة بعدما رفضت جمهورية البندقية مدّه بالسفن والمراكب خوفا من فقدان بعض الامتيازات التجارية التي حصلت عليها في موانىء الاسكندرية وصور(2)، الأمر الذي أتاح الفرصة لكل من جمهورية جنوة والملك شارل دانجو ملك صقلية، الذي كان هو الآخر يرغب في توسيع ملكه على حساب أراضي المسلمين في افريقيا، من أن ينسقوا جهودهم.

ويقوم شارل دانجو بالإتصال والتنسيق مع أخيه لويس التاسع قصد نشر المسيحية وتنصير المسلمين في تونس، ثم بعد ذلك الإنتقال نحو مصرمشروع الحملة.

وأشار عليه بأن المغول في المشرق لا يعول عليهم في ميدان (3)، التنصير وافساد عقيدة المسلمين. وبهذا تكون جبهة الظاهر بيبرس المشكلة من دولة المماليك وجمهورية جنوة. وصقلية قد وفقت في تغير جهة مسار الحملة، وهذا مكسب عظيم كما سيتبين فيما بعد.

1- د/محمد الصغير : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، جامعة القاهرة، ص115.

2- رانسمان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج3 ترجمة د/الباز العريني-دار الثقافة بيروت 1962 ص566

3- رانسمان ستيفن : السابق ، ص569

- د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج1، ص101

- د. جمال الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ج2،ط1،دائرة المعارف القاهرة 1967، ص267

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- الإتصالات بين الدولتين بشأن الحملة:

بعدما تأكد حكام جنوة من نية الملك لويس التاسع بالتوجه نحو تونس بدلا من مصر، أسرعوا إلى قطف الثمار، واتصلوا بالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس معلنيين الجهة الجديدة للحملة الصليبية.

وبدافع من الشعور بوحدة مصير الشعوب الإسلامية، وبما يمليه عليه الواجب العقدي أرسل سلطان دولة المماليك سفارة عاجلة إلى سلطان افريقيا أبو عبد الله المستنصر بالله الحفصي، يخبره بمدى الانتصارات التي حققها في المشرق على حساب التوسع الصليبي، وفي نفس الوقت يُطلعه عن مستجدات الحملة الصليبية التي غيرت مسار جهتها إلى تونس ويطلب منه الاستعداد اللازم والكافي لصد العدوان الصليبي.

وركزّ السلطان الظاهر بيبرس في سفارته هذه على تحسين العلاقات بين الحفصيين وجنوة الإيطالية التي شهدت بعض التوتر في المرحلة الأخيرة، وطلب منه دفع الأتاوة التي تعهد الحفصيون من قبل بدفعها ثم جمدت (1) ولم يتأخر السلطان الحفصي، فبمجرد سماعه الخبر وجه على الفور برسالة إلى جنوة يلتزم من خلالها بتسديد ديونه، واعتبرت جنوة هذا الاستعداد بداية عهد جديد بين الحفصيين وجنوة الإيطالية(2).

ومن جهة أخرى انتقلت سفارة حفصية إلى فرنسا للتأكد من حقيقة الحملة الصليبية واستقبلها الملك الفرنسي لويس التاسع في باريس يوم الأربعاء10/صفر/668هـ/ 09 /أكتوبر1269م، وتم تحذيره بمواجهة الأمة الإسلامية في حالة ما إذا عزم على غزو تونس، ودار الحديث بينهما حول التعويضات الخاصة بأحد رعايا فرنسا الذي قتل في تونس بعد أن نهبت أملاكه (3).

وقال لهم « .. أود أن تخبروا مولاكم بأني أود أن أظل حبيس سجون المسلمين مدى الحياة، إذا كان المقابل هو تعميده مثلما عمدت هذا الرجل ..»(4)، ومن خلال هذا القول المنسوب إلى الملك لويس التاسع والذي لا يتعارض مع السياق العام لحياة الملك لويس.

1- المعلومات الخاصة بذلك : انظرها في الملحق رقم

2- Nangie / vie de saint louis P440

3- د/محمدالصغير: العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، ص114.

4- إن الرجل المقصود هنا هو اليهودي الذي عمده لويس أمام السفارة الحفصية انظر : Nangie,Vie de saint louis, p402

وجذير بالإشارة إلى أن بعض المؤرخين قد شككوا في صحة الرواية ونسبوها إلى نسيج خيال رجال الكنيسة من بينهم ريموند مارتن الراهب الدومينيكاني راجع : Brunschvig, r,Laberberie orientale sous les hafsides t2, p 57,110

هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يتناقض مع الأهداف التي يسعى لتحقيقها ومما يؤكد صحة ما توصلنا إليه تلك المعلومات التي أوردها ابن خلدون والتي يشير فيها صراحة إلى أن السلطان الحفصي يكون قد عرض على القديس لويس مبالغ مالية ضخمة مقابل عدوله عن غزو إفريقيا بلاد الحفصيين (1) وتقدر هذه البالغ بثمانين ألف دينار ذهبي بالإضافة إلى منحه امتيازات تجارية شبيهة بما كان قد عهد بها لجنوة الإيطالية (2).

وفي هذه الأثناء قام سلطان المماليك الظاهر بيبرس بتسيير سفارة إلى الملك لويس التاسع لنقل اهتمام وانشغال دولته وفي نفس الوقت يحذره من مغبة مغامرته هذه، وذكرّه بأن المسلمين أمة واحدة لا فرق بين مشرقها ومغربها، وسوف يحدث له ما حدث إبان حملته الثامنة على مصر سنة 646 هـ/1248م(3)، وأنشده بعض الأبيات الشعرية للشاعر أبي مطروح.

بعد كل هذه المحاولات السياسية التي قامت بها الدولتان الحفصية والمملوكية، بات مؤكدا عزم الصليبيين على غزو ديار المسلمين ابتداءا من تونس حاضرة الحفصيين ثم بعد ذلك مصر والأراضي المقدسة ومن الطبيعي جدا أن يستعد السلطان الحفصي المستنصر بالله ليرد العدوان (4)

1- ابن خلدون : العبر ، مجلد6، قسم5، ص670-671

وأيضا : ابن أبي دينار : المؤنس ص127

2- Brunschvig : r, op, cite, p142

وابن خلدون : السابق، نفس الجزء والصفحة.

3- جاء في مطلع الرسالة التي حملتها سفارة السلطان الظاهر بيبرس بقيادة جمال الدين بن مطروح نائب دمشق إلى الملك لويس التاسع ما يلي :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من وزير نصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ربح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

راجع : ابن خلدون : العبر مجلد5، القسم الرابع، بيروت 1983ص784

4- ابن القنفد : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ص156

أول عمل باشره في هذا السياق هو إعلان الدعوة للجهاد فقد استنفر شيوخ القبائل في بلاد المغرب كافة وحثهم على حشد كل الوسائل التي يملكونها واشعرهم بأن المسلمين في الشرق الإسلامي الأدنى ينظرون إليهم ويمدونهم بالمساعدات الضرورية (1) لردع العدو الغاشم وطلب من الشعراء بعث الهمم في نفوس المجاهدين المسلمين .وانتقل خبر انطلاق الحملة الصليبية على تونس إلى جميع جهات المغرب والمشرق وانشغل المسلمون بهذه الحملة وأخذوا يجمعون ما يلزم للدفاع عن أرض تونس (2).

وكان السلطان الظاهر بيبرس يتابع تطور الأحداث ساعة بعد ساعة، وعندما علم بانطلاق الحملة الصليبية نحو تونس أمر قواته بالإستعداد التام، وكلف فرقة عسكرية بنقل المساعدات الضرورية، كما أمر مساعديه بحفر الآبار على طول الطريق الساحلي الرابط بين الإسكندرية وتونس، ومن الجزيرة إلى الجيزة لأجل عبور العساكر (3) وعبّر الشاعر أحمد بن اسماعيل الزيات عن هذا التآزر والشعور بالمصير المشترك في قصيدة مطلعها :

يا فرنسيس هذه أخت مصر
فتأهب لما إليه تصـــــير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منـكر ونكـــير (4)

1- الزركشي : تاريخ الدولتين ص

2- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص373

3- كتب السلطان الظاهر بيبرس إلى صاحب تونس يطمئنه بقرب وصول العساكر لنجدته وأمر عربان بلاد النوبة وسكان برقة بالإسراع إلى نجدة المسلمين في إفريقية

انظر : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص374-377

المقريزي : السلوك، ج1، ص590

4- المقريزي : الخطط، ج1، ص418

وصول الحملة:

حاول لويس التاسع جمع أكبر عدد من عوامل نجاح حملته الصليبية على تونس، وكان في تقديره أن يصل إلى موانىء تونس في منتصف الربيع من عام 668هـ/1270م. لكن جنوة شريكته لم تكن تنظر إلى مشروع الحملة بنفس منظار بطلها لويس، فماطلت في تسليم السفن وتوابعها، فهي تريد إدخال عوامل أخرى تساهم في فشل الحملة أو على الأقل التقليل من خطرها، وهذا وفقا لما اتفقت عليه مع كل من السلطان أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي وسلطان المماليك (1)، فهي تريد إدخال عامل حرارة فصل الصيف المحرقة في المعركة .

وبعد يومين من الإبحار وصل الأسطول إلى سواحل إفريقية ونزلوا في بداية الأمر بساحل قرطاجنة (2) وبادروا بحفر الخنادق وترتيب الحراسة والإمداد وغيره من الشؤون الحربية كل ذلك تم في غياب المقاومة الإسلامية فساد الإعتقاد بين صفوف العسكر الصليبي بأن المستنصر بالله الحفصي يحضر نفسه فعلا لاستقبال الملك لويس التاسع لإعلان كفره بالإسلام واعتناقه الديانة المسيحية الكاثوليكية تبعا لما كانت جمهورية جنوة تروج له قبل إنطلاق الحملة الصليبية وبعد وقت اتضح أن المستنصر بالله لم يكن كما توقعه الجميع، إذا بدأت أصوات واحتجاجات الفرنج تصل تباعا (3) إلى الملك لويس، ذلك أن أموالهم قد صدرت ومعظمهم أسر وأن هناك خطة عسكرية متبعة قد حضرها السلطان الحفصي بمعية كبار القادة العسكريين (4)المسلمين وبعض المختصين الأرجوانيين الذين كان قد بعث بهم الملك خايمي الأول (5) وأخذت القوات الإسلامية التي أرسلها السلطان الظاهر بيبرس تصل تباعا إلى أرض المعركة.

في هذه الأثناء وصلت أيضا قوات من بجاية، وجنوب الدولة الحفصية، فتطلب الأمر وقتا من أجل تنظيم صفوف القوات الإسلامية وجعلها في الأمكنة المناسبة (6) ثم بعد ذلك دخلت القوات الإسلامية في معركة شرسة وما أن مرت ثلاث أيام حتى ظهرت علامة التفكك في صفوف الصليبيين(7)وبدأت قوات جمهورية جنوة تتراجع فاسحة المجال إلى قوات إفرنجية.

1- د/ محمد الصغير : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية في عهد الأيوبيين والمماليك ص106.

2- Brunschvig, R, la berberie oriental sous les hafsidesT1 P141

3- ابن خلدون : العبر مجلد 6، قسم 5، صفحة 671

4- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص370

ابن خلدون : السابق نفس الصفحة

5- انظر الفصل الثاني صفحة

6- Brunschvig, R, op, cite, pp145,149

7- ابن خلدون السابق، ص 671-672 و Brunschvig , R, op, cite, p 152

إفشال الحملة:

إتضح أخيرا أن الأخبار التي اعتمد عليها لويس التاسع غير صحيحة، سواء التي كانت متعلقة بالسلطان الحفصي وشقيقه، أو التي تتعلق بقوة جنوة ومدى فعاليتها في المعركة وبعد مدة زمنية تبين للملك لويس التاسع أنه لا فائدة ترجى من إستمرار المعركة (1) وترجع أسباب الفشل هذه إلى مايلي :

الجانب الحفصي :

إتبع الحفصيون طريقة قتالية ناجحة، حيث سمموا الآبار المائية وقطعوا القنوات التي يمكن أن يستفيد منها العدو، وبدأوا قتالهم على شكل ضربات خاطفة ومتقطعة على جوانب القوات المعادية دون الدخول معه في معركة حامية الوطيس (2) وذلك لأن إطالة مدة القتال تكون في صالح دولة الحفصيين باعتبار أن حرارة الشمس تعد عاملا مساعدا بالنسبة لهم خاصة وأن الصليبيين لم يتعودوا على ذلك.

مساهمة شارل دانجو ملك صقلية:

في الوقت الذي اشتد فيه ضغط القوات الإسلامية وازدادت حاجة الصليبيين إلى دعم مادي ومعنوي وظلوا ينتظرون مدد القوة العسكرية الصقلية التي وعد بها شارل دانجو (3) فإن هذا الأخير تعمد التأخر عن الموعد المتفق عليه الأمر الذي دفع بالملك لويس التاسع إلى إرسال خطاب إلى أخيه شارل يستصرخه ويطلب منه الإسراع في تقديم ما وعد به (4).

1-ابن خلدون : العبر مجلد 6، قسم 5، ص671

2- علل بعض المؤرخين سبب نجاح القوة الإسلامية في صد الصليبين بمشاركة المستشارين العسكريين الذين أرسلهم الملك خايمي الأول -ملك أراجون- لمساعدة الحفصيين في إدارة المعركة وهم الذين أشاروا عليه بترك الصليبيين ينزلون ثم يهاجمونهم، وكادت هذه الطريقة القتالية أن ترجح كفة النصر للصليبيين حسب رأي السلطان الظاهر بيبرس الذي عاتب المستنصر بالله الحفصي وقال له « .. مثلك لايصلح لأمور المسلمين ..» راجع: ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص397.

3- يفسر هذا التأخر بالوفاء للمعاهدة التي أبرمها مع السلطان الظاهر بيبرس انظر : د/محمد جمال الدين سرور: دولة بنو قلاوون في مصر، القاهرة 1963ص101

4- د/ محمد جمال الدين سرور: السابق، ص102.

وبالرغم من أن الوضع العسكري لا يحتمل التأخر أو الإنتظار، فإن شارل دانجو لم يغادر بعد صقلية، والأكثر من هذا فإنه أوفد سفارة إلى أخيه لويس التاسع يبلغه فيها اعتذاره (1) ويظهر جليا من خلال السياق العام لأحداث الحملة الصليبية أن الملك شارل دانجو كان همه الوحيد هو مصالح صقلية فلا يمكنه الزج بقواته في معركة تدور لصالح المسلمين ومن هنا فإنه رفض الدخول في معركة خاسرة (2).

الجانب الجنوي :

لقد مرّ معنا في هذا الفصل أن جنوة قد أبرمت اتفاقيات مع المسلمين في المشرق والمغرب وأمسى الظاهر بيبرس حليفها التقليدي في الوقت الذي كانت فيه عداوة الدول الأوربية لجنوة، كل ذلك أدى بجنوة إلى أن تشارك في الحملة لتقطف الثمار لا غير، فبعد أن دارت المعركة بين المسلمين والصليبيين، بقيت جنوة تنظر وتقيم الوضع العسكري وظلوا في سفنهم داخل عرض البحر (3)، واضطر الملك لويس التاسع أن يتوسل إلى الجنويين ويطلب منهم العودة إلى ميدان القتال. ولكن جنوة رأت أن الوضع العسكري أصبح في أيدي المسلمين خاصة أن الأمراض انتشرت في صفوف الصليبيين من جراء الروائح الكريهة المنبعثة من جثث القتلى وهذا ما دفع بالمسلمين إلى تكثيف هجوماتهم على الصليبيين حتى اضطروا إلى طلب الصلح ومغادرة البلاد (4).

1- Nangie,Vie de saint louis , p457

2- Nangie, OP, CIT,p458

وقد أشار كذلك إلى موضوع مساهمة شارل واعتذاره المؤرخ برونشيفيك

Brunschvig , R, Laberberie orientale p40

3- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص153-156

رانسمان ستيفن : ج3، ص561-562

4رانسمان ستيفن السابق، ص564

ابن أبي دينار : المؤنس، ص 127

المقريزي : السلوك، ج1، ص590

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نهاية الحملة :

عندما شعر لويس التاسع باستحالة تحقيق النصر، زادت حالته الصحية تدهورا ولم تمضي إلا أيام قلائل حتى فارق الحياة، وأقبل أخوه شارل دانجو إلى تونس ليقود الحملة الصليبية إلى نهايتها، حيث بادر باجتماع ضمّ قادة الحملة الصليبية، واقترح نفسه قائدا عاما للحملة الصليبية بدلا من ابن أخيه فيليب phelippe معللا ذلك بصغر سنه وقلة خبرته وبعد أن تسلم مقاليد القيادة (1) عمد إلى تقييم الوضع العام، فقد انتشرت الأوبئة والأمراض بصفة عامة، وكان الموتى يتساقطون بالمئات يوميا وهذا فضلا عن قلة الأقوات وانعدام المياه الصالحة للشرب وفي هذه الظروف القاسية كثف المسلمون هجوماتهم فازدادت حاجة الصليبيين إلى المؤونة (2).

ولم تكن حالة المسلمين أحسن من مثيلتها في المعسكر الإسلامي، الذي لم يسلم هو الآخر من الأوبئة وكثرة المعاناة ونقص في المواد الغذائية نظرا لطول فترة الحصار وبذلك عمّ الملل والقلق (3) المعسكرين الإسلامي والصليبي مع شيء من التفاوت ذلك أن العوامل الجغرافية كانت تعمل لصالح المسلمين على أساس أنهم أهل الديار معتادون على السير والتنقل بسهولة على الرمال، ولهم قدرة أكبر على تحمل درجات الحرارة العالية، وهكذا كانت أحوال المعسكرين الصليبي والإسلامي تستدعي مرحلة جديدة.

كان من الضروري أن يلتقي الجانبان على مائدة المفاوضات نظرا لفداحة الخسائر وكثرة القتلى من جهة واستحالة تحقيق انتصار على المسلمين، وانقاذ ما يمكن انقاذه من جهة ثانية خاصة أن جهود شارل دانجو والجنوية الخاصة بإفشال الحملة وفقا لما تعهدا به مع المماليك والحفصيين قد أصبحت مؤاتية، الأمر الذي سهل من مهمة التفاوض المتفق عليها مسبقا.

1- كان لويس التاسع قد عهد بقيادة الحملة لولده فيليب -phelippe-
انظر : رانسمان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص502

2- عن أحوال المعسكر الصليبي في الأيام الأخيرة للحملة الصليبية انظر :
Brunschvig, R, La berberie orientale, p69

3- ابن خلدون : العبر، مجلد6، قسم5، ص670

يعلق الدكتور حامد زيان غانم على ذلك بقوله : «.. لا غرو أن رجلين - المستنصر بالله الحفصي والملك شارل - بمثل هذه العقلية المتطابقة كان من المنتظر تقاربهما والتقائهما تحقيقا لمصالحهما ..». (1)

ومهما يكن فقد أسرع المستنصر بالله الحفصي إلى إرسال سفارة كلفها بتحديد مقابلة شارل من أجل وضع تراتيب المفاوضات بعد أن توقف القتال بين الجانبين ولم يعارض المستنصر على مطالب شارل بإعطائه المبالغ المالية الخاصة بالجزية السنوية التي كان يدفعها لآل هوهنشتاوفن من قبل، زيادة على غرامة مالية قدرها ابن عبد الظاهر بمائتي ألف وستين أوقية ذهبا (2) غير أن المصادر الأوربية قدرتها بمبلغ مائة وخمس آلاف أوقية من الذهب الخالص (3).

وتشير بعض المصادر الإسلامية إلى أن المستنصر بالله قبل هذه الشروط لأن فصل الشتاء قد اقترب (4).

وسيضطر المقاتلون المسلمون للإنسحاب إلى شؤونهم في قراهم ومدنهم، وراسلت الملكة مرجريت المستنصر بالله تطلب منه أن يعوض لها ما خسرته في مؤونة حركتهم وترجع بقومها، فوافق السلطان الحفصي، لما كان العرب قد اعتزموا علي الإنصراف إلى ديارهم (5)، وهكذا اضطر السلطان الحفصي رلي دفع هذه المبالغ الضخمة(6).

1- د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ص 160

2- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 374، 382.

3- Nangie : l'histoire du Roy phellipe p 479

4- ابن خلدون : العبر، مجلد 6، قسم 5، ص669

5- ابن خلدون : العبر : مجلد6، قسم5، ص 669

ابن أبي دينار : المؤنس، ص 129

6- تقول بعض المصادر أن المستنصر بالله الحفصي قد ورث عن أبيه أبي زكريا يحي الحفصي ثروة طائلة لكنها ضاعت في هذه الحملة التي تلفته كثيرا وقد استنزفته جنوة وشارل دانجو وحلفاؤه في الحملة، ويشير إلى هذا المعنى ابن خلدون حيث قدر ما دفعه الأهالي بعشرة أحمال من الفضة عن طيب خاطر ونفس راضية إضافها إلى ما ورثه المستنصر.

انظر : ابن خلدون : السابق، نفس الصفحة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد حصل شارل دانجو وحده على 3 / 1ثلث الغرامة الإجمالية (1)، أما جنوة فقد حصلتعلى كل المبالغ الخاصة بهم والتي كان سلطان افريقية السابق قد صادرها منهم هذا فضلا عن الإمتيازات التجارية والسياسية التي أكدت الإتفاقيات، وقد مثل الدولة الحفصية في التفاوض وفد كان على رأسه الشيخ محمد ابن عبد القوي، وعلى رأس الجانب الصلبي جوفروي بومون Geoffroi Beaumont-(2) الذي أقسم أمام السلطان الحفصي المحاط بالقضاة والشيوخ علي احترام «ما جاء في الصلح».

وأشير في الأخير إلى أن المعاهدة هذه قد قوبلت بمعارضة قوية عندما عرضها المستنصر بالله الحفصي على مجلس الشيوخ والقضاة لإقرارها، والتصديق على بنودها وكان الشيخ الفقيه ابن عجلان (3) أكبر المعارضين، ويبدو أن المعارضين قد اتصلوا بالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس طالبين منه الحضور إلى تونس لنجدة المسلمين في إفريقية، والدليل على ذلك ما أوردته بعض المصادر بأن بيبرس غضب من المستنصر ولامه عن عدم خروجه بنفسه لقتال الصليبيين (4) مما فوت عليه فرصة التخلص من الحملة والتفاوض معهم، وبذلك كلف المسلمين أموالا طائلة. ويؤيد هذا الرأي ما أورده كاتم أسرار الظاهر بيبرس، ألا وهو ابن عبد الظاهر إذ أشار إلى أن سفارة حفصية قدمت إلى السلطان المملوكي بيبرس محملة بالهدايا سنة 670هـ/ 1271م، حيث شكرت السلطان على ما قدمه من مساعدات وحملت إليه هدايا كان من بينها ستة عشرة حصانا، فرقها السلطان على الأمراء وما أخذ منها شيئا وكتب بيبرس إلى السلطان الحفصي يقول له: «مثلك لا يصلح لأمور المسلمين» (5) .

1- Brumschvig: la berbérie orientale pp 67

2- Nangie, Histoire du roy phelippe, p472

3- هو أحمد بن عثمان عجلان القيسي (ت675هـ/1276م) إمام من أئمة المسلمين استوطن بجاية عرض عليه المستنصر قضاء تونس فرفض كما رفض الموافقة على الصلح وعندما طالبوه بالأدلة قال: «هو جائز إن كان صلاحا وسدادا في حق المسلمين». ثم قال «ولا علم لي بالحال».

انظر الغبريني : عنوان الدراية، ص 116، 117

4- المقريزي : السلوك، ج1، ص510

5- انظر ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص 397

وجدير بالإشارة إلى أن ابن خلدون قد أشار إلى عدم خروج المستنصر بالله لمقاتلة الصليبيين وذلك لأنة إطمأن بكثرة المسلمين حيث خرج الصلحاء والفقهاء، والمرابطون .. لمباشرة الجهاد انظر : ابن خلدون : العبر، مجلد 6، القسم5 ، ص680

على هذا الشكل وصلت الحملة الصليبية إلى نهايتها وفق الأهداف التي رسمها المسلمون بالتنسيق مع جمهورية جنوة الإيطالية وشارل دانجو ملك صقلية.

بعد انتهاء مراسيم المفاوضات بين الطرفين وتدليل الصعاب الناتجة عن إبرام المعاهدة، غادرت الحملة الصليبية سواحل تونس في ربيع آخر 669 هـ/ نوفمبر 1270(1) تاركة وراءها خيبة كبيرة في أوساط الأوربيين، إضافة إلى ما خسرت أثناء المعركة فقد غرقت لها ثمان وعشرين سفينة أثناء عودتها بالقرب من صقلية (2) مما زاد في أعباء الحملة وثقل الخسارة التي اعتبرها المؤرخون كارثة، وما أن وصل الصليبيون إلى باريس عاصمة فرنسا زعيمة الحروب الصليبية حتى قبر الملك لويس التاسع ومعه انتهت أطماع الصليبيين في خيرات الأرض المقدسة.

طويت فكرة الحركة الصليبية (3) مما أدى في الجهة المقابلة إلى يقظة المسلمين وارتفاع معنوياتهم وظهرت من جديد الروح الإسلامية، وإيمان المسلمين بالوحدة والمصير المشترك للمسلمين أينما كانوا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المقريزي : السلوك، ج1،ص590

ابن خلدون : العبر، مجلد 6، القسم5، ص681

2- رانسمان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص420

3- بعد نجاح المسلمين في تصفية الكيان الصليبي في الأراضي الإسلامية المقدسة سنة 690هـ/1291م ظهرت أصوات أخرى تطالب بضرب مصر والإطاحة بدولة المماليك وكان على رأس أصحاب هذه الدعوة كل من ريموند لول(Raymond lulle) وبنديتو زكريا (Bendito zaccaria) وقد نجحت دعوتهما : حيث قام صليبيو أوربا بحملات ضد المسلمين في الشرق والغرب جسدها بطرس لوزيان ملك قبرص على الإسكندرية عام 1365 م/ 767هـ وصليبية المهدية : إفريقيا عام 792هـ/ 1390م وانتهت بالفشل أيضا.

تقييم الحملة :

أجمع المؤرخون وخاصة المهتمون بتاريخ الحركة الصليبية على أن الحملة التاسعة التي وجهت نحو تونس قد فشلت، لأنها لم تحقق ما كانت تطمح إليه وتركت آثارا سلبية على الصليبيين في حين كانت بردا وسلاما على المسلمين وحققوا من خلال تصديهم وإفشال الحملة جملة من فوائد ظهرت على طول امتداد المراحل التي أعقبت الحملة ويمكننا أن نجمل النتائج فيمايلي:

أ- على مستوى الدول الأوربية:

أصيب الصليبيون بالفشل والخذلان في حملتهم الصليبية على تونس ولم يحققوا أهدافهم المرجوة سواء باحتلال تونس ونشر المسيحية بين أهلها ثم الإنطلاق نحو بلاد مصر للقيام بنفس العمل أو إدخال المستنصر بالله الحفصي سلطان إفريقية في الديانة الكاثوليكية . الأمر الذي كان له إنعكاس خطير على العلاقات بين الدول الأوربية، حيث انخفضت الروح المعنوية لقوادهم العسكريين أو السياسيين، والأكثر من هذا انقطاع الصلة بين الصليبيين في أوربا وبني جلدتهم في الشام، حيث بقي هؤلاء يصارعون الموت لوحدهم، أمام هجمات السلطان الظاهر بيبرس، وقد سار على نهجه السلطان المنصور قلاوون الألفي (678هـ/689هـ-1279 م1290) في حرب الصليبيين دون هوادة وجدير بالإشارة إلى أن الأراضي الشامية تكاد تكون قد طُهرت من الصليبيين، الذين تجمعوا في إمارة عكا الصليبية.

فكانت مربط الفرس كما يقال، ونقطة الإتصال ومحور الحركة الصليبية في الشام ولاسيما أنها كانت من الموانىء الهامة في تصدير واستيراد السلع الشرقية والغربية (2).

1- قلاوون الألفي : هو أول ملوك عائلة قلاوون بمصر وهو من المماليك قبجاقي الأصل أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 1249/647م، أخلص الخدمة للسلطان الظاهر بيبرس ومن آثاره البيمارستان (المستشفى) الذي يعرف باسمه يقع بين القصرين.

انظر : الزركشي : الأعلام، مجلد5، ط7، لبنان 1986ص202

2- د/ عبد الله ابراهيم محمد راجع : علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر بيبرس - رسالة ماجستير - الأزهر 1983/1403م ص140

ولذلك كان سلاطين دولة المماليك حريصين على تصفية الوجود الصليبي نهائيا من الشام وقد استعد السلطان الأشرف خليل سنة 691هـ/ 1291م (1) لإزالة هذا الجسم الغريب من كيان المجتمع المسلم، فكان بسقوط عكا اتمام الفتوح.

عادت كل الثغور والقلاع الشامية إلى أصحابها، والحقيقة أن سقوط عكّا كان له دويا عميقا لدى المسيحية الغربية، وأعقبته دهشة كبيرة. جاءت على إثرها جملة من الإتهامات الأوربية موجهة إلى بعض المدن الإيطالية مثل جنوة والبندقية، وبيزة، وحتى صقليتين (2). لأن هذه المدن احتفظت بعلاقاتها التجارية مع كل من مصر وتونس (3) وهكذا لم يبق للصليبيين أي وجود في كافة بلاد مصر والشام سوى إمارة صغيرة وهي إمارة أرمينية وهي يومئذ بعيدة عن ميدان الصراع الحضاري (4) والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك كانوا يتبعون سياسة المراحل والتعامل مع كل إمارة على حدى.

فقد كانت علاقتهم مع إمارة عكّا سابقا طيبة، وأمضى السلطان قلاوون الألفي مع أميرها سنة 680هـ/1281م معاهدة تجارية نصت على أن يكون التجار والمسافرين في البر والبحر والسهل والوعر والجبل في الليل والنهار آمنين على أموالهم وأرواحهم (5) ونفس التعامل كان مع القسطنطينية حيث أبرمت اتفاقية في نفس السنة وكان مضمونها حرية التجارة وتوفير الأمن للتجار من الطرفين (6) .

1- د/ عبد الله ابراهيم محمد راجح : علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس ص142

2- أطلق المؤرخون المحدثون على صقلية ونابولي مملكة الصقليتين أوصقلية وتسكانيا

انظر ذلك :د/ جمال سرور : الظاهر بيبرس، ص 118

انظر ذلك : د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ص153

3-انظر ذلك في صفحة : من هذا الفصل.

4/ د/ حامد زيان غانم: السابق، ص156

5- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص 34-42

6- ابن عبد الظاهر: السابق ، ص204، 209

وأيضا : القلقشندي: صناعة الإنشاء 14، ص73-74

ب- على مستوى المدن الإيطالية :

لقد نشطت تجارة المدن الإيطالية مع دولة المماليك في مصر والشام حيث كانت علاقة البندقية جد طيبة مع مصر، فقد توقفت مصلحتها على التجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تجتاز الطريق الجنوبي إلى الخليج العربي أو البحر الأحمر (1) هذا في الوقت الذي كانت فيه مصالح جنوة ونفوذها تزداد وتتوسع عبر الطريق التي تجتاز آسيا الوسطى إلى البحر الأسود وقد اتبع السلطان الظاهر بيبرس سياسة حكيمة مع تجار البنادقة والجنوية إذ أنه كان يثير الحماس والمنافسة بينهما لمن يدفع أكثر يأخذ امتيازات أكثر في الموانىء المصرية والشامية (2) وعن طريق البندقية كان يجس نبض أوربا وما يدور بين ملوكها لدرجة أن البعض يتهم البندقية بأنها وبكل صراحة حليفة المسلمين (3)، كما أن جنوة كانت واستمرت تزود مصر بالرقيق وبعض المواد التي تحتاجها مثل الأسلحة والخشب والحديد (4) وأن رسل جنوة لم تنقطع إلى مصر فقد وصلت سفارة عام 674هـ/1275م وكانت تمد السلطان قلاوون بالمواد الحربية سرا (6) وفي عام 684هـ/ 1285م وصلت هدية من جنوة إلى السلطان قلاوون الذي صرح بأن أرواح وأموال تجار المدن الإيطالية هي تحت رعايته السامية وأنه لن يأخذ من أموالهم وعائداتهم غير المقرر المتفق عليه (7) ومما تجدر ملاحظته أن بلاد المغرب عامة وبلاد تونس كانت تستقبل العديد من التجار والسواح الوافدين من المدن الإيطالية فقد كانت لكل جمهورية من الجمهوريات أكثر من قنصلية، فجمهورية بيزة كانت لها قنصلية دائمة في تونس وبجاية.

1-د/ حامد زيان غانم : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ص162

2- د/ أحمد زكي : صفحة من تاريخ التجارة المصرية، القاهرة 1917ص140

3- د/ أحمد زكي : السابق، ص140

4- النويري : نهاية الأرب، ج28، ص48

Heyed: W: Histoire du commerce de levaut au moyen age Vol 2 lepzig 1923 , page 427

وأيضا المقريزي : السلوك، ج1، ص495

5- النويري : السابق، ص 50

6- د/ حامد زيان غانم / العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ص155

7- د/ حامد زيان غانم : السابق، ص 160

8- معاهدات بيزة بند 1234مادة 10

Mas latrie, traites de paix et de commerce paris 1866,p33

أما جنوة فكان لها قنصل يرعى مصالح بلاده في مدينة بجاية ثاني مدن الدولة الحفصية ولها أخرى في مدينة سبتة المغربية (1) أما جمهورية البندقية فكان لها قنصل عام في مدينة طرابلس التابعة للدولة الحفصية آنذاك وأخرى في مدينة تونس(2) وزيادة على ذلك فإن قناصل الجمهوريات الإيطالية لهم صلاحيات واسعة في تعيين نواب لهم والتدخل لفض الخلافات التي تنجم عن النشاط التجاري سواء بين الرعايا الإيطاليين أو بين المسلمين ورعاياهم (3) هذا ونفس التقارب قد حصل بين المسلمين والملك شارل د انجو ملك صقلية، فقد تجددت العلاقات بين صقلية وملك أرجون من جهة وبين المنصور قلاوون من جهة ثانية وذلك عام 689هـ/1290 م(4) حيث نصت المعاهدة على ضمان الأمن والسلامة لتجار السلطان قلاوون ومراكبه البحرية وأن يقف هؤلاء مع سلطان مصر ضد أي عدوان مسيحي مهما كان مصدره والسماح للتجار الأوربيين بجلب ما يلزم السلطان من المواد التي يحتاجها مثل الحديد والفحم والخشب وتقدم لهم التسهيلات الكافية حيث منحوا حرية اختيار الميناء ولا يرغمهم أحد على تفريغ سفنهم في مكان يرون عدم فائدته ولهم الحرية في البيع والشراء ولهم الحرية في البقاء أو الرحيل عن البلاد متى شاؤوا (5).

ج- أثرها على المجتمع الإسلامي:

لا شك أن حملة لويس التاسع الصليبية على تونس، تعتبر منعطفا هاما في تاريخ الحروب الصليبية، ذلك لأنها الأولى من نوعها كانت موجهة نحو أراضي تبعد الآلاف الكيلومترات عن الأراضي المقدسة، ولأنها كانت من أهم العوامل التي مهدت السبيل أمام المسلمين لتصفية الوجود الصليبي من الأراضي الإسلامية على يد الأشرف خليل بن قلاوون الألفي بتحرير عكّا آخر معاقل الصليبيين في الشام عام 690هـ / 1291م كما كانت هذه الحملة فرصة طيبة لتلاحم مسلمي المغرب والمشرق في مواجهة الخطر الصليبي المشترك من جهة ومن جهة أخرى العمل السياسي المنسق والمركز بين المسلمين من أجل تفكيك الوحدة الصليبية وإضعاف قوتها.

1- Mas latrie, traites de paix et de commerce ,page41-1

2- Mas-latrie, op, cite, page42

3- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص156-162

د/ عبد اللطيف ومحمد الصغير : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوية، ص117

4- د/ عبد اللطيف محمد الصغير : السابق، ص 120

5- ابن عبد الظاهر : السابق، ص163

كما تبين بوضوح انهيار الحركة الصليبية وتقلصها عقب موت القديس لويس التاسع وفشل الحملة مما أدى بالضرورة إلى يقظة المسلمين وظهور روح الجهاد في نفوس المسلمين شرقا وغربا، فكانت النتيجة إنهاء الكيان الصليبي في الشام وفشل المحاولتين اللاحقتين بعد ذلك محاولة بطرس لاوزينان ملك قبرص عام 767هـ/1365م، ومحاولة المهدية بتونس بقيادة لويس البوربوني 792هـ/1390م وفي الأخير انتهت الحركة الصليبية تماما على إثر هزيمة القوى الصليبية في موقعة نيقو بوليس عام798هـ/1396م على يد القائد العثماني با يزيد الثاني (791هـ/804هـ-1389/1402م) وأصبحت فكرة الحركة الصليبية مجرد حلم، تلك الفكرة التي هلل لها صليبيو العصور الوسطى وظلوا يخططون لتنفيذها على إمتداد ثلاثة قرون إبتداءا من القرن الثاني عشر وهي الفترة التي التحم فيها المسلمون في الشرق والغرب ضد صليبي أوربا في صراع مرير، لازلنا نعاني من آثاره حتى اليوم وكان همهم بسط النفوذ على العالم الإسلامي ونشر المسيحية بعد إخراج المسلمين من عقيدتهم قهرا وبحد السيف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني

العلاقات الثقافية و الإقتصـــادية بـين الدولتـين

من648هـ/1250م-694هـ-1296م

1- المؤسسات التعليمية

2 - نظام التعليم

3- الحياة العلمية في الدولتين

4 - دور المدن الإيطالية في تطوير التجارة بين الدولتين

5- نظام التجارة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

العلاقات الثقافية بين الدولتين من خلال

أ- المؤسسات التعليمية

-الكتاتيب والمساجد

-الربط والزوايا

- الخانقاه والمدارس

ب- نظم تعليم

-خصائص نظام التعليم منهج التدريس في الجوامع والمدارس

- مكانة الأستاذ

- رواتب المدرسين

- شهادات التخرج-الإجازة-

- الرحلة العلمية

جـ- الحياة العلمية في الدولتين

- علوم اللغة والدين

-التاريخ والجغرافية

- التصوف

- العلوم العقلية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- التعليم في الكتاتيب :

حرص المسلمون على تعليم أبنائهم منذ وقت مبكر من الدعوة المحمدية، ولهذا كان تعليم الأطفال يبدأ حين اقتدارهم على الكلام، حيث يعلمون النطق بالشهادتين، ويحفظون بعض السور القصيرة من القرآن الكريم(1)، حتى إذا بلغوا السادسة من العمر ألحقوا بمدرسة أولية تابعة عادة لأحد المساجد وعرفت هذه المدرسة بالكتاب ولقد كانت الكتاتيب تعد موطنا للدراسة الدينية الأولية، الغرض من التعليم فيها هو تحفيظ أطفاله القرآن الكريم، وليست القراءة والكتابة إلا وسيلتين تساعدان على حفظه (2)، ويكون التعليم في الكتاتيب عادة بالمجان، ويعطى المعلم أجره من الوقف الخاص بالكتاب أو من التبرعات التي يجود بها أهل البر والإحسان (3)، وقد اهتم المسلمون بهذه المرحلة من التعليم على أساس أنها أنسب فترة لإدخال الفرد في المجتمع بحيث يصبح نافعا له (4)، وهذا هو غرض التربية الإسلامية التي تهدف إلى تكوين الطالب دينيا ودنويا وفقا لقوله تعالى: « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا » (5) وفي هذا المعنى يقول الغزالي أبو حامد: « .. أن يعلم في الكتاب القرآن، وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار لينغرس في قلبه حب الصالحين... » (6)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة 1980، ص44

2- د/ أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي، القاهرة 1938؛ص13

3- محمد كرد علي: السابق، نفس الصفحة.

4- د/مصطفى أمين: تاريخ التربية -ط2، القاهرة 1344هـ/1926م ،ص168

5- الآية رقم

6- الشيخ العالم أبو حامد الغزالي: الأحياء، ج3، قسم رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ،ص146

مناهج التعليم في الكتاتيب :

لقد جعل المسلمون القرآن أصلا في التعليم وأساسا في التربية، والمسلمون وإن اتفقوا على ذلك فهم مختلفون في طريقة التعليم ومواده في المراحل الأولى من التعليم.

فأهل إفريقية والمغرب يقتصرون في تعليم أبنائهم على مدارسة القرآن وأخذهم برسمه وقراءته المختلفة، لا يخلطون ذلك بسواه من حديث أو فقه أو شعر أو أخبار إلى أن يحدقه الصبي ويجاوز حد الرشد وكذلك يسيرون على هذا المنهج مع الكبير الذي يراجع مدارسة القرآن بعد مرور وقت من عمره.

ومن هنا كانت إفريقية والمغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم (1)أما أهل المشرق فكانوا يخلطون في التعليم كأهل الأندلس إلا أنهم يختلفون عنهم من جهتين أولاهما أن عنايتهم بمدارسة القرآن كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى ، وثانيتهما أن الخط لم يكن من الفنون التي يخلط تعليمها بتعليم القرآن (2) وإنما كانت له مدارس ومعلمون على انفراد كسائر المواد الأخرى.ولذلك لم تبلغ خطوط الولدان في الكتاتيب المصرية حد الإجادة، ومن أراد منهم أن يحسن ويجود خطه، انتقل إلى أهل الإختصاص (3)

1- ابن خلدون: المقدمة ، بيروت 1983، ص506

2- كان أهل الأندلس يعلمون القرآن ولكنهم لا يقتصرون عليه في تعليم الولدان، بل يخلطون به رواية الشعر والترسل، وقوانين العربية ورواية الأخبار والكتابة وتجويد الخط

انظر: د/ مصطفى أمين : تاريخ التربية ،ط2القاهرة ،1926/1344;ص170

3- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التربية في عصر محمد علي، القاهرة 1938 ص25

أ. عثمان الكعاك: الحضارة العربية، ألمانيا 1965،ص11

أشير في الأخير إلى أن بعض الأئمة اتبعوا مناهج دراسية ذاتية ولم يتقيدوا فيها بجعل القرآن أساسا ومن هؤلاء القاضي أبو بكر العربي الذي يرى أن يبتدئ الدراسة بتعليم الشعر وعلوم اللغة والإنتقال من ذلك إلى تعليم الحساب حتى إذا اتقن الوليد ذلك انتقل إلى دراسة القرآن ومما يؤثر عنه في ذلك قوله: « .. من غفلة أهل بلادنا أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أولى بالتقديم منه..»(1) وقد وافقه على هذا المذهب العلامة ابن خلدون فإنه بعد أن نقل رأيه في المقدمة علق عليه بقوله : ..وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العادات لا تساعد عليه..»(2)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله : آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، تحقيق د/ عمار طالبي ،الجزائر ، 1974ص12

2- ابن خلدون: المقدمة، بيروت 1983،ص507

التعليم في المسجد:

اتخذت المساجد في جميع أنحاء العالم الإسلامي دورا للتعليم منذ وقت بعيد يعود إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا تزال المساجد تؤدي دورها التعليمي إلى أيامنا هذه وأن الصلة بين دور المسجد التعبدي والسياسي والإجتماعي هي صلة قوية لم تنقطع، وإن كانت قد مرت بعدة مراحل مختلفة من الضعف والقوة .

فقد كان المسجد مكانا للعبادة وأيضا مركزا لإدارة الحياة السياسية والإجتماعية (1) وفي هذا المجال يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «..وفي المسجد يجتمع المسلمون لأمر دينهم ودنياهم..» (2) ورغم ظهور استقلال المنشآت السياسية والقضائية والتعليمية عن المسجد فقد استمر في أداء دوره التعليمي وتخرج منه الكثير من العلماء في مختلف فنون العلوم النقلية منها والعقلية ولم يستثنى دور المسجد التعليمي في عهد الدولتين الحفصية والمملوكية من هذا الإتجاه.

فعلى مستوى الدولة الحفصية نرى السلطان أبي زكريا يحي مؤسس الدولة قد بادر منذ البداية إلى تشييد مسجد خارج مدينة تونس، ناحية الجنوب الغربي وهو جامع السلطان (3)

1- د/ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ،ج4، ص336

2- الشيخ أحمد بن تيمية: مجموع فتاوي شيخ الإسلام بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم - المغرب، ب ت، ج35 ص39

انظر أيضا: ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ،ج 1 ،دار الجيل طبعة عبد الرؤوف سعد ،بيروت صص36-38

3- وهذا الجامع هو الذي أشار إليه ابن بطوطة في رحلته :

ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت 1388هـ /1968م ص13

-ابن الشماع: الأدلة البينة ص14

- الزركشي: تاريخ الدولتين ص9

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبعد انتهاء الأشغال منه ، شرع في تعمير قصبة تونس وأقام في طرفها مسجدا خاصا بالموحدين، وبنى مئذنته على النمط الموحدي الخالص . والتاريخ المنقوش على المئذنة هو رمضان 630هـ (1)، وفي عهد خليفته أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي جلب الماء إلى المسجد الجامع وتوالى الحكام ورجال الفضل في تشييد المساجد في تونس وبجاية وغيرهما من المدن الكبيرة في الدولة الحفصية (2) وفي كل مسجد كانت تعقد حلقات العلم المختلفة منها ما يدور حول العلوم النقلية ومنها ما يدور حول العلوم العقلية أما في بلاد مصر أيام دولة المماليك فلا يكاد الأمر يختلف، فقد شجعت هذه الدولة الفتية التعليم في المساجد وقد إرتأيت ذكر ثلاثة مساجد تعتبر مشهورة إبان عهد المماليك وهذه المساجد هي:

1-جامع عمرو

وهو أول مسجد أسس بديار مصر بعد الفتح الإسلامي لمدينة الفسطاط (3) وأول من وسع وجدد هذا الجامع هو الصحابي الفاتح مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 53هـ (4) وكان يومئذ أمير مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان، ولم يتوقف هذا المسجد عن دوره التعليمي أيام المماليك، بل زاد اهتمام العلماء والسلاطين بهذا الجامع (5)

1- وارد هوداس: مهمة علمية في تونس، الجزائر 1882صص5-9

MISSION SCIENTIFIQUE EN TUNISIE,ALGER 1882PP5-9

2- من الأمثلة على ذلك جامع التوفيق أو جامع الهوى الذي بناه السلطان

انظر: الزركشي: تاريخ الدولتين ،ص150

3- المقريزي: الخطط ،ج4؛ص4

4- المقريزي: السابق ،ص 5

5- شكا قاضي القضاة تقي الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز للملك المنصور قلاوون سوء حال جامع عمرو، والأزهر الشريف وتقرر عمارتهما وتجديدهما سنة 702هـ/1305م

علي مبارك: الخطط التوفيقية لمصر القاهرة، ج6، القاهرة بدون تاريخ الطبع ص52

-ابن بطوطة: رحلته ،ص33

وظلت الدراسة بجامع عمرو مستمرة جنبا إلى جنب مع الدراسة بالأزهر وفي هذا المجال يقول المؤرخ علي باشا مبارك: «.. والعزيز هو أول من أقام الدرس بمعلوم، ثم في مدته عمل الوزير يعقوب بن كلس مجلسا في داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهب الفاطمية، وعمل أيضا مجلسا بجامع عمرو لقراءة هذا الكتاب وكان يسمى كتاب العزيز...»(1)وقد درس به قاضي القضاة البهنسي بأمر من الوزير مجد الدين المتوفي سنة 628 هـ/1230م وهكذا استمر التدريس فيه إلى القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي (2)

2 جامع الأزهر:

بدأ التعليم بالجامع الأزهر بعد التأسيس سنة 378هـ واستمر إلى أيامنا هذه في أداء دوره التعليمي إلى جانب دوره التعبدي (3) وكان منذ البداية هدف الراغبين في طلب العلم، وفي ذلك يقول المقريزي : «يوجد في هذا الجامع عدد من الفقراء يلازمون الإقامة فيه وهم من العجم، وريف مصر والمغرب ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والإشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والإرتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره...»(4) وصار أهل المال يقصدون هذا الجامع بأنواع البُر والذهب والفضة (5)

1- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ، ج1ص11

والقاضي البهنسي هو عبد الوهاب بن الحسن المصري البهنسي الشافعي ولي القضاء في مصر والقاهرة سنة 686 هـ/1287م واستمر في الحكم، أخذ عن ابن عبد السلام ودرّس بالجامع العتيق بمصر انظر:

ابن العماد: شذرات الذهب ،ج5 ص396

2- علي باشا مبارك: السابق ص12

3- علي باشا مبارك: السابق ص12، 13

4- المقريزي: الخطط ،ج4،ص49، 52، 53

5- المقريزي: السابق، 54

وفي سنة703هـ/1305م أصلحه الأمير بيبرس الجاشنكير ورتب فيه دورسا أربعة في الفقه على المذاهب الأربعة، ودورسا لإقراء الحديث النبوي كما جعل فيه قراء لتعليم القرآن الكريم وقراء يتناوبون قراءة القرآن (1).

وكذلك كانت تعقد حلقات العلم المختلفة في مسجد ابن طولون الذي بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون سنة663هـ/1265م وأتمه سنة 665 هـ/1267م، والصفة المشتركة بين التعليم في مساجد الدولة الحفصية ومساجد دولة المماليك، هي أن الطلبة في المادة الواحدة يلتفون حول المدرس ويقرأون كتابا واحدا يشرف على عملية القراءة والشرح والمناقشة شيخ المادة المدرسة، حيث تشرح العبارة لغويا، ثم تعرب وتستخرج ما فيها من قواعد النحو والصرف وغير ذلك.(2)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المقريزي: الخطط ، ج4، ص57

علي باشا مبارك: الخطط، ج6، ص56

2- شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،ج5، ط1، القاهرة سنة 1949ص60-61أنظر أيضا:

عبد الله بن أحمد القادري : دور المسجد في التربية، جدة 1945ص14

وابراهيم بن محمد البيهقي: المحاسن والمساوئ - بيروت 1979ص499

الزوايا:

لم تكن مؤسسة الزاوية حديثة النشأة في عهد الدولتين الحفصية والمملوكية بل كان وجودها امتدادا لما سبقها من العهود وقد أطلق اسم الزاوية على المسجد الصغير أو على المصلى عند المسلمين في الشرق (1) غير أن الإسم ظل مستعملا في شمال افريقيا بمعنى أكثر شمولا إذ هو يطلق على بناء ذو صبغة دينية عادة ما يكون به ضريح لأحد الأولياء الأشراف، وبجواره توجد غرفة مخصصة لتلاوة القرآن، وأخرى مقتصرة على أداء الصلاة بها محراب ثم نجد جناحا للتعليم تقابله غرفة أو أكثر للضيوف والزائرين من الحجاج والمسافرين والطلبة (2)

ويعتزل فيها الولي الصالح ليعيش وسط تلامذته ومريديه، يلقنهم، العلم والزهد في الدنيا وقد تطور التعليم في الزوايا حينما تدخل أهل التصوف وأخذوا يقربونه إلى أدهان الطلبة، فأصبحت الزاوية بعد ذلك تستهوي قلوب الناس فازداد الإقبال على التعلم بها والتقيد بتعاليم شيخ الزاوية واجب لا يحق لأحد أن يتجاوزه وفي أغلب الزوايا كان الإطار العام للدروس التي تلقى على الطلبة لا يخرج عن التركيز على تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة المطهرة في الأقوال والأفعال، والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء (3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المقريزي: الخطط، ج1;ط1، القاهرة 1971ص110

2- ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، تحقيق ليفي بروفنسل ،ج5، ألمانيا 1925ص14

ابن شنب: طبقات علماء افريقيا، الجزائر 1920ص111

3- المقريزي: الخطط ،ج2، ط2، القاهرة 1971ص114

وقد شهد القرن السابع الهجري - الثالث عشر ميلادي -انتشارا واسعا للزوايا في كل من مصر وبلاد إفريقية. ولعل السبب يعود إلى تطور التعليم بها من جهة وإلى الدور الإجتماعي الذي كانت تقوم به من جهة ثانية، وخاصة في دول المغرب وهذا ما يفسر قول ابن مرزوق في كلامه عن الزوايا : « .. من الواضح أن الزوايا عندنا في المغرب تأوي المتجولين وتطعم المسافرين..»(1) فواضح أن الزاوية كانت دار ضيافة مجانية يقصدها الرحالة الذين يبحثون عن الكمال الروحي، ومن الأمور التي أضيفت إلى الزوايا توسع دائرة المواد التي تدرس فيها فقد يشمل المقرر عدة مواد منها علوم القرآن، والحديث، والفقه، والبعض منها يضيف مادة اللغة العربية بنحوها وصرفها (2) وتبعا لذلك فقد أصبحت الزاوية تضم شيوخا مشهورين بتقواهم وعلمهم (3)وكان التعليم في الزوايا متميزا عن غيره في منشآت تعليمية أخرى، بميزة الشيخ وطريقته في التربية والتعليم (4).

1- ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن، ص334

وأما في مصر فيقول عنها المقريزي: « ..إن الزوايا كان لها عصبية طائفية، وكان المريد الذي ينتقل من شيخ إلى شيخ يتهم بأنه أراد الدنيا » الخطط ج4ص294

2- كمثال على ذلك نجد زاوية الدمياطي التي أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطي - حكم إمارة حلب في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس-وتدرس فيها مادة اللغة العربية كما اشترط مؤسس الزاوية، راجع: المقريزي: الخطط ،ج2 ط2، القاهرة، ص110

3- إن لقب الشيخ هذا هو لقب تشريف وليس لقبا رسميا ، لا يطلق إلا على الفقهاء وخاصة الذين أكسبتهم فتواهم شهرة أو اعترافا من جمهور الفقهاء، وكان ذلك على وجه خاص في أوائل العهد المملوكي وقد أصبح في نهاية القرن السابع الهجري -الثالث عشرالميلادي - لقبا يستطيع أي عالم له بعض النفوذ أن يتلقب به.أنظر : عبد القادر النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس ،تحقيق جعفر الحسيني ،دمشق 1367هـ/1948 ص190.

4- كانت الزوايا تشترك في حث المريدين على الزهد في الدنيا والإقبال على الله، والإكثار من الأوراد والإذكار والإعتماد على الإملاء والرواية في تقديم الدروس: انظر: عبد القادر النعيمي الدمشقي: السابق ص200

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرباط:

الرباط مؤسسة إسلامية محصنة، والرباط في الأصل هو المكان الذي يلتقي فيه الفرسان متأهبين لملاقاة العدو ومنعه من غزو ديارهم، على أن هذه الكلمة أطلقت منذ وقت متقدم على منشأة دينية وحربية، وقد اختص المسلمون بها دون غيرهم (1)، وهي تشبه القلاع والحصون عند أهل الغرب في أنها مكان يحتمي به سكان البلاد المجاورة له أثناء هجوم العدو .

لقد إستكثر المسلمون من تشييد هذه المنشآت مدفوعين بغيرتهم على الدين وخاصة بإفريقية على طول السواحل البحرية، وفي الجهات التي يتوقع ظهور العدو منها وقد بلغ عدد الرباطات على طول الساحل الممتد من طنجة بالمغرب الأقصى إلى سواحل الإسكندرية ألف رباط يبعد الواحد عن الآخر بحوالي ستة كيلومترات (2) وزاد في عدد الرباطات الإعتقاد بأنه إذا أقام شخص رباطاعلى نفقته أو وسّع وحصّن رباطا، كان ذلك عملا من أعمال البر والتقوى، وكذلك كان من الثواب أن يحضّ المرء الناس على الإنخراط في صفوف المرابطين للجهاد في سبيل الله (3).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الرباط والمرابطة تعني ملازمة ثغر العدو وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطا ، وهو المجاهدة في سبيل الله. انظر :

لسان العرب مادةو الربط ».

المقريزي: الخطط ،ج2، ط1بولاق، القاهرة 1271هـ/ ص427

2- المقري: نفح الطيب ،ج6، ص120

أ. عثمان الكعاك: الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض - ألمانيا 1965;ص61

3- أ. عثمان الكعاك: السابق ،ص62

قصد دعم دوره العسكري لكن المسلمين استبدلوا به حياة قوامها الزهد والتقشف وترديد الإبتهالات التي كانت سائدة في الرباطات القديمة، وقد كان تطور التصوف وتشعب رواده إلى فرق منذ القرن السادس الهجري - الثاني عشر ميلادي -قد أعطى مفهوما جديدا للرباط (1)واندمج في مفهوم الخانقاه المأثورة عن الفرس (2)وفي هذا المعنى يشير الرحالة المغربي ابن جبير في رحلته إلى خانقاه أنشأها الصوفية في رأس العين الواقعة في شمال صحراء الشام وكانت تعرف باسم الرباط (3)، وقد بلغت موجة التصوف الشرقي إلى بلاد إفريقية والمغرب عامة في بداية القرن الثاني عشر واحتفظ سكانه بكلمة رباط، وأصبح معناها الإنقطاع لعبادة الله (4)، وبإمكاننا ربط هذا الإستعمال الخاطئ للكلمة العربية الأصلية بالتحول والتغير المماثل الذي طرأ على كلمة مرابط، فهي تطلق على ولي من الأولياء(5) إكتسب احترام من يلوذون به، ويحترمونه بفضل خلاله الحميدة، ويرجون كراماته.

وبناءا على ما سبق ساهم الكثير من السلاطين والأمراء في تشييد الرباطات زيادة على ما أسست الدولتان، فرباط المنستير هو أول رباط أنشأ في إفريقيا، حيث شيده الوالي العباسي هرثمة بن أعين سنة 179 هـ/795م(6).

1- كان الشيخ الجنيد أحد أكابر صوفية المشرق قد ساهم في نقل ونشر الطرق الصوفية في بلاد افريقية، والتقى بالشيخ المغربي تقي الدين الشاذلي (593-656هـ) والذي تأثر به وأخذ ينشر تعاليم الصوفية في تونس. انظر :

علي باشا مبارك : الخطط الجديدة ،ج7، القاهرة 1820ص69

2- علي باشا مبارك: الخطط، ج6ص106

3- علي باشا مبارك: السابق نفس الجزء والصفحة.

4- كمثال على ذلك نجد رباط العباد وهو مجموع المنشآت الخيرية التي أقيمت بالقرب من تلمسان حول ضريح الصوفي المغربي الشهير سيدي بو مدين.انظر :

ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن، تحقيق ليفي بروفنسال.ألمانيا، سنة 1925 ص10

5- ابن شنب: طبقات علماء افريقيا ،ص130

6- ابن شنب: السابق ،ص110

ثم توالى الناس في إقامة الرباطات فكان رباط الفتح بتونس حاضرة الحفصيين، ورباط سوسة، ورباط البحر (1) بمدينة قابس القريبة من تونس،وغيرهم كثير.

أشير إلى أن الرباط كان محاطا بسور مربع الشكل تتداخل به الأبراج المستديرة من جميع أركانه وينفتح مدخله الوحيد من منفذ قائم في منتصف السور، وينتهي بسلم يهبط درجه إلى الداخل حيث الساحة المركزية تحيط بها أروقة مسقوفة وصوامع، وبأحد حوائطه مكوى للمدافع (2)وبآخر الرباط توجد قاعة للصلاة، ويتضح من خلال الشكل الهندسي للرباط وما به من مرافق أنه كان يقوم بدورين هامين أحدهما حربي والآخر ديني (3)، غير أننا إذا صادفنا صفة الجهاد هي السائدة على رباطات افريقية في بداية القرن السادس هجري - الثاني عشر ميلادي - فله ما يبرره إذا كانت بلاد المغرب كافة تخوض حربا صليبية شرسة، وبالمقابل نجد صفة هذه الرباطات قد تغيرت في المشرق، حيث فتر رواده عن التدريب .

وتوسع رواد الرباطات بعد ذلك في ميدان التعليم ومساعدة الفقراء والمحتاجين وابن السبيل، ففي كثير من الأحيان نجد العلماء يتخذونه مكانا للمطالعة والتأليف (4) إلى جانب الدور التعليمي والإجتماعي وساعد على انتشار الرباطات واستمرار دورها التعليمي والإجتماعي سخاء الحكام وأهل الفضل من المجتمع الإسلامي حيث أوقفوا عليها الضيعات، والأسواق، والمكتبات وغير ذلك.

1- الزركشي: تاريخ الدولتين ص42

2- ابن شنب: طبقات علماء إفريقيا ، ص115

3- الرباط الذي شيده الشيخ عبد الله بن ياسين الذي أسس رباطه في الحوض الأدني لنهر السينيغال ويقع بالقرب من مملكة غانا وبدأت المرابطة فيه عام 433هـ داخل جزيرة من جزائر السنغال الأدنى، كان هو المنشأة التي خرج منها بربر قبائل لمتونة للجهاد، ومن ثم عرفوا بالمرابطين وهو الإسم الذي اشتهروا به في التاريخ. انظر : داذرة المعارف الإسلامية مادة سينيغال - دوزي- ص28 وابن خلدون العبر جزد 6ص183

4- من الأمثلة على وجود علماء وشيوخ بالرباطات، نذكر الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (ت632هـ-1234م)، وهو صاحب كتاب (عوارف المعارف)الذي ألفه في رباط الإسكندرية الشمالي. انظر : الطباخ: إعلام النبلاء ج2 ص413

فهذا رباط الأمير أيبك الأفرم بالقاهرة (1) قد نال شهرة واسعة لما اتصف به من تعليم نافع، وضيافة حسنة، وتقدير الشيوخ، ونفس التوجه أخذته الرباطات بافريقية، حيث أصبحت تهتم بالتعليم وتستقطب كبار العلماء والشيوخ، فهذا الشاعر والأديب الكبير ابن خبازة (ت637 هـ/ 1239م) يرتاد رباط الفتح بتونس العاصمة ويؤلف هناك كتبا بالإضافة إلى وظيفة التدريس (2)، وفي المناسبات والأعياد يقوم الشيوخ وبعض الأمراء بزيارة إلى هذه الرباطات ليتفقدوا أمور المرابطين وأحوالهم (3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الأمير أيبك هو أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس، وتقديرا لعلمه وإخلاصه بنى السلطان هذا الرباط سنة 663هـ/1264م وأطلق عليه اسم الأمير. انظر :

المقريزي: الخطط ،ج2 ط2، ص428.

2- اشتغل الشاعر والأديب: ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي أبو عمر المعروف بابن خبازة كقاضي لحسبة الطعام في الأسواق الحفصية، ثم التحق برباط الفتح بتونس إلى أن توفي به. انظر :

خير الدين الزركلي: الأعلام، ج7، ط8، بيروت 1986، ص341.

3- الزركشي: تاريخ الدولتين ص42

الخانقاه:

الخوانق هي من دور العلم التي كان يسكنها الصوفية، وتجرى عليهم الأرزاق ويشرف عليها العلماء والأمراء الذين يبثون التعليم وسط من يأوون إليها، والخوانق جمع خانقاه وهي كلمة فارسية معناها البيت، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (1) والخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله (2).

وأول من اتخذ بيتا للعبادة هو الشيخ زيد بن صوحان بن حبرة وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دورا وأسكنهم فيها، وجعل لهم من يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس (3) ويقول الشيخ العلامة المقريزي: «..وليس اسم الخانقاه مستعملا في مصر في هذا المعنى وإنما المستعمل مكانه الزاوية..»(4) ومن الأمثلة على ذلك :

خانقاه سعيد السعداء :

لما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شادي بملك مصر أوقف دارا كان يسكنها من قبل الوزير شاور بن مجير على الفقراء الصوفية الواردين من البلاد البعيدة وذلك سنة 569هـ/1170م (5)

1- المقريزي: الخطط ج4ص414.ويعبر عن ذلك الرحالة ابن بطوطة بقوله: «..الزوايا يسمونها في مصر الخوانق، وكل زاوية معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الزعاجم.انظر :

ابن بطوطة: رحلته، بيروت 1388/1968مص33

2- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ج6 ص48.

3- علي باشا مبارك: السابق ص49

4- المقريزي: الخطط ج4، ص273

5- الشاور بن مجير كان أميرا على صعيد مصر، ثار على السلطان العادل، وحشد وجمع العساكر بالإسكندرية ثم دخل القاهرة وظفر بالملك العادل رزيك بن الصالح وقتله.انظر:

علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ،ج6ص5

ابن عماد: شذرات الذهب،ج4، ص ;212

-الذهبي: سير اعلام النبلاء ،ج20، بيروت 1405هـ/1985ص312

ورتب لهم طعاما ولحما وخبزا يصرف لهم كل اليوم، وبنى لهم حماما فكان أول خانقاه بديار مصر (1) وعرفت بدويرة الصوفية، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ (2)، وكان سكانها يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركاتهم (3) وقد استمر الخانقاه في أداء دوره التعليمي إبان دولة المماليك، وقد ذهب بعض المؤرخين نذكر من بينهم الشيخ محمد رزق سليم، إلى أن المماليك بطبيعتهم غير العربية وجدوا شيئا من الحرج في ميدان التعليم وأنفوا من مخالطة الشعب والتعامل معه بشكل واسع، فخصوا أبناءهم بهذه المنشأة التعليمية، وخير مثال على ذلك خانقاه الأمير بيبرس الجاشنكير، الذي يقع بخط الجمالية حيث بناها سنة 706هـ/ 1309م (4)، وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم في كل يوم اللحم والطعام والخبز، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوي الشريف،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- علي باشا مبارك: الاخطط التوفيقية، ج6، ص5

2-علي باشا: السابق ص16

3- السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص141

المقريزي: الخطط ج4، ص271

4- حدد عدد الطلبة به بأربعمائة طالب صوفي.

انظر: محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، القاهرة 1368هـ/1949م، ص173-178.انظر أيضا :

محمد كرد علي: خطط الشام،ط1،ج1،دمشق 1925ص140

إنشاء المدارس

لقد أجمع المؤرخون على أنه في عهد الدولة الأيوبية بُدِئ في إنشاء المدارس في مصر، حيث اقتدى السلطان صلاح الدين الأيوبي في ذلك بما فعله الملك العادل نور الدين زنكي في الشام من إقامة المدارس في دمشق وحلب، وكانت أول مدرسة أقيمت بمصر على هذا النحو المدرسة الناصرية التي أنشأها السلطان صلاح الدين سنة566هـ/1167م(1) بجوار المسجد الجامع (جامع عمرو)لتدريس الفقه الشافعي وفي نفس العام أنشأ السلطان على مقربة منها مدرسة لتدريس الفقه المالكي عرفت بالمدرسة القمحية (2)نظرا لما كان يفرق على طلابها من قمح، وهي المدرسة التي تولى التدريس فيها فيما بعد المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون (3)، وفي سنة 572هـ/1173م أنشأ السلطان صلاح الدين المدرسة الصالحية بجوار ضريح الإمام الشافعي وهي التي غدت فيما بعد أهم المدارس المصرية (4).

وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرن السابع الهجري أثر كبير في تطور التعليم، فقد اجتذب إليها الطلاب من كل صوب، كما اجتذب إليها أعلام الأساتذة، وكانت تمتاز عن الجوامع بجدتها ووفرة أوقافها، واستئثارها برعاية السلاطين والكبراء، وكانت مناصب التدريس فيها مغرية تدر على شاغلها الجزاء الحسن، فكان يؤثرها أعلام الأساتذة ويتنافسون في الفوز بها، وقد أدى انتشارها في مصر إلى نهضة علمية إنبرى لها جملة من العلماء، وخاصة بعد الغزو المغولي الذي قضى على التراث العلمي، وذهب ضحيته كثير من العلماء وعديد من الكتب القيمة، وسأكتفي بذكر المدارس المشهورة التي قصدها طلاب العلم من جهات مختلفة وهذه المدارس هي :

1- المقريزي: الخطط ج1، ص109

2-د/حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام، بيروت ج4ط1 1967 ص426

3- د/ محمد الفاسي: فلاسفة الإسلام في المغرب، تطوان المغرب بدون تاريخ ص30

4- المقريزي: السابق ص114

1- المدرسة الكاملية:

كانت دارا لعلوم الحديث، وتمت الأشغال بها سنة 631هـ/1232م وتعتبر هذه المدرسة امتدادا لدار الحديث التي بناها الملك نور الدين محمد بن زنكي بدمشق، وتقع المدرسة الكاملية بجوار قبة الإمام الشافعي بالقاهرة وأوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي الشريف، ومن بعدهم على فقهاء الشافعية (2)

2 المدرسة الظاهرية:

تنسب إلى السلطان الظاهر بيبرس البند قداري الذي ابتدأ في عمارتها سنة 660هـ/1262م وفرغ منها سنة662هـ/1260م ويوم أن فرغ من بنائها جاء الفقهاء وجلست كل طائفة منهم في إيوان خاص بها تدرس الطلبة الوافدين إليها من مصر، وبلاد الشام، وإفريقية وبعد ازدهار التعليم بها أضاف إلى البناية رواقين أحدهما لتدريس علوم الحديث والآخر للقراءات وأتم البناء بإنشاء قسم لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله، وأجرى عليهم الجرايات والكسوة (3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- تقع هذه المدرسة بين القصر الشرقي الذي بناه جوهر الخليفة المعزلفاطمي، والقصر الغربي الصغير الذي بناه العزيز الفاطمي.انظر :

-المقريزي: الخطط ،ج4ص97

انظر أيضا: د/سعيد مرسي أحمد ود/ سعيد اسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة 1972ص242

2- يقول عنها الأستاذ العالم علي باشا مبارك أنها أزيلت وبنى مكانها جامع الإمام الشافعي.انظر: علي باشا مبارك: الخطط الجديدة التوفيقية،ج5ص88

3- المقريزي: الخطط ،ج4، ص216-218،

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج7،ص120

د/ابراهيم طوقان: النظم الإقطاعية ،دار الكتاب العربي - القاهرة 1970،ص306

3- المدرسة المنصورية:

تنسب إلى الملك المنصور قلاوون الألفي (1) الذي أنشأها على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، عام 683هـ/1285م(2) ورتب فيها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ودرسا للعلوم الطبية، وكان المدرسون في هذه المدرسة يختارون من المشاهير (3) وعرفت بجامع المارستان الذي يقع بالقرب من الحسينية بالقاهرة.

هذه المدارس التي ذكرتها كانت في مصر،وقد نالت شهرة واسعة في عهد المماليك الذين شجعوا العلوم، وظهروا بمظهر حماة الدين المدافعين عنه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المقريزي: الخطط ،ج4، ص218

علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ،ج5،ص99-100

2- الأمير علم الدين سنجر الشجاعي كان من نجباء الترك وشجعانهم وعلمائهم، له مشاركة حسنة في الفقه والحديث وله معجم كبير وأوقاف بدمشق والقدس (699هـ/1300م). انظر :

ابن العماد: شذرات الذهب ،ج5 ص449

ومن المدارس التي حملت مشعل الثقافة في بلاد الشام ما يأتي :

1- المدرسة الظاهرية:

بناها السلطان الظاهر بيبرس سنة 670هـ/1272م،كان فيها فقهاء الحنفية والشافعية، وأول من درس بها الشيخ صدر الدين سليمان من الحنفية، وقد نال هذا الشيخ تقدير السلطان بيظظبرس الذي كان كثيرا ما يثني عليه ويمدحه حيث يقول : «لا تثبتوا كتابا إلا عند الشيخ صدر الدين »(1)

2- المدرسة العادلية الكبرى:

تقع داخل دمشق اتجاه باب الظاهرية، وكان يفصل بينهما الطريق، أمر بإنشائها نور الدين محمد بن زنكي وتوفي ولم تتم ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين وإليه تنسب ثم توفي ولم تتم، فأتمها ابنه الملك المعظم - وأوقف عليها أوقافا كثيرة وأول من درس بها القاضي جمال الدين المصري في حضرة السلطان المعظم سنة 619هـ/1220م، ثم قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خليل الحوبي، المتوفي (623هـ)(2)، ثم تولى التدريس بعده القاضي كمال الدين عمر أبو حفص بن بندار، توفي سنة 693هـ/1295م قدم القاضي بدر الدين ابن جماعة على قضاة الشام ونزل في العادلية ودرس بها (3) وممن درّس بها شيخ الإسلام قاضي القضاة تقي الدين السبكي ثم ولده قاضي القضاة بهاء الدين أبو حامد المولود سنة 719هـ/1320م(4) فكل المدرسين الذين تولوا منصب التدريس فيها كانوا قضاة القضاة وهذايدل على مكانتها التعليمية والتربوية.

1- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج1-دمشق،1948ص359.

2- النعيمي: السابق،ص360-362

أبو بغداد المختصر في Hأخبار البشر ج3 ص141

3- للشيخ بدر الدين بن جماعة هو

4- الشيخ تقي الدين السبكي هو

أما عن المؤسسات التعليمية والتربوية في إفريقيا بلاد الحفصيين، فقد شهدت تطورا ملحوظا ذلك لأن الحكم الحفصي كان أوطد وأزهر مما كان عليه، وآية ذلك النهضة الواسعة في العلوم النقلية والعقلية، ولقد حقق قيام الدولة الحفصية لإفريقيا تقدما كبيرا فكانت تونس لا مقرا للحكم فحسب بل المركز السياسي والثقافي للحفصيين وغيرهم. حيث شيدت في العهد الأول الذي نبحث حوادثه، قصور، ومساجد وزوايا ومكتبات وقناطر معلقة وغير ذلك من مظاهر النهضة العلمية. ومن جملة المدارس التي شيدت في تونس وغيرها نذكر:

1- المدرسة الشماعية:

بنيت هذه المدرسة بقصبة تونس بأمر من السلطان الحفصي أبي زكريا يحي سنة 633هـ/1235م(1)، وكانت أول مدرسة فتحت في إفريقية (2)، وعملت الدولة الحفصية على تشجيع التعليم فيها، فقدمت إغراءات للطلبة وجرايات للشيوخ والمدرسين (3)

2- المدرسة التوفيقية:

هذه المدرسة بنيت بعد وفاة مؤسس الدولة الحفصية السلطان أبي زكريا الحفصي، ويرجع الفضل في إنشائها إلى زوجة السلطان الأرملة عطف (4) أم السلطان أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي، وكانت المدرسة التوفيقية ملحقة بجامع الهوى الذي يرجع بناؤه إلى العهد الحفصي.

1- سميت بالمدرسة الشماعية نسبة إلى سوق الشماعين (سوق مختص في بيع الشمع، وتقع بالقرب من الجامع الأعظم وهي موجودة الآن بشارع البلاغجية - بقصبة تونس. انظر :

ابن الشماع: الأدلة البينة، ص56، حاشية رقم 3 من نفس الصفحة

عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، ترجمة محمد الشابي بالإشتراك مع المؤلف، تونس 1981،ص14

2- انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 6 ،مادة تونس ،ص35

3- الزركشي: تاريخ الدولتين ص40-41

4- - السيدة عطف هي زوجة السلطان أبي زكريا يحي الأول،وأم ولي العهد أبي عبد الله وهي أم ولد نصرانية، كانت امرأة فاضلة تحب الخير وتعمل على التقرب إلى الله عز وجل.انظر :

ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية، تونس 1984ص63.

الزركشي: تاريخ الدولتين ص51

3- مدرسة المعرض:

تقع هذه المدرسة في قصبة تونس بالقرب من سوق الكتبيين، وقد بناها الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي إسحاق (675هـ-678هـ/1277 - 1279)، واختار لها موضع فندق كان يؤمه شاربو الخمر ووجه إلى المدرس الشهير أبي العباس أحمد الغرناطي - صاحب كتاب «المشرق في علماء المغرب والمشرق» يطلب منه التدريس بالمدرسة، وأغدق عليه بالمال ورعاه بعطفه، ثم أجرى على المدرسة أرزاقا معلومة (1)، وما إن مرّت بعض السنين حتى توالى أهل العلم والفضل من رجال الدولة وغيرهم في إنشاء المدارس، فظهرت في تلمسان، وقسنطينة، وبجاية (2) وقبل ذلك ظهرت في ولاية طرابلس سنة 647هـ/1249م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الزركشي: تاريخ الدولتين ، ص52

2- مثل مدرسة السيدة حفصة التي بنيت بالقرب من الجامع الأعظم بقسنطينة سنة 678هـ/1280م والمدرسة التي ألحقت بمسجد سيدي بو مدين في تلمسان سنة 626هـ/1228م. انظر :

دائرة المعارف الإسلامية ،مادة تلمسان ،مجلد 5ص282وأيضا: د/ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص34 وأيضا أ/ عبد العزيز فيلالي: جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سيرتا - العدد 10- أفريل 1988- جامعة قسنطينة ص71

ملحقات المؤسسة التعليمية :

1- المكتبة :

إن وجود المكتبة بالقرب من المؤسسة التعليمية ضرورة يقتضيها التحصيل العلمي وانتشارها في شوارع المدينة مظهر من مظاهر تطور المجتمعات، وهذا ما نجده في المجتمع المصري والإفريقي إبان عهد الدولتين المملوكية والحفصية حيث زخرت مكتبات المدارس والمساجد، والزوايا بكتب ومصنفات متنوعة في تفسير القرآن، وعلوم الحديث، والفقه واللغة العربية، وغير ذلك من الكتب التي يرجع إليها الطالب والمدرس عند الحاجة (1) وقد غالى بعض المشرفين عن المؤسسات التعليمية في تزويد المكتبة بأنواع الكتب فعلى سبيل المثال نجد مكتبة السلطان الظاهر بيبرس قد حوت المصاحف المخطوطة النادرة جدا، والكتب النفيسة بلغت كميتها حمولة عشرة جمال (2)، وتكاد الصورة نفسها تتكرر في مكتبة السلطان الحفصي أبي زكريا يحي (3) وقصد السير الحسن لإدارة المكتبة وظف عامل يعرف في مصر والشام باسم خازن المكتبة، يقوم بتنفيذ شروط الوقف الخاصة بالمكتبة (4)

2- المصلى :

بعد أن استقلت المدرسة عن المسجد رأى المشرفون عليها إنشاء مصلى داخل المدرسة حتى يتسنى لأهل المؤسسة التعليمية أداء الصلاة في وقتها دون الإنتقال إلى المسجد، وهذا حرصا على تسلسل مواعيد الدراسة والإنضباط بنظام المدرسة (5)

1- رأى العلامة ابن خلدون أن كثرة التأليف زادت عن اللزوم وأضرت بقيمة الكتاب. انظر :

ابن خلدون: المقدمة ص 500-501

2- السبكي: مفيد النعم ،ص146

3- كانت إدارة مكتبة مدرسة الشماعين التي أنشأها السلطان أبي زكريا الحفصي مسندة إلى الفقيه أبي علي الحسن من موسى الهواري الطرابلسي في عهد السلطان أبي عبد الله المستنصر بالله الحفصي، وبلغ عدد الكتب بها ستة وثلاثين ألف كتاب: انظر :

ابن الشماع: الأدلة البينة ص57-58 حاشية رقم 3انظر أيضا: أبو عبد الله محمد بن أحمد: رحلة التجاني، تحقيق حسين حسني عبد الوهاب، تونس، ليبيا 1981-ص277

4- السبكي: السابق ص147

5- المقريزي: الخطط ج4، ص209-210

3- المسكن :

إن الإستقرار والإقامة بالقرب من مؤسسة التعليم له دوره الواضح في توفير الظروف المناسبة للتحصيل العلمي ولهذا حرص المشرفون على التعليم بمختلف المؤسسات على إنشاء سكنات جماعية للطلبة الوافدين من جهات بعيدة سواء من داخل مصر أو من بلاد المغرب وأهل اليمن والهند، وقد توسعت الزوايا والرُبط في هذا الدور الإجتماعي (1) أكثر مما هو عليه في المساجد والمدارس، وزيادة على الإيواء كانت تضمن لهم الأكل والشرب والملبس (2).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- كان كثير من أهل البر والإحسان زيادة على الأمراء والسلاطين يحبسون الضيعات الواسعة والمرافق التجارية على المدرسة أو الرباط أو غير ذلك، ويشترطون شروطا معينة كأن توزع الغلات الزراعية على الطلبة ويخصص جزء منها ليباع ويدفع ثمنه كرواتب للمدرسين

المقريزي: الخطط ،ج4;ص110

2- مثل رباط البغدادية الذي أقامته السيدة تذكاري باي خاتون ابنة السلطان بيبرس سنة 684هـ/1285م وخصصت للنساء والمطلقات حتى يتزوجن أو يرجعن إلى بيوتهن ورتبت فيه دروسا للفقه وحفظ الأوراد :

المقريزي: الخطط ،ج2، ص427-430

2-نظام التعليم :

كان التعليم في البلاد الإسلامية في أول الأمر مقصورا على العلوم الدينية وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوي الشرعية، وفي ذلك يقول الشيخ النووي: «.. كانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيئ من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، وأما صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس إليها وذلك منهم صونا لقواعد الإسلام وعقائد أهله عن تطرق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ في الأحكام..»(1)

وإذا كان المسلمون لم يقفوا عند حد العلوم الدينية بل مدوا أيديهم إلى غيرها من العلوم الأخرى وبلغوا فيها مرتبة عالية، إلا أن العلوم الدينية ظلت تحتل مكانة الصدارة وتحظى بالإحترام الأكبر والتقدير الأعلى ولم يبتعد نظام الدراسة (2) في عهد الدولتين المملوكية والحفصية عن هذا التوجه العام لتعليم أبناء المسلمين وكان همُّ القائمين بنظام التعليم آن ذاك هو إيجاد الرغبة عند الطالب للتحصيل العلمي (3) بطريقة تواكب مسار التطور العام للبلاد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- محي الدين النووي: التبيان في آداب حملة القرآن، دمشق 1954ص14

2- نقصد بنظام الدراسة سير جميع الأعمال الدراسية سواء في الجوامع أو المدارس أو الزوايا والربط. انظر : السبكي: مفيد النعم ومبيد النقم، ص145

3- في هذا الشأن يقول الشيخ أبي حامد الغزالي: إن نفس الصبي سادجة وليس لها رأي ولا عزيمة تقليها من شيئ إلى شيئ، فإذا نقشت بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها فالأولى بمثل هذه النفس أن تتبه أبدا إلى حب الكرامة. انظر: الغزالي: قسم رياضة النفس، الأحياء، ج3، ص178

2-1 ميزات نظام التعليم:

كانت نظرة الفقهاء ورجال الدولة إلى المعلم ذات منطلق ديني وخلقي معا ولذلك يفترض في المعلم أن يعمل على تهذيب شعور وعواطف الطلبة وتنمية الخصال الأخلاقية وتكوين العادات الفاضلة (1) وعلى المعلم أن يغتنم كل فرصة تسنح له للوصول إلى هذا الغرض وذلك لأن التربية المدرسية تفضُل التربية المنزلية من جهة تقويم الأخلاق في الطفل ومن أجل بلوغ هذا الهدف وضع أشهر الفقهاء المربين جملة من الشروط الضرورية التي يجب توفرها في المعلم ومن بين هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي (ت505 /1106) والفيلسوف ابن خلدون [808هـ/1405 م] والطوسي (ت673هـ/1273) ابن جماعة (ت 773هـ/1375م)، السبكي (ت 771هـ/1372م) والشروط تدور حول :

ا - الخاصة بالمدرس :

أ- التحلي بالوقار والخشوع:

التواضع (2) فالمعلم كبير القدر، عظيم الشأن لا يذهب إلى الحكام إلا عند الحاجة اعتزازا للعلم وشرفه (3) ولعل ما يساعد على التحلي بهذه الأخلاق هو الزهد في الدنيا والقناعة بالضروري (4)، ويذهب الشيخ الإفريقي القابسي إلى أن يطلب من المعلمين الإبتعاد عن أعمال توقع في الشبهة كالحجامة والدباغة (5)

1- ابن جماعة: المذهب التربوي عند ابن جماعة،تحقيق د/عبد الأمير شمس الدين ،ط1، بيروت 1984ص 15

-د/ أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام ،ط2، مصر 1980ص58

2- ابن جماعة: السابق ص18 وأيضا :

السبكي: مفيد النعم ومبيد النقم، مصر 1317هـ/ ص170

3- الغزالي أبو حامد: الأحياء ،ج3، ص120وفي ذلك يقول : أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلايكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار».

4-الغزالي: السابق ص121

السبكي: السابق ص20

الزرنوجي: تعليم المتعلم، تحقيق د/ سيد ابراهيم الجبار، بدون تاريخ ص24

5- الزرنوجي: السابق، نفس الصفحة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب – صفات دينية :

يشترط في الأستاذ أن يكون متدينا محافظا على القيام بشعائر الإسلام وعلى المندوبات الشرعية، وأن يعامل الناس بمكارم الأخلاق وأن يكون حريصا على قواعد الحكم الشرعي في أمور الحياة الدنيا جميعا (1).

جـ – صفات مهنية:

لا يتصدر الدرس إلا من اكتملت أهليته العلمية ومع ذلك تبقى المواظبة على التحصيل مستمرة، وقراءة الأوراد واجبة، وأن يشتغل بالتصنيف والبحث ولا يضيع شيئا من عمره في غير ما هو بصدده من العلم إلا بقدر الضرورة. وهذا عامل أساسي في تقوية النفوذ الشخصي للمدرس من أجل تعزيز النظام التعليمي (2) داخل المؤسسات التعليمية بمختلف أشكالها وزيادة على الأهلية العلمية يشترط فيه الإعتناء بالمظهر العام من تطهر، وتطيب، وتزين، وحتى طريقة الجلوس في صدر حلقة الدرس فيتعين عليه استقبال القبلة وإظهار الوقار وعدم المزاح (3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1–د/ محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام، بيروت 1957ص101

2– يقول السبكي: «ليس النظام التعليمي كما يقول بعضهم هو القوة التي يستعملها المدرس مع طلابه للحصول على نتائج حسنة وإنما ما كان خضوع التلاميذ لسلطان المدرس خضوعا ينطبق تماما على أغراض التربية».

السبكي: مفيد النعم ومبيد النقم ،ص120

3– ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم

تحقيق د/ عبد الأمير شمس الدين ،ط2، بيروت 1989ص125

II -الخاصة بالمتعلم:

أ- الطاعة:

تعتبر الطاعة أهم عوامل صلاحية النظام التعليمي، ولا يكون العمل التربوي في المدرسة ممكنا إلا بها، وإذا كان علماء التربية في عصر الدولتين قد اتفقوا حول ضرورة طاعة التلميذ لشيخه فقد اختلفوا في درجة الطاعة وميدانها، فابن جماعة يرى وجوب الطاعة في جميع الأمور والتواضع المطلق للشيخ (1) وشدد على ضرورات الإحترام العميق الذي يبلغ حد التقديس وشاطره الرأي الشيخ السبكي في كتابه مفيد النعم (2) بينما ذهب ابن خلدون إلى تصنيف الطاعة إلى حقيقية و مصطنعة وقال: .. بشرط أن تكون طاعة حقيقية منشؤها الإحساس بالواجب لا طاعة استرقاق التي منشؤها جبروت المعلم والخوف من العقاب..»(3)

ب- إحترام الأستاذ يرى العلماء المختصون في التربية والتعليم أن الإحترام واجب في مخاطبة الشيخ وفي الجلوس إليه وفي طريقة طرح الأسئلة عليه والدخول إلى حلقته أو بيته (4)

1- شبه ابن جماعة الطالب بالمريض والمعلم بالطبيب وقال لا يحق للمريض أن يتكلم في حضرة الطبيب. انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، بيروت 1989ص130

2- السبكي: مفيد النعم ،ص170

3- ابن خلدون: المقدمة ص131 ويضيف ابن خلدون فيقول: .. ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة :

المقدمة ص136

4- ابن جماعة: السابق ص132

د/ محمد عطية الأبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، بيروت، بدون تاريخ 1982ص45

د/ مصطفى أمين: تاريخ التربية. مصر ،ص140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جـ- الصبر على مشقة التحصيل :

أشير إلى أن جل الفقهاء وعلماء التربية في الإسلام أجمعوا على أن المتعلم مطالب بالصبر على الجفوة التي قد تصدر إزاءه من المدرس وعلى الطالب أن يتحمل الإذلال إن صدر من المعلم لأنه لا مذلة في طلب العلم وعلى الطالب أن يشكر الأستاذ على كل ما يصدر عنه(1) وقد ركز بعضهم على بعض الآداب الخاصة بالطالب نذكرها دون تفصيل وهي تطهير القلب ففي هذا الشأن يقول ابن جماعة .. كما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الخبث فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته من خبث الصفات..»(2) ولا بد أن يصحب المتعلم حسن النية وقد اشترطه جل المربين المسلمين (3).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- السبكي: مفيد النعم، ص142

ابن جماعة: تذكرة السامع ص128

الزرنوجي: تعليم المتعلم ،ص26

د/أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام ،ص60

2- ابن جماعة: السابق ص146

الغزالي (أبو حامد): الأحياء ،ج3، ص179

3- عبد الحميد الكشك: دور المسجد في المجتمع، القاهرة، بدون تاريخ ص39

الزرنوجي: السابق ص27

2-2مبادئ وقواعد التدريس:

رأى جملة من الأساتذة والعلماء المربين أن نجاح الدرس يتوقف على مبادئ عامة يجب أن تتوفر في الدرس وعلى طبيعة المنهج الذي تقدم به المادة العلمية بالنسبة للمبادئ العامة نذكر ما أجمع عليه علماء المسلمين وهي :

أ- المبادئ العامة:

- التدرج في تعليم المواد مقدما الأشرف من الدروس، ويرتبونها على النحو التالي: القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف، أصول الدين، أصول الفقه، الخلاف، النحو والصرف، الجدل (1)

2- الإلتزام بعدم الإشتغال بالخلافات الحاصلة بين المذاهب وبين العلماء لأن ذلك يحير الذهن ويدهش العقل (2)

3- ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا بعضها طريق إلى بعض، والمدقق من راعى ذلك الترتيب والتدرج، ويعتبر ابن جماعة أن ذلك تضييع للوقت وتشتيت للذهن (3)

4- الإقتصاد في لوم الطالب وتعنيفه أثناء وقوع الخطأ وفي ذلك يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «.. لا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإن ذلك يهوّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويخفف وقع الكلام في قلبه..(4) ونفس الرأي يردده الشيخ ابن جماعة حيث يقول: « في حالة سوء الأدب هناك التعريض بالنهي، النهي سرا، النهي جهرا، فتغليظ القول، حتي ينزجر المسيئ ومن يسمع أو يفكر بالإساءة»

1- انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، بيروت 1989ص192

2- ابن جماعة: السابق ص194

ابن خلدون: وفي ذلك يقول: ألا يطرق على المتعلم في الفن الواحد. بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأن ذلك ذريعة النسيان: المقدمة ص140

3- الغزالي (أبو حامد): الأحياء ،ج3-ص146

د/ عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي، بيروت 1405/1985، ص86

وأيضا: ابن جماعة: السابق ص 196

السبكي: السابق ص141

4- الغزالي (أبو حامد) : السابق، ج3ص148

ويضيف ابن جماعة أن العقوبة القصوى هي الطرد والإعراض (1)

5- ضرورة الإهتمام بالمتفوقين والمجتهدين وألا يأخذوا بنهج واحد ومعاملة واحدة بل يجب مراعاة أمزجتهم المختلفة (2)

6- أن يخاطبهم بما يفرح قلوبهم، ويسألهم عن أحوالهم وأحوال من تربطهم بهم علاقات والسهر على إقامة العلاقات الحسنة فيما بينهم، ولا يميل لأحد دون الآخر (3)

7- إيفاء الطلبة حقهم من الوقت والعناية بهم، ولا يسمح للطلبة التغيب بغير سبب ويوجد بالمدرسة موظف خاص بمتابعة حضور الطلبة وتخلفاتهم وتسجيل الإجازات الخاصة بالمواسم والأعياد (4)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ابن جماعة: تذكرة السامع ص196

2- في ذلك يقول الإمام أبي حامد الغزالي: «..كما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، كذلك المربي لو أشار على المريدين بنمط واحد من التعليم أهلكهم وأمات قلوبهم » انظر :

الأحياء - رياضة النفس - كتاب العلم ،ج3، ص152

وانظر أيضا ابن جماعة: السابق ص197

3- ابن سحنون وابن جماعة: السابق ص25، وحاشية رقم 1

الشيخ أبي حامد الغزالي: السابق ص150

4- عرف هذا الموظف بكاتب الغيبة أنظر محمد بن محمد (ابن الإخوة): معالم القربة في أحكام الحسبة ب ت ص140

انظر أيضا: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج7ص658وحاشية رقم 6

ب -منهج التدريس في الجوامع والمدارس:

إذا كانت الشروط الخاصة بالأستاذ والطالب السابق ذكرها لازمة للنظام التعليمي كما قدمنا فالمنهج التعليمي لازم أيضا لا لفائدة المدرسة أو المؤسسة التعليمية بل لفائدة الطلبة، ولذلك حرص أكبر الفقهاء والعلماء على إيجاد أحسن طريقة لإيصال المادة العلمية للطلبة، ويكاد يكون اتفاقهم عاما حول النقاط التالية:

1- ترتيب أجزاء الدرس في بادئ الأمر، ثم العودة إلى كل منها والشروع في تفصيلها معتمدا في أول الأمر على الأمثلة الحسية (1) ثم الإنتقال من البسيط إلى المعقد مع الحوار والمناقشة.

2- ألا يأتي الأستاذ بغايات الدرس وبالأهداف التي يسعى إليها في بداية الدرس بل عليه أن يقدم الأمثلة الكافية ثم الإنتقال منها إلى التعاريف والقواعد (2)

3- ألا يطالب الأساتذة تلامذتهم بمعرفة ما وقع في العلوم من مختلف الإصطلاحات وتعدد المذاهب وألا يكلفوهم استقصاء المؤلفات واستيعاب ما كتب في كل علم فإن ذلك يعيقهم على تحصيل العلم (3)

1-السبكي: مفيد النعم ومبيد النقم، ص124

محمد بن محمد(ابن الإخوة): معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص105

النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ،ج 1 ص360

أ. عبد العزيز فيلالي: جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سيرتا - السنة السادسة ،العدد 10، جامعة قسنطينة 1408هـ/1988م ،ص82

2- في هذا المعني يقول ابن خلدون: «... ومن قبيل إلقاء الغايات في البدايات ماتسمعه من الأساتذة في بعض المدارس، تسمعهم يعرفون الأرض بأنها كوكب دوار..ويعربون البسملة في بداية درس النحو»

المقدمة، ص140

انظر أيضا: النعيمي: السابق ص361

3- ابن خلدون: المقدمة ،ص520

ابن جماعة: تذكرة السامع ،ص200

4- ألا يخلط على المتعلم علمان معا فإنه حينئذ قلّ أن يظفر بواحد منها.
5- أن يعتمد طريقة المحاورة والمناقشة (1) والتعمق في التحليل والتعليل يشارك فيها الطلبة حيث يقرأ نقيب أو عريف الطلبة نص الدرس أمام الأستاذ والطلبة وبعدها يبدأ الأستاذ بشرح العبارات الغامضة، ثم يعرب جملها ويوضح أوجه الصرف في أفعالها وأسمائها مع الإشارة إلى قواعد النحو والصرف الواردة فيها وبعد ذلك ينتقل إلى استخراج مضامين الدرس العلمية (2) لكل مرحلة من مراحل الدرس.
6- ألا يوسع الكلام في العلوم الآلية (3)بخلاف العلوم الشرعية التي يفترض أن يبسط فيها الشرح والمناقشة.
وفي الأخير أشير إلى أنه يوجد العديد من الشيوخ والأساتذة من يعتمد طريقة التقرير، حيث يتكلم مباشرة عن الأشياء والأمور التي يريد تعليمها، ويكون هو الفاعل الوحيد في الدرس فهو يدقق مباشرة في تلك الأشياء ، ويقارن بينها ولا يطلب من الطلبة إلا الإصغاء (4)

1- إن طريقة التدريس كانت قبل عهد الدولتين، وتختلف من مدرسة إلى أخرى وخاصة بين المدارس والزوايا والربط، وكان أسلوب الإلقاء والشرح والتلقين هو السائد خاصة في مدارس المغرب وعندما هاجر شيوخ الأندلس إلى إفريقية هروبا من الإضطهاد الصليبي ادخلوا على أسلوب التدريس طريقة الحوار، والمناقشة
- انظر: الغبريني: عنوان الدراية ،ص439
د/ محمد عطية الأبراشي: التربية الإسلامية، ص50
2- عبد الحميد الكشك: دور المسجد في المجتمع ،ط2، القاهرة ب.ت ص101
3- يقول ابن خلدون: «..ذلك أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من تفسير، حديث، وعلوم آلية هي وسائل العلوم الشرعية مثل العربية، الحساب، الطب..»
المقدمة ص536
4- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ،ج1ص364

2-3مكانة الأستاذ:

إن شؤون الدراسة في البلاد المصرية والإفريقية في عهد الدولتين المملوكية والحفصية كانت في أغلب الأحيان تابعة لإدارة السلطان ووزرائه (1)، وكانت مناصب التدريس في الجوامع والمدارس الكبرى يومئذ من المناصب العلمية والدينية الرفيعة، فهي تعتبر كمنصب القضاء فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة والعلماء وكان تعيين الأستاذ يتم بمرسوم خاص تغذق عليه فيه الألقاب العلمية ويسدى إليه النصح برعاية مصالح الطلاب وتودع هذه المراسيم بالجامع أو المدرسة ذات الشأن، وتختلف صيغ هذه المراسيم باختلاف المادة التي يسند تدريسها إلى الأستاذ (2) وكانت مراسيم التعيين في وظائف التدريس تقرن بألقاب وصفات مثل، الجناب الشريف، الإمامي، العالمي، الكامل..

وكان ينتظم حفل كبير بمناسبة تنصيب الأستاذ في منصبه، يحضره الأعيان وكبار المنطقة التي يعين بها (3)، والأساتذة الكبار يوظفون في مرتبة «التصدير» وهي من أبرز وظائف التدريس يومئذ، وإن التصدير موضوعه، الجلوس بصدر المجلس، بجامع أو نحوه ويجلس متكلم أمامه على كرسي كأنه يقرأ عليه، يفتتح بالتفسير ثم بالرقائق، فإذا انتهى كلامه وسكت أخذ المتصدر في الكلام على ماهو في معنى تفسير الآية التي يقع الكلام عليها أثناء الدرس.

1- د. محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ،ج1- القاهرة 1962،ص74

= ابن الشماع: الأدلة البينة ،ص 7

2- عندما عين الأستاذ العالم ابن خلكان بالمدرسة الصالحية بدمشق، انتظم حفل تكريمي كبير. انظر :

د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ط3، بيروت 1983;ص314

3-وعن تعيين الأساتذة في مدارس الدولة الحفصية. انظر :

ابن الشماع: السابق ص7

ونظام المعيدين المعمول به حاليا في الجامعات، كان سائدا في الجوامع المشهورة والمدارس الكبرى، فقد كان لكبار الأساتذة معيدون من المدرسين الأصاغر، يقومون بإلقاء الدرس أو ملخصه على الطلاب عقب انتهاء الأستاذ من إلقائه، وكان يُكتفى أحيانا في بعض المواد بوجود المعيد دون الأستاذ (1).

وللأستاذة مكانة هامة لدى سلاطين الدولتين، فقد كانوا يشغلون مناصب سياسية ذات شأن في البلاط وفي الحكومة، وحسبنا أن نعلم أن مناصب القضاة، وقاضي القضاة، ومناصب نواب القضاة، والمحتسب كانت بطبيعتها وقفا على العلماء (2)، وكان كثير منهم يجمع بين منصبه العام ومنصب التدريس بالمدارس الكبرى (3)، فهذا السلطان الظاهر بيبرس يطلب بعض المدرسين ليشرفوا على التدريس بالمدرسة الظاهرية التي أسسها بالقاهرة (4) وأوقف عليها الضيعات والمتاجر، وبلغ حرص الأمراء على الإقتراب من الأساتذة إلى درجة أنهم أنشأوا المدارس بالقرب من مقر سكناهم، حتى يتسنى لهم التعامل مع المدرسين (5) ولم تكن المنزلة العالية التي اكتسبها الأساتذة، مصطنعة أو وقتية فقدرتهم واضحة على تحريك العامة وتجميد النشاط العام للبلاد ، أو قيادة مقاومة مسلحة لرد أي عدوان خارجي (6)،أو تجميد أي قرار سلطاني يراه العلماء غير موضوعي (7)

1 - السيوطي: حسن المحاضرة ،ج2ص157

2- د. سعد مرسي أحمد وسعيد اسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، 1972ص242

3- محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ص141

4- المقريزي: الخطط ،ج4، ط2، ص14

5- عندما أقبل الأمير أبي يحي أبي بكر الحفصي على بناء المدرسة النورية اجتهد في تقريبها إلى محل سكناه الزركشي: تاريخ الدولتين ص56، حاشية رقم 3

6- كان لشيوخ القبائل وأساتذة المدارس وخطباء المساجد دور واضح في تعبئة أفراد المجتمع الحفصي أثناء غزوة لويس التاسع لأراضي إفريقية. انظر :

ابن خلدون: العبر ،ج6ص140

- ابن القنفد: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ،ص14

7-لقد وقف الشيخ النووي (ت676هـ 1278) بالمرصاد لمقاومة السلطان الظاهر بيبرس فيما يفرضه من ضرائب، ورأى العالم أنها ظالمة وليس من شؤون الدولة ما يظطر إليها فوعظه ثم أغلظ له في القول ورماه بأنه يسلب الضعفاء أموالهم باسم الجهاد. انظر :

محمد أبو زهرة: ابن تيمية حياته وعصره القاهرة، ب.ت، ص163

فالعلماء في عهد الدولتين كانوا قوة لايمكن لأي أمير عاقل أن يغفلها، ولا شك أن هذه القوة هي محصلة للتربية والتعليم في الإسلام التي تهدف إلى تكوين العقل المفتوح علي العلوم التي يقرها الشرع، ولا يعترف بالعصمة لأي حاكم أو مسؤول أو فرد غير الأنبياء، ولا شك أن لهذا التكوين الفكري أثره في المواقف المتحررة، ولقد ساعد نظام الحكم السائد آن ذاك في مصر وإفريقية (1) على ظهور نهضة علمية حيث كان العلماء واسطة (2) بين الحكم والشعب، يعملون على تخفيف أعباء السلطة على الشعب وفي كثير من الأحيان يلوذ بعض أفراد الشعب بالعلماء ضد تعسف الحكام فالسلاطين والأمراء لهم قوة المادة والحكم، والعلماء لهم قوة الدين والعمل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- في مصر كان المماليك يشكلون حلقة مغلقة لا تمتزج بطوائف الشعب وفي دولة الحفصيين كان الشعب ينتظم في هرم القبيلة وفي الحالتين كان العلماء هم الواسطة. انظر :

محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج 1، ص84

2-ابن القنفد: الفارسية ص141

رواتب المدرسين:

كان المشرفون على التعليم سواء كانوا إداريين أو معلمين يتقاضون أجورا تؤخذ من كثرة أوقاف السلاطين والكبراء من رجال الحكومة أو من التجار الأغنياء.وكانت تتوالي الأعطية والأرزاق الثابتة والمؤقتة للأساتذة والطلبة (1) إذ كانت من أجل أعمال البر وأشرفها أن يوقف القادرون من أملاكهم وضياعهم على دورالعلم وبخاصة الجوامع والمدارس الكبرى (2). وكانت الأوقاف ترتب إما بصفة عامة أو تخصص للأساتذة والطلبة فقط، أو للإنفاق على تدريس مادة معينة ولا سيما علوم القرآن والحديث، وقد حاول العالم الشهير المقريزي أن يفسر إقبال المماليك على العلماء واحترامهم لهم، وإغداق الخير عليهم، بأن ذلك يرجع إلى أن المماليك قد عرفوا دين الإسلام بواسطة العلماء، غير أن المبالغة في الإكرام والتقدير لم يختص بها رجال العلم في مصر فحسب، بل كان أساتذة الجوامع والمدارس في إفريقية ينالون منها أيضا فهذا الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان أبي زكريا يقف قرطاسين من الذهب الخالص على أساتذة وطلبة مدرسة المعرض (3) بتونس حاضرة الحفصيين ومهما يكن من سلطان العلماء في العصر الذي نبحث حوادثه فإن الأستاذ المؤرخ السيوطي انتقذ نظام أجور الأساتذة ورأى أنه يضعف من مواقفهم فقال: «.. فإنه بلا شك كان يضعف من سلطان العلماء، إن معيشتهم كانت من الأرزاق التي يفيض بها الوالي عليهم، ومنهم من كانت تنزله الحاجة أو حب المال والطمع إلى مالا يليق بالعلماء..»(4)

1- كان الأساتذة والطلبة يستفيدون من غلات الخضر والفواكه والحبوب حين نضجها وتوزع عليهم الكثير من الإكرامات في المواسم والأعياد وزيادة علي ذلك كان الناس يهبون للأساتذة والشيوخ هبات محترمة كالراحلة والمسكن ونصيب من الغلة.انظر :

- ابن سعيد الدرجيني: طبقات المشايخ بالغرب ج2، حققه ابراهيم طلاي، ب،ت ،ص510

- ابن القنفد: الفارسية ص151

- ابن خلكان: الوفيات مجلد 7، تحقيق إحسان عباس، ب ت، ص53

- القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، القاهرة 1914/1352

2- السيوطي: حسن المحاضرة ،ج2، ص74،163

د/ محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون - أعلام العرب 28، القاهرة، 1964ص43

3- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص40، 41

4- السيوطي: حسن المحاضرة ،ج2، ص67

2-4 شهادات التخرج:

لم تكن المؤسسات التعليمية في بلاد مصر وإفريقية إبان حكم الدولتين المملوكية والحفصية تسلم شهادات التخرج للطلبة الناجحين في مراحل دراستهم، بل كانت الإجازات الدراسية من التقاليد العلمية الرفيعة في ذلك العصر، وكانت لها قيم أدبية كبيرة، حيث تصدر من الأساتذة إلى تلاميذهم، أو الذين سمعوا عليه وتكتب في أساليب خاصة (1)، وفيها ينوه عادة بفضائل الصادرة إليه ومقدرته العلمية، ويذكر فيها ما قرأه من الكتب على أستاذه، وهي كتب التي يجيز له أن يقوم هو بتدريسها، وقد تكون هذه الكتب من تأليف الأستاذ الذي صدرت عنه الإجازة، وقد تكون من كتب غيره، وأحيانا تقتصر الإجازة على الإذن بالتدريس لمادة معينة، ومذهب فقهي معين والإفتاء به.

لقد حرص الأساتذة المجيزون على التشدد في امتحان الطالب بغرض التكوين الجيد من جهة والحفاظ على مصداقيتهم وسمعتهم في المجتمع من جهة ثانية(2)، وكان الطلبة في بعض الأحيان لا يكتفون بإجازة واحدة بل يسعون في طلب عدة إجازات من أساتذة مختلفين (3)، وكانت الإجازة في بعض الأحيان تتخذ صفة فخرية فتصدر من عالم كبير إلى زميله على سبيل الفخر والإعتزاز.

1- تكتب عابرة الإجازة على قطع عريضة وورق خاص، يراعى نوع القلم الذي تكتب به والمسافة بين السطور: راجع:

القلقشندي: صبح الأعشي -ج14، ط1، القاهرة 1335هـ/1917م ،ص322

2- ابن سعيد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، ص509

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج6، ص145

3- لقد عرض العالم أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي علمه على ما يزيد عن العشرات من الأساتذة العلماء لينظروا في قدرته العلمية فأجازوه كلهم انظر: ابن العماد الحنبلي: السابق ،ص146

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كمثال على ذلك نجد العلامة الحافظ بن حجر العسقلاني وجماعة من زملائه العلماء المصريين يطلبون من العلامةالفيلسوف ابن خلدون ليصدر لهم إجازة جماعية، وقد أصدر لهم ابن خلدون الإجازة (1) بخطه وتوقيعه، وقد استمرت هذه الإجازات مدى عصور، تقليدا علميا دائعا، وبقيت آثارها حتي العصر الأخير، ويظهر جليا من مراجعة صيغ الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي أن كتب الدراسة بالمدارس الكبرى والجوامع المشهورة كانت في الحديث مثلا الكتب الستة المشهورة: « كتب البخاري ومسلم، أبي داود، الترميذي، النسائي، ابن ماجة، مسند أحمد، الشافعي، والأربعين حديثا للشيخ محي الدين النووي، واللمحة البدرية في النحو للشيخ أثير الدين ابن حيان الأندلسي (2) وجذير بالإشارة إلى أن هذه الكتب تدرس أيضا في جوامع ومدارس الدولة الحفصية (3) مع زيادة أو نقص بعض الكتب وتعويضها بكتب أخرى.

إن طريقة امتحان الطالب هي أن يجلس إلى شيخه عدة أيام ليقرأ عليه المادة العلمية التي يريد الإجازة فيها، فيلاحظه الأستاذ في دقة التعبير، وجمال الأسلوب وفصاحة اللغة، هذا فضلا عن صحة المعلومات وتوثيقها، وقد اشتهرت القاهرة بوجود نخبة من الأساتذة المشهورين، الأمر الذي دفع بالكثير من الطلبة إلى الإنتقال إليها في سبيل الحصول على إجازات شيوخ كبار (4)

1- جاء في الإجازة: « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أجزت لهؤلاء السادة العلماء القادة، أهل التحصيل والإفادة والفضل والإجازة والإبداء في الكمال والإعادة جميع ما سألوه ورجوه من الإجازة وأملوه على شروطه المعتبرة عند العلماء البررة.. »

انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج14، ص325

2- القلقشندي: السابق، ص326

3- انظر:

الغبريني: عنوان الدراية ،ص26

ابن خلدون: العبر ج6، ص684

4- على مستوى دولة المماليك نجد الشيخ المعز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب الدمشقي الشافعي المعروف بابن عبد السلام عز الدين [577هـ-660هـ/1161م-1261م]

انظر: ابن الشماع: الأدلة البينة ،ص7، حاشية 3

من الطلبة من يكتفي بإجازة أكبر أستاذ في المدينة التي يقطنها وقد كانت تونس حاضرة الحفصيين تضم الكثير من الأساتذة الذين يجيزون الطلبة في مختلف ضروب العلم (1)، والملاحظة التي يجب الإشارة إليها هي أن طريقة الإجازة لا تختلف من مصر إلى إفريقية وإنما قد لا يتساوى المجيزون في درجة التشدد، ومقدار الحرص على مساءلة الطالب في جزئيات المادة، وللأستاذ الحق في أن يمتحن الطالب في بيته أو أي مكان بالجامع أو المدرسة (2)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- من الأساتذة المشهورين في تونس الشيخ أبي علي المنصور المشذالي (601هـ-683هـ/1203-1285) ولد في تونس ونشأ في مصر ثم عاد إلى بلاده إفريقية حيث أفاد الناس وأجاز الطلبة.

ابن العماد: شذرات الذهب ،ج5،ص301

ابن القنفد: كتاب الوفيات، ص344، حاشية رقم 1

2- كان الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري لا يتسامح في الإجازة ولا يُمَكّن منها إلا بعد التحصيل، وكان جلوسه للقراءة والرواية بالجامع الأعظم ببجاية

الغبريني: عنوان الدراية ،ص265

2-5 الرحلة العلمية:

لقد كانت حواضر البلاد الإسلامية في بداية القرن السادس الهجري - الثالث عشر الميلادي -تزخر بمختلف أصناف العلوم، وأصبحت فيما بعد ينابيع للفكر والنبوغ الإسلامي، حيث تميز القرن السابع بكثرة الإرتحال في سبيل العلم، فكان أكثر الأساتذة والعلماء روادا ينتقلون من بلد إلى بلد طلبا للعلم والمعرفة والطلاب من العامة والخاصة يتهافتون على طلب العلم ودراسةالفلسفات في جميع أنحاء العالم الإسلامي - ففي المساجد وهي جامعات المسلمين وكيانهم -كان يجتمع عدد كبير من العلماء حيث ينشرون أفكارهم ويلقنون معارفهم ومن ثم فقد كانوا دائبي الإرتحال من بلد إلى آخر للتدريس أو الإستفادة، يتنافسون فيما بينهم، فأقدرهم وأفقههم من جمع حوله أكبر عدد ممكن من المستمعين وطلاب المعرفة ويمكن الحكم على أمثالهم من خلال سيرة أثير الدين أبو حيان وسيرة ابن سعيد المغربي حيث انتقلا بيسر وسهولة من بلد إلى بلد ودرسا في كل من إفريقيا، طرابلس، القاهرة، دمشق، الحجاز (1) وزيادة على ذلك كانت تسند إلى بعض الرحالة مناصب سياسية وقضائية، ولقد رحل إلى مصر في القرن السابع الهجري عدد كبير من طلبة وعلماء إفريقية للأخذ عن علمائها وذلك لوجود الجامع الأزهر بها ذي الشهرة العلمية الواسعة في العالم الإسلامي (2) ولوقوع مصر في طريق الحج، فقد كان حجاج إفريقية وبلاد المغرب يقفون بها للدراسة أو التدريس أثناء ذهابهم أو إيابهم منه.

كان لأهل المغرب جميعا رواق خاص بهم، وهو رواق المغاربة، لا يستحق مرتباته وجراياته إلا من كان مالكي المذهب، وكان أهل هذا الرواق يمتازون عن غيرهم بكثرة النشاط والمنافسة(3)، ومن أهم علماء إفريقية الذين درسوا بمصر أو أقاموا بها في القرن السابع الآتي ذكرهم:

1- المقري: نفح الطيب ،ج2;ص262

2- د/ عبد الله عنان:تاريخ الجامع الأزهر ،ط2، القاهرة 1378هـ/1958

السيوطي: حسن المحاضرة ،ج1،ص242

3- علي مبارك: الخطط التوفيقية ،ج4، صص24-25

1- أبو العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغماري:(ت682هـ/ 1283م) (1) رحل إلى المشرق مبكرا، وقرأ هناك وحصّل المعارف العلمية النافعة، لقي جملة من الأساتذة منهم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، وغيره. اشتغل بالتدريس واعتمد الطريقة الحوارية حيث يجيئ بالمسألة الخلافية ويناقش أوجه الصواب والخطأ إلى أن يتضح الرجحان.تولى القضاء في بجاية بعد عودته من مصر، توجه رسولا إلى ملك المغرب من سلطان افريقية المستنصر بالله الحفصي .

2- أبو القاسم بن أبي بكر اليمني:(ت691هـ/1292م) اشتهر بابن زيتون وهو من أهل تونس،(2) رحل إلى المشرق مرتين وقرأ وحصل له علم بأصول الفقه، والعقائد الكلامية، له مشاركة في الحكمةوكان كثير الإهتمام بطلبة العلم، تولي قضاء حاضرة تونس، ويعتبر مصدرا للفتوى.

3-أبو زكريا يحي بن زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي (ت677هـ/ 1278م)(3) كان من الزهاد رحل إلى المشرق ولقي مشاييخ واقتصر على الشيخ المصري الفاضل أبي الحسن الحرالي حيث لقيه بالديار المصرية، وصحبه هناك مدة طويلة، وكان له أصحاب يرغبون منه الإنظمام في سلكهم فاستجاب لهم وأصبح فيما بعد من أئمتهم في علم التصوف، من مؤلفاته شرح أسماء الله الحسنى، وله في التصوف تقاييد كثيرة .

4- الشيخ أبو عبد الله بن عبد الرحمن الخزرجي:(ت691هـ/1292) رحل إلى المشرق وحج، وكانت رحلته بعد تحصيله، فزاد فضلا ونبلا، كان له علم بالعربية، وأصول الفقه، وله مشاركة مستحسنة في قوانين الطب، كانت له ديانة متينة، ولي القضاء في غير ما بلد، فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء والعقلاء، وقافا مع الصدق، معارضا للولاة فيما يخالف طريق الشرع، توجه مرات إلي مصر رسولا إلي سلطانها فحمد مسعاه و شكر منحاه(4) .

5-أبو علي الشيخ الفقيه منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي : (5) رحل إلى المشرق ولقي أفاضل العلماء نذكر من بينهم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام والشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، وشرف الدين ابن السبكي، وشمس الدين الإصبهاني قرأ وحصل له علم بالفقه وأصوله، له مشاركة مستحسنة في علم المنطق وعلم اللغة، وكل هذه المواد تقرأ عليه، أصبح من أهل الشورى والفتوى.

1- الغبريني:عنوان الدراية، صص54-55

2- الغبريني:السابق ،ص56

3- الغبريني: السابق ،ص60-61

4-الغبريني:السابق ص68-69

5- الغبريني: عنوان الدراية ،ص

6- علي بن موسى ابن سعيد المغربي :

فهو غرناطي المولد تونسي النشأة، أخذ عن أعلام إشبيلية كأبي علي الشلوبين وابن عصفور وغيرهم دخل القاهرة فجالسه الأدباء والعلماء (1) ومن بينهم جمال الدين بن مطروح والعالم ابن يغمور، وصاحبه الشيخ كمال الدين بن العديم إلى حلب وخصه السلطان الناصر صاحب حلب باستقبال وبعدها انتقل إلى بغداد ليعود مرة أخرى إلى تونس سنة 652 هـ/1253م بعد ما أدى فريضة الحج (2) من مؤلفاته كتاب:المحلى بالأشعار (3)، المغرب في حلي المغرب، والمشرق في حلي المشرق، وله كتاب مشهور في التاريخ عنوانه:الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد .

هكذا نرى أن معظم علماء افريقية الذين درسوا بمصر اعتبروها موطنهم الثاني وقد اشتغل هؤلاء الذين أقاموا بمصر بعدة وظائف فالبعض مدرسا بالأزهر أو المدارس الأخرى، أو مؤلفا، ومنهم من عمل بالطب، والإمامة، وغير ذلك ،وقد تنوعت اهتمامتهم الثقافية، فمنهم من اشتغل بالعلوم الروحانية، ومنهم من اهتم بكتابة التراجم والتأليف، ومنهم اللغوي، ومنهم الأديب والشاعر، وكثير منهم اهتموا بدراسة الحديث والفقه أو القراءات أو علم الكلام، وإلى جانب هؤلاء يوجد من اهتم بدراسة علم الفلك أو التاريخ والفلسفة.

يلاحظ أن علماء افريقية قد حرصوا على الأخذ عن بعض العلماء المصريين بعينهم كالشيخ الجليل العز بن عبد السلام، وقد ارتبط بعض العلماء ببعض الشيوخ المصريين ولازموهم ملازمة كلية(4)، وبعضهم اتصل بالسلاطين والحكماء الذين أجزلوا لهم العطايا ورتبوا لهم المرتبات .

أما الذين درسوا في مصر وعادوا لبلادهم فقد اشتغلوا هناك بالتدريس أو الإفتاء ولا شك أنه كانت لهم مكانة كبيرة بين ذويهم لكونهم قد درسوا بجامع الأزهر وهو من أهم المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي الذي يحظى خريجوه بمكانة هامة في المجتمع .وزيادة على الرحلة العلمية فإن هناك من ينتقل من إفريقية إلى الإسكندرية والقاهرة سعيا وراء اقتناء الكتب النادرة وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت بعض الكتب في مصر خلال القرن السابع الهجري أسماء دون مسميات (5) كان بعض العلماء من افرقية يشدون الرحال إلى مصر من أجل عرض مسائل فقهية أو علمية استعصى حلها علي علماء لهم قدرتهم في ذلك الفن فيسألونهم المشورة (6)

1- المقري: نفح الطيب، ص272

2- المقري: السابق ،ص273

3- المقريزي: الخطط ،ج2، ص376

4- انظر الصفحة 1 رقم من هذا الفصل

5- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - القاهرة 1349هـ/ ص35

6 -د/ محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ص150

من الأسباب التي ساهمت في الرحلة العلمية إلى مصر ذلك الإعتقاد في بعض الشيوخ المصريين مثل الشيخ جندل بن محمد العجمي (1) الذي اعتقدوا فيه الدعوة المستجابة لدرجة أنه إذا مرّ أحدهم بمصر وهو في طريقه إلى الحج ولم يصله بشيئ، اعتقد أن حجه غير كامل (2) ولهذا تراهم في ذهابهم وإيابهم إلى الحج مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب ليصلوه بالهدايا كل حسب حالته وثروته، وكان بعضهم يأتيه بمراسلات وهدايا من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها(3).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- كان زاهدا عابدا منقطعا صاحب كرامات وأحوال، كان الناس يترددون عليه، وزاره الملك الظاهر بيبرس مرات.انظر ذلك في :

ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب، ج5 ص347

2- عبد الرحمان الجبروتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج1، القاهرة 1297هـ، ص51

- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص44

3-الحياة العلمية في الدولتين:

إن عصر الدولتين المملوكية والحفصية قد امتاز بظهور علماء أفداد جمعوا بين المعقول والمنقول، وقوة الفكر مع قوة الدين، كالعز بن عبد السلام [578هـ/1197م-666هـ/1262م] ومحي الدين النووي [631هـ-696هـ/1233م-1298م] وشهاب الدين بن فضل الله العمري [700هـ-749هـ/1300م-1348م]، ومحمد بن علي بن وهب بن مطيع المعروف بابن دقيق العيد [635هـ-702هـ/1238-1303م] (1) وغيرهم كثيرون في مصر أما في بلاد افريقية فقد ظهر علماء لا يقلون شهرة عن هؤلاء نذكر من بينهم الشيخ النحوي المؤرخ اللغوي أبي جعفر بن يوسف الفهري المعروف بأبي العباس وهو من علماء المشرق والمغرب استوطن بجاية وتوفي في نهاية القرن السابع الهجري - الثالث عشرالميلادي - وقاضي الجماعة بتونس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الخزرجي ابن الغمار [609هـ-693هـ/1212م-1295م] (2) وابن سعيد المغربي الأديب الرحالة مؤلف كتاب المغرب في حلي المغرب، والمشرق في حلي المشرق [610هـ-685هـ/1212م-1287م] وقبل هؤلاء جميعا نجد علماء التصوف الذين جمعوا بين المناهج الفلسفية العقلية والمنازع الروحية الخالصة، وكان من وراء أصحاب الطريق يقودون العوام من الناس يرشدونهم إلى مناهج السلوك الذي سنه علماء الصوفية وهم الذين كرسوا تقديس الشيوخ والإعتقاد فيهم واتباعهم في الحياة وتكريمهم بالزيارة بعد الوفاة، والحقيقة التي نخلص بها أن نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين قد امتازتا بكثرة العلم، فقد كانت المعلومات كثيرة جدا وتحصيلها كان بجهد عظيم، ويمكننا أن ننظر إلى ثمار الفكر الإسلامي في المشرق والمغرب لنرى الإحاطة في كل إقليم بما يجري في غيره من الأقاليم، برغم تباعد المسافات وصعوبة الإنتقال .

1-هو تقي الدين القشري المعروف بابن دقيق العيد، كان قاضيا محدثا من أكابر العلماء بالأصول ولد في ينبع على ساحل البحر الأحمر، انتقل إلى قوص ثم بعدها إلى القاهرة واتصل بالشيخ العز بن عبد السلام من مؤلفاته . الإلمام بأحاديث الأحكام، الإقتراح في معرفة الإصطلاح، شرح الأربعين النووية.انظر:ابن القنفد القسنطيني:كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1400/1980ص328، حاشية رقم 3

2- هو أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الخزرجي المعروف باسم أبو العباس بن الغماز وهو فقيه مالكي مقرئ ، محدث، من أكابر القضاة ولد سنة 609هـ/1211م في بلنسية وبها نشأ وتعلم انتقل إلى بجاية واستوطن بها وولي قضاءها ثم انتقل إلى تونس وولي قضاءها ، ووثق به صاحبها المستنصر بالله الحفصي فكان ينتدبه للمهمات .انظر:

الزركشي: تاريخ الدولتين ،صص38-44

ابن القنفد السابق ، ص334،حاشية رقم 1

3- 1علوم اللغة والدين:

بدأت الدراسات اللغوية في افريقية وبلاد المغرب عامة تعتمد أول الأمر على مصنفات علماء المشرق أمثال سيبويه، والزمخشري في كتابه المفصل ،الزجاجي في كتابه الجمل (1) وغير ذلك من كتب اللغة والأدب، واستمرت الدراسات اللغوية في عهد الدولة الحفصية اعتمادا على المصنفات المشرقية، مع ظهور انتاج علماء افريقية والمغرب في اللغة والأدب .

فظهر علماء كبار أمثال الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي أبي جعفر بن يوسف الفهري (2) الذي ألف كتاب الإعلام بحدود قواعد الكلام، وشرح الفصيح لثعلبة، وغيرهم ،ظهر أيضا الشيخ أبي جمال الدين بن مالك(3)، صاحب التسهيل والألفية وكان من المقربين للشيخ ابن خلكان أيام اشتغاله بالإمامة في المدرسة العادلية بدمشق حيث أجاز الكثير من علماء المشرق والمغرب، من مؤلفاته تسهيل الفوائد، وقد مدحه الشيخ العارف سعد الدين محمد بن عربي بأبيات شعرية قال فيها(4):

إن الإمام جمال الدين جمـــله رب العلا ولنشر العلم أهله
أملى كتابا له يسمى «الفوائد» لم يزل مفيدا لدى لب تامه

1-ابن خلدون:العبر، ج6، ص684

الغبريني:عنوان الدراية، ص26-27

أ. عبد العزيز فيلالي:جوانب منالحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سيرتا، جامعة قسنطينة العدد 1988/1408.10ص80

2- هو أبو جعفر بن يوسف الفهري اللبي ويكنى أبا العباس، قرأ بالأندلس ثم ارتحل إلى العدوة وسكن بجاية ودرس بها مدة ثم ارتحل إلى المشرق ورجع مرة أخرى إلى تونس حيث اشتغل بالإقراء في نهاية القرن السابع الهجري .انظر :

المقري:نفح الطيب ،ج2، بيروت 1388هـ/1968ص208-209

الغبريني:السابق، ص211

3- هو أبو عبد الله جمال الدين أحد الأئمة في علوم العربية ولد سنة 600هـ نشأ وتعلم بدمشق تصدر للتعليم في حلب، اشتهر بالألفية التي نظمها في النحو وتعرف باسمه« ألفية بن مالك».انظر:

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص243

ابن القنفذ: كتاب الوفيات، ص332حاشية،رقم 1

4- المقري: السابق ص225

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من وراء هؤلاء العلماء وغيرهم علماء وشيوخ ظهروا في عصر الدولتين وانتقلوا مدرسين من إقليم إلى إقليم ومن الأمثلة على ذلك الشيخ الفقيه النحوي إمام عصره في هذا الفن أثير الدين أبو حيان الغرناطي المولد والنشأة، شيخ النحاة في المغرب والمشرق حيث درّس في مدارس وجوامع افريقيا ثم انتقل إلى الإسكندرية والقاهرة والحجاز (1) وتوفي بالقاهرة سنة 745هـ/1346م.

من الذين أنجبتهم أرض المشرق في القرن السابع الهجري الشيخ العلامة أبي البقاء محب الدين عبد الله(2) الذي كان أوحد زمانه في النحو واللغة والحساب هكذا جاء في كتاب شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي وإلى جانب هؤلاء كان الشيخ الإمام صاحب التصانيف العظيمة، محي الدين أبو زكريا النووي (3) المولود سنة[631هـ/1232م-676هـ/1277م] كان مدرسا لجملة من المواد، ومن بينها مادة النحو واللغة والتصريف، له عدة تصانيف منها المنهاج في شرح مسلم ورياض الصالحين، التبيان في آداب حملة القرآن، وكتاب تحرير الألفاظ وكتاب المبهمات (4)

1- أثناء رحلته وإقامته في المشرق أجيز في عدة كتب نذكر من بينها الموطأ للإمام مالك ومسند الشافعي، ومسند الدرامي ،ومسند عبد بن حميد، ومن تصانيفه اللغوية كتاب الجريد لأحكام سيبويه، الإرتضاء في الفرق بين الضاد والظاد .انظر ذلك في كتاب :

المقري:نفح الطيب ،ج2،ص552

2- كان أبو البقاء معيدا في بداية أمره للشيخ أبي فرج بن الجوزي، وكان يفتي في تسعة علوم وهي النحو، اللغة، الحساب، الفرائض، الجبر، المقابلة، الفقه، وإعراب القرآن والقراءات الشاذة وله في كل هذه العلوم تصانيف، انظر :

ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب ،ج5، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، ب ت، ص67،68

3-ابن العماد :السابق ص 354

4- السيوطي:حسن المحاضرة، ج1،ص317

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما في علوم الدين فقد بلغ علماء المشرق والمغرب في عهد الدولتين الغاية ونبغ منهم كثيرون في علوم الحديث والتفسير والقراءات والفقه والعقائد، فكأنما كانت كارثة بغداد المتمثلة في سقوط الخلافة الإسلامية و إتلاف خزائن الكتب وإعدام العلماء دافعا قويا للعلماء لتركيز جهودهم على التأليف والتعليم، فكان أن ظهرت موسوعات فريدة من نوعها تميزت بغزارة المادة وتنوع الموضوعات مثل موسوعة نهاية الأرب للنويري [660 هـ-732هـ/1261م-1334م](1) ثم جاءت موسوعة مسالك الأبصار للعمري وفيها علوم الفقه، واللغة، والتاريخ، وغير ذلك (2) وظهر علماء كبار مثل محمد بن علي بن وهب المعروف بابن دقيق العيد [635هـ-702هـ/1236م-1304م] (3) وكان إلى جانب علمه الواسع في الفقه المالكي، قد برع في علوم الحديث، من تصانيفه التي نالت شهرة واسعة، كتاب:أحكام الأحكام، وكتاب الإلمام في أحاديث الأحكام، وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية (4)، ومن علماء الدين البارزين الشيخ العلامة محي الدين النووي المشار إليه سابقا، فقد كان حجة عصره في الحديث، والفقه، إلى جانبه الشيخ المعزبن عبد السلام وغيرهم كثيرون.

هذا على مستوى المشرق الإسلامي، أما على مستوى افريقية وبلاد المغرب فمثلما كانت صدمة سقوط الخلافة حافزا للعليم والتأليف، فإن عملية التصفية الجسدية لمسلمي الأندلس، كانت دافعا واضحا لعلماء المغرب للقيام بحركة علمية واسعة النشاط فقد أوقفوا أنفسهم على شرح الكتب المتوارثة، وتوضيحها، وردها إلى مصادرها الأولى، والخوض في التأليف لمواضع جديدة ومن الذين إنبروا لهذه المهمة النبيلة :

1- د/ محمد عبد الله عنان:مؤرخو مصر الإسلامية، القاهرة 1388هـ/1969م ص95

2- د/ محمد عبد الله عنان:السابق ص96

3- انظر ترجمته في الصفحة من هذا الفصل

4-د/ محمد الزحيلي:العلوم الإسلامية، دمشق ط2،1413هـ/1992م ،ص270

ابن خلكان:وفيات الأعيان ،ج4 ،ص23

أثير الدين أبو حيان (1) الذي سمّع الكثير بالأندلس، وبلاد إفريقية والإسكندرية، والقاهرة وغير ذلك شرح مختصر المنهاج للنووي، وله كتاب في التفسير، النافع في قراءة نافع، ومن هؤلاء العلماء الحفصيين الإمام ابن عرفة أحد مجددي المذهب المالكي في المغرب والمشرق (2) من الكتب التي ألفها المختصر الكبير في الفقه المسمى بالمبسوط، وله مختصر الفرائض ،مع هذه الجماعة من الشيوخ نجد العالم أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات مؤلف كتاب "مزكى الفؤاد في الحظ على الجهاد"، ومصنف "حلا الإلتباس في الرد على نفاة القياس "(3) وإلى جانب هؤلاء العلماء نذكر العلامة محمد بن راشد القفصي (ت736هـ/1337م)(4) والشيخ محمد بن هارون (ت750هـ/1351م)(5) وغيرهم من أساتذة علوم الدين .

1- سبق وأن تكلمنا عن الشيخ في السابق انظر

2- الشيخ محمد النيفر: عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسيةمن عالم أديب ،ج 1،ط1، تونس 1351 هـ/ ص70

3- الشيخ محمد النيفر:السابق ص71

4- هو عبد الله بن راشد نسبا القفصي بلدا المعروف بابن راشد وهو فقيه مالكي، تولى القضاء بتونس، ثم رحل إلى المشرق وبعد عودته تصدر للتدريس في جامع الزيتونة (ت750هـ/1351م)والتقى بعلماء الإسكندرية والقاهرة وسمع منهم تذكر من بينهم قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، من مؤلفاته لباب اللباب في فروع المالكية، المرتبة السنية في علم العربية

- ابن القنفد القسنطيني:كتاب الوفيات ،ص346،347، حاشيةرقم3

5- هو أبو عبد الله محمد بن هارون الكناني التونسي، تولى القضاء بغير تونس، رحل إلى المشرق ثم عاد يتفرغ للتدريس، من مؤلفاته: شرح مختصري ابن الحاجب، شرح المدونة.انظر :

ابن القنفد القسنطيني السابق، ص354-355، حاشية رقم4

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3-2التاريخ والجغرافية:

بعد ما كانت الروايات العربية تقتصر على سرد الحوادث المجردة، وتعنى بسير الخلفاء والملوك والقادة وغزواتهم منذ عدة قرون دون التعرض إلى النظم السياسية والإجتماعية التي عاشت في ظلها هذه الشعوب، فإن التآليف التاريخية التي ظهرت في القرن السادس والسابع الهجريين قد سادها الأسلوب العلمي الذي لا يحفل ببراعة التصوير وروعة التعبير وإنما كل همه أن يروي الحادثة كما وقعت أو يعللها حسب تقديره هو في غير ماتخير للفظ ولا تأنق في الأسلوب ومن الأمثلة على ذلك في كتب المشارقة كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (1)وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان والذي يعد من كتب التراجم وأشهرها ومن كتب المغاربة كتاب:تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي.وكتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلي المشرق لابن سعيد المغربي.ثم نرى هذه النزعة العلمية الناقدة تبلغ ذروة التحليل والتعليل عند ابن خلدون على مستوى المغرب الإسلامي حيث يتعرض إلى قوانين العمران، ونظم الدولة في مبادئ السياسة، وأطوار الحياة الشعبية، وبالمقابل ظهر المؤرخ المقريزي الملقب بشيخ الفقه التاريخي في القاهرة، وقد أولى اهتماما فائقا بنواحي السياسة والإجتماع فيما يدون من تاريخ مصر وقد أخرج المصريون في عهد دولة المماليك الأولى أعظم وأبدع نماذج الموسوعات العلمية، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري الذي وضع موسوعته نهاية الأرب في فنون الأدب جمع فيها تاريخ المغرب والمشرق .

زيادة على ما أورد فيها من علوم الحديث وآداب في مختلف المواضيع، وقد أصابت الدولتان من مؤلفات التاريخ قسطا كبيرا، ويرجع الفضل إلييمجموعة كبيرة من المؤرخين نذكر من بينهم المقريزي، وابن التغري بردي، ابن إياس، والمراكشي، وابن عذاري، وابن الأبار، وابن خلدون هؤلاء جميعا عنوا بتدوين التاريخ الإجتماعي والإلمام بأحوال شعوب المشرق والمغرب الإسلاميين .

1- جمال الدين بن سالم بن واصل:مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال ،ج3، القاهرة، ب ت، ص79، 197،194

من الأمثلة التي يمكن ذكرها عن اهتمام علماء الدولتين بأحوال السكان، وتوزيعهم وطبيعة الأرض ومصادرها الباطنية من معادن ومياه وغير ذلك، تآليفهم الجغرافية التي بدأها أسلافهم من قبل كالبيروني في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة، ألفه في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي -.. ثم جاء من بعده العالم الشهير الشريف الإدريسي [1019 م-1166م] الذي أذهل علماءعصره بكتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ألفه للملك روجر أحد ملوك صقلية وفيه الجغرافية الإقتصادية، والإجتماعية والتضاريس المختلفة لمناطق العالم وما إن حل القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - حتي صنف الشيخ العالم الجليل شهاب الدين ياقوت الحموي كتابه : معجم البلدان ،الذي يعتبر من أهم ما صنف العرب في هذا الميدان ثم بعده مباشرة يظهر عالم آخر هو الشيخ زكريا بن محمد القزويني (ت681هـ/1283 م) وترك لنا كتابا مهما هو آثار البلاد وأخبار العباد وله كتاب أخر هو عجائب المخلوقات ألفه سنة 674 هـ /1275م.ويقابله في بلاد افريقية والمغرب العالم الشهير ابن سعيد المغربي (611هـ-683هـ/1213 م-1286و) الذي ألف كتابه كتاب الجغرافية ومن بعدهم في أواخر القرن السابع ظهر العالم الجليل أبوالفداء اسماعيل بن علي عماد الدين (671هـ-730هـ/1273م-1331 م) وقد ترك لنا كتابه العالم:تقويم البلدان وقد ترجم إلى اللغة الفارسية في ثلاثة أجزاء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3-3التصوف :

نظرا لتعقد ظاهرة التصوف وتعدد مستوياتها، فإنني لا أتعرض إلى المستوى الفكري لهذه الظاهرة، ولا أتتبع نظرات الطرق إلى اهتمامات الإنسان والوجود والتعرف على الوجه الأصيل ولا أتطرق إلى جذور الحركة الصوفية في المشرق والمغرب الإسلاميين لطول الموضوع وتشعبه (1) وإنما سأقتصر على محاولة فهم محدودة بالزمان والمكان لدور الحركة الصوفية في الحياة العلمية للدولتين من الناحية التاريخية.

لقد شهد القرن السابع الهجري منذ بدايته حركة صوفية نشيطة خاصة في مصر والشام ذلك لأن رجال السنة المطهرة من الفقهاء والمتصوفين لم يكونوا يفضلون الرحلة والإقامة في مصر إلا بعد أن ضعفت دولة الفاطميين (2) وقام على أنقاضها حكم بني أيوب بزعامة السلطان الناصر صلاح الدين سنة 567 هـ/1168م الذي عمل على دعم انتشار المذاهب السنية ومن ثم ظهر رجال ممتازون ذوو نزعة خاصة بالتصوف، وحمل مشعل التصوف في مصر ابتداءا من الربع الأخير من القرن السادس وجملة من الشيوخ نذكر واحدا منهم وهو الشيخ علي بن حميد أبو الحسن بن الصباغ (3)، الذي انتهت إليه مشيخة الفقهاء والمحدّثين من أهل الظاهر، وكذلك كان شيخ طائفة السالكين وجماعة المريدين

1- يرى ابن خلدون أن المتصوف نقلوا مذهبهم عن الشيعة وفي ذلك يقول ò.. حتى أنهم أسندوا فرقة التصوف وجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم ورفعوه إلى علي رضي الله عنه أليس علي بن عبد المطلب هو معبود الشيعة أليس هو الذي أثنى على الحسن البصري إمام الصوفية ..â المقدمة ص147

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص169

2- كانت مدن مصر الكبري مقرا للدعوة الإسماعيلية أيام الدولة أيام الدولة الفاطمية التي كانت تضايق زهل السنةوتمنعهم من النشاط الدعوي.انظر:

-نور الدين الشطنوفي:بهجة الأسرار ومعدن الأنوار مصر 1304هـ/ ص220

3-هو أبو الحسن الصباغ ولد في 550هـ بقوص وتوفي سنة 612هـ انتهت إليه رئاسة التصوف في الديار المصرية وبه غدقت تربية المريدين.انظر :

نور الدين الشطنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص222.

انظر أيضا: ابن العماد: شذرات الذهب ،ج5. حوادث 612هـ

من الذين يعدون ضمن فريق المتصوفين وكثر عدد الأتباع في معظم المدن المصرية، وخاصة في مدينة قوص حاضرة الصعيد المصري (1) ومع مرور فترة زمنية ظهرت منازع فكرية كان أساسها الإتباع والتقليد دون النظر المجرد والتفكير وقد تصدى لهذا الإتجاه جملة من العلماء من بينهم الشيخ ابن تيمية رحمه الله، والشيخ العز بن عبد السلام (2) .

أشير إلى أن الفكر الصوفي بقي يساهم في تنشيط الحياة العلمية في مصر، واشتهر الكثير من شيوخه نذكر من بينهم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري، الذي احتفظ بكرسي التعليم في جامع الأزهر الشريف ليشرح آثار القوم وآثار السلف إلى أن توفي سنة 709هـ/1310م، وقد ظفرت حكمه بعدة شروح أهمها شرح الرندي وشرح الشرقاوي (3)

أما في تونس والمغرب عامة فإن أمر التصوف في نفس تلك الفترة التي سبق ذكرها لم يكن يختلف عما وجدناه عليه في مصر إذ كان أكثر صوفية تونس وباقي مدن الدولة الحفصية يتبعون المنهج الذي وضعه الشيخ الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي (4) والذي يرتكز على نظرية وحدة الوجود والحب الإلهي وهذا يستلزم القول بالعشق لأن السالك أو المريد الذي يبتغي الوصول إلى الله يهيم دون شك في حب مولاه .

1- لقد شهد بذلك الشيخ ابن جبير في رحلته حيث قال:« بلغ عدد مدارس المتصرفة في بلاد قوص وحدها إثنا عشرة مدرسة ..» انظر رحلة ابن جبير ص150

2- محمد أبو زهرة:ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربي، ب ت ص163

3- د/ زكي مبارك : التصوف الإسلامي ،ج1 ،بيروت، ب ت، ص114

4- هو شيخ طائفة الشاذلية نسبة إلى شاذلة، وهي قرية بإفريقية تعلم بها وبعد تعلمه سلك منهاج التصوف، وجد واجتهد حتى ظهر صلاحه، رحل إلى المشرق والتف حوله الكثير من الأتباع، توفي بصحرا عذاب بمصر أثناء ذهابه إلى الحج سنة 656هـ/1257م. انظر :

ابن العماد :شذرات الذهب ،ج5، ص278

لقد توسعت الدراسات الصوفية في بلاد المغرب، وانتشرت المدارس منها مدرسة الطريقة السلامية بصفاقس، وهذه الطريقة تعتبر امتدادا لأراء ونصائح الشيخ الششتري (1) التي تدور حول الحب الإلهي ومن المتصوفة الذين ظهروا في بلاد افريقية وذاع صيتهم في المشرق والمغرب الشيخ أبي الحسن بن أحمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالي التجيبي (ت 637هـ/1239م)، الذي رحل إلى المشرق والتقى بجملة من الشيوخ (2) وزاد علمه ثم رجع إلى بلاد افريقية معلما، وكان يتمثل دائما بالقول:العقل أصل ديني، الحب أساسي، الشوق مركبي، الثقة كنزي، الزهد حرفتي (3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الششتري (أبو الحسن علي):ديوان الششتري:تحقيق علي سامي النشار، الإسكندرية 1380هـ/ 1960م، ص134

2- التقى بالشيخ عز الدين بن عبد السلام ووقع الكلام بينهما، ثم استقبله سلطان مصر ووقع كلام بينهما فخرج غاضبا من مصر راجعا إلى بلاد افريقية انظر :

الغبريني:عنوان الدراية ص87

3- الغبريني:السابق ص94

3-4العلوم العقلية:

الملاحظ أن العناية بالعلوم الشرعية كانت فائقة وذلك لما للدين من منزلة في النفوس، وإلى جانب هذا كانت نفوس الكثير من العلماء والباحثين تتوق إلى الإشتغال بعلوم الأمم المتحضرة قبلهم من منطق وطبيعيات، ورياضيات وما تفرع منها من طب وصيدلة وفلاحة، وقد نبغ في كل علم من العلوم العقلية طائفة كبيرة من علماء المسلمين في القرن السابع الهجري- فمن الذين نبغوا في الطب الشيخ الشهير ابن نفيس [609 هـ/1210 م-685 هـ/1288 م](1)، وهو الذي أشرف على إدارة البمارستان المنصوري، وكان عميدا للمدرسة الطبية بها في القاهرة وقد ألف كتابه موجز القانون أوجز فيه قانون ابن سيناء وغيره من الأطباء في مصر ودمشق كثيرون ومن مظاهر التطور العلمي في المغرب وعلاقته بما يحدث في مصر نجد على سبيل المثال العالم الطبيب أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس (2) قد تفوق في العلوم الطبية وجلس لفحص المرضى والبحث العلمي في مدينة بجاية ودرّس قانون ابن سيناء(3) ومن الأطباء المشهورين في دولة الحفصيين نذكر:الشيخ أبي الحسن المروزي الذي يعد من فضلاء الأطباء في بلاد افريقية، وأبو العباس أحمد الذي زار بلاد المغرب وافريقية وأصله من فارس (4) وكذلك شأن بقية العلوم العقلية الأخرى كالهندسة والسياسة، والفلسفة، وغيرها فقد تطورت العلوم الهندسية لحاجة العصر إليها في المباني المختلفة من مساجد، ومدارس، وقصور ومد الجسور ومد قنوات المياه(5).

1- د/ محمد عبد الرحمن مرحبا:الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت ط3، 1981،ص97 وقد ذكر السيوطي أن الشيخ شمس الدين بن عبد الرحمن (ت676هـ) كان يتولى تدريس الطب في جامع ابن طولون:حسن المحاضرة ،ج1، ص262

2- الغبريني:عنوان الدراية، ط1، الجزائر 1328هـ/1910م ،ص25،106، دائرة المعارف الإسلامية مجلد 3، مادة بجاية.

3-الغبريني :السابق

4- الغبريني:السابق ص26

5- ظهر في هذا العهد مهندسون بارعون نذكر من بينهم العالم أبو الفتح بن منعة الشافعي الذي ألف كتاب «شرح الأعمال الهندسية » وكان يدرس بالمدرسة الكمالية بالموصل، انظر:ابن القنفد:كتاب الوفيات، ص347; حاشية رقم 3

أما السياسة فقد ألفوا فيها كتبا ومن ذلك كتاب بدل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية (1) وفيه نصائح للحاكم المسلم، وعلاقته بحاشيته ثم بالمحكومين وكتاب آثار الأول في تدبير الدول، الذي ألفه الشيخ حسن بن عبد الله العباسي، وقدمه إلى السلطان الظاهر بيبرس، وفيه يتكلم عن أحوال الملك مع خواصه وخدمه وعن قواعد المملكة (2) وفي هذا العصر ظهرت مؤلفات يصعب حصرها فمن كتب المعاجم ظهر كتاب لسان العرب لابن منظور الإفريقي (ت711هـ/1312م) والمصباح المنير ألفه أحمد بن علي المقري الفيومي (ت770هـ/1372م) وكتب التراجم ظهر كتاب وفيات الأعيان لشمس الدين أبي العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان (608هـ/681هـ) ومن كتب الموسوعات ظهر كتاب مسالك الأبصار للشيخ أحمد بن فضل الله العمري وصبح الأعشى للقلقشندي، والعبر للشيخ الفيلسوف بن خلدون وغيرهم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ألف الكتاب الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة المصري (ت710هـ/1311م).انظر :
محمود رزق سليم:عصرسلاطين المماليك - القاهرة 1368هـ/1949م، ص158،173

2- محمود رزق سليم:السابق ص180

الفصل اثاني

العلاقات الاقتصادية بين الدولتين

تقديم
موقع الدولتين وأثره التجاري
دور المدن الإيطالية في تطوير التجارة في الدولتين
الرسوم والضرائب-الأسواق-إحتكار السلع-أهم السلع المتبادلة
الموازين والمكاييل
العملة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقديم

يحدثنا التاريخ أن نظام حكم المماليك في مصر والشام إتسم بالإقطاع، فقد رأوا أنه يعد من أفضل الطرق لتنمية مواردهم، ولتغطية كافة احتياجات الجيوش ولهذا السبب ظلت الأراضي وقفا على السلطان وكبار الأمراء وأجنادهم الذين فرضوا على الفلاحين الإرتباط بعمل فلاحة الأرض وزراعتها (1).

وهكذا تكون مجتمع طبقي في مصر والشام، الأمر الذي أفضى إلى علاقات اجتماعية طبقية في كافة أنواعها تاركة آثارا على الحياة اليومية في مدن وقرى الدولة المملوكية وجدير بالإشارة إلى أن الدولة المملوكية في صدرها الأول عرفت حياة زاهية زاخرة بالحركة والنشاط الإقتصادي، وذلك بفضل سلاطين أقوياء لديهم المقدرة على توجيه المجتمع المصري والشامي نحو آفاق أفضل، فقد وفق السلطان الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون من بعده في إرساء دعائم الأمن والإستقرار في بلادهما، الأمر الذي وفرّ للدولة المهابة في الخارج، والإستقرار في الداخل، فراجت بذلك التجارة المملوكية(2)، وغزر الإنتاج الفلاحي، وأدى كل ذلك إلى إقتصاد قوي، فأمست مدن الدولة المملوكية حافلة بالمنشآت التجارية مثل الأسواق اليومية، والأسبوعية والقيساريات (3) ، والوكلات لنزول التجار الوافدين.

ونتيجة للنشاط التجاري المزدهر، عاش التجار في بحبوحة من العيش، وسادهم التنافس في تشييد الدور الفخمة، وبناء المدارس مع تخصيص أوقات لها(4)، هذا على مستوى دولة المماليك أما إذا انتقلنا إلى إفريقيا بلاد الحفصيين فإننا نجد أنفسنا أمام نظام آخر ذلك أن دولة الحفصيين منذ نشأتها كانت منشغلة بترتيب أوضاعها الإدارية والسياسية مما أعطى الفرصة للنظام القبلي لكي يبسط نفوذه، ويفرض طريقته التي اعتادها منذ عصر الدولة الموحدية(5)، واستمر دور شيوخ القابئل في التأثير على تسيير دوالب الحكم. وكان لهذا الدور نتائج أخرى على الجوانب الإجتماعية والإقتصادية، الأمر الذي أتاح الفرصة للقبيلة أن تنظم جيشا خاصا بها يستنفر أثناء الهجوم الخارجي على حدود القبيلة وأثناء السلم يشارك في فلاحة الأرض، وتجارة المواد المختلفة، وقد حرصت القبائل على فلاحة الأرض، وتنظيم أسواق أسبوعية أو نصف شهرية.

1- المقريزي : الخطط، ج1، القاهرة، د، ت، مصر 84-85

2- د.قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، القاهرة 1978، ص33، 35

3- هي أسواق دائمة مغطاة ، انظر المقريزي : السابق، ج2، ص432

4-المقريزي: السابق، ج2، ص433

5- كان المجلس الاستشاري لدولة الموحدين يتشكل من شيوخ القبائل، انظر : الزركشي: تاريخ الدولتين ص4.

إن هذا النمط من النشاط الفلاحي والتجاري أعطى قوة ودفعا واضحا لنمو القطاع الخاص الذي لعب دورا مؤثرا في تجارة الدولة الحفصية على المستوى الداخلي والخارجي فقط، فظهر على مستوى الأسواق الداخلية التنوع في السلع والمواد، والتخصص في الأسواق(1)، وقد سمح هذا الوضع الإقتصادي في إفريقيا بظهور طبقة من الأثرياء والميسورين لهم مكانة كبيرة في المجتمع لفضلهم وتبرعاتهم على إعداد وتجهيز الحملات العسكرية والإنفاق على مختلف الفيئات الإجتماعية الفقيرة، هذا فضلا عن تأسيس المدارس والوقف عليها من أملاكهم العقارية(2).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- مثل سوق الشماعين، وسوق العطارين.. ابن الشماع : الأدلة ص11

2- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص10

موقع الدولتين وأثره التجاري:

تعتبر إفريقيا (1)، أول أقاليم المغرب الحقيقي، وأن المسلمين الفاتحين هم الذين أخذوا إسم إفريقيا عن الرومان الذين أطلقوا إسم أفريكا Africa على ممتلكاتهم في قرطاجنة أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاءالغربية لولاية طرابلس (2)، إضافة إلى الحدود الشرقية لبلاد الجزائر كبجاية وقسنطينة الممتدة إلى حدود الجزائر العاصمة حاليا، وبعد أن تحددت مسميات الأقاليم الشرقية من المغرب بمفهومه العام إتضحت حدود المغرب الحقيقي من إفريقيا إلى سواحل البحر المحيط، وإبتداءا من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ميّز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة فأسموها المغرب الأقصى(3)، وهكذا انقسمت بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام، إحتفظ إثنان منها باسم المغرب مع إضافة الصفة المميزة وهي الأوسط والأقصى وعرف القسم الثالث باسم إفريقيا أو بلاد القيروان(4)، ولهذه الأخيرة صلة تكاد تكون مباشرة بمصر ساعدت في ذلك عوامل طبيعية متجانسة في كثير من الخصائص ويمكن انطلاقا من ذلك تقسيم البلاد جميعا بما فيها مصر إلى ثلاثة أقسام:

1- الإقليم الساحلي: يمتد هذا الإقليم من شواطىء الإسكندرية إلى طنجة بالمغرب الأقصى ثم يأخذ اتجاها آخرا مع الإنحناء قليلا نحو مدينة لولLOULE في بلاد السوس.

2- الإقليم الثاني: وهو الإقليم الصحراوي الذي يمتد من غرب مصر إلى جنوب المغرب الأقصى وفي هذا الإقليم تمتد سلاسل الجبال الصحراوية التي تعرف باسم العرق(5)، وعلى هذا الأساس نجد الرحالة ابن سعيد في كتابه الاستبصار يخصص فصولا كاملة للبلاد الساحلية مستقلة عن تلك التي خصصها للبلاد الصحراوية(6).

3- الإقليم الثالث: وهو الإقليم الممتد من بلاد مصر إلى الحدود الغربية للمغرب الأقصى، وهو الذي يشكل السلاسل الجبلية الموازية للبحر والتي تعرف بالتل، وهذا الإقليم ينفرد بمميزات تجمع بين صفات الإقليم البحري والصحراوي، حيث يمده البحر بالرياح ويلطف مناخه ويسوق الأمطار نحوه.

1- ناقش العلماء المحدثون كلمة افريقيا واختلفوا في أصلها منهم من ردها إلى إسم مكان، ومنهم من ردها إلى إسم شخص أوقبيلة ثم أعطى الإسم للمكان : أنظر: حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ط1، ص4انظر أيضا GAUTIER, LE PASSE DE L'AFRIQUE PARIS 1935 P125

2- ابن الشماع في كتابه : الأدلة البينة، انظر :ابن الشماع : الأدلة البينة ص39

3- ابن خلدون : العبر، ج 6، ط1، القاهرة 1946، ص98-99

4- ابن سعيد: الاستبصار، ط1، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت 1984، ص145

5- العرق: هو عبارة عن سلسلة من المرتفعات الرملية تمتد على شكل جبال إلى مسافات بعيد وتوجد بالصحراء الجزائرية الكبرى انظر: د.سعيد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، الاسكندرية، 1979، ص75ابن خلدون: العبر، ج6 ص100

6- ابن سعيد: السابق، تح، اسماعيل العربي، بيروت1984، ص126

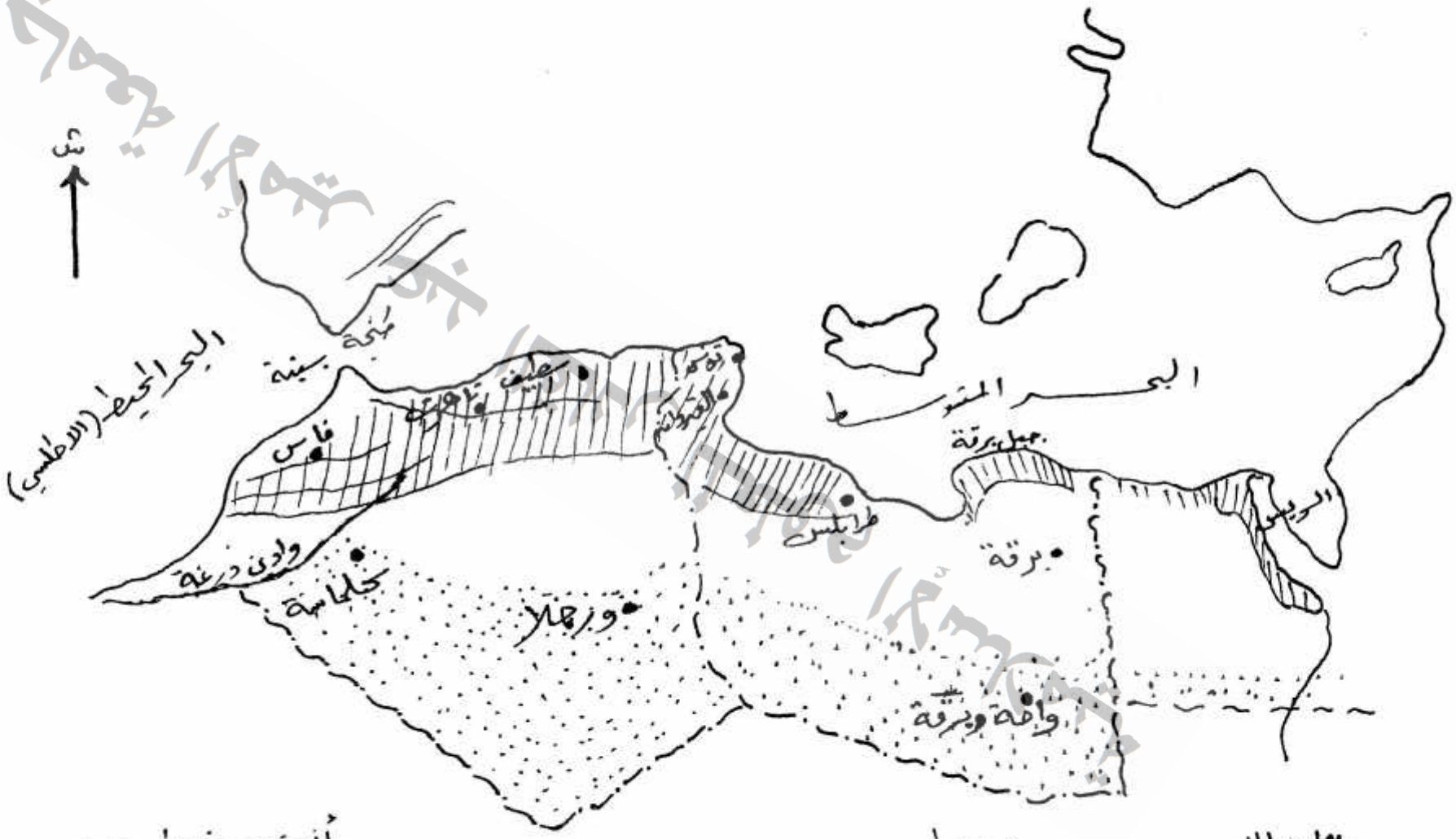

بلاد المغرب ومصر - الشكل الطبيعي والأقاليم المختلفة.

أعدت هذه الخريطة بلاد المغرب
مقياس: 1/5000000

طرق القوافل التجارية:

كان تجار بلاد النوبة يلتقون بتجار بلاد افريقيا عند دلتا نهر النيل ويتخذون الطريق المؤدي إلى الجنادل مستعملين الجمال لحمل بضائعهم التي يبيعونها في أسواق القاهرة والإسكندرية ودمياط.

أ- الطريق البري: كان تجار الدولة الحفصية يسلكون طريقين هامين بريين أحدهما جنوبي يسلكه تجار جنوب الدولة الحفصية، وينطلق من مراكش نحو مدينة سجلماسة، ثم يتفرع إلى طريقين أحد فروعه، يصعد شمالا إلى أن يصل إلى تلمسان عاصمة الزيانيين، والآخر يتجه نحو ورجلة وتقرت ليصل في الأخير إلى جبال نفوسة ليوصل مدينة طرابلس وهي آخر مرحلة بتراب الدولة الحفصية. ومن طرابلس إلى برقة التي تتوسط مدينة برقة والإسكندرية، وهذا الطريق هو المعروف حاليا بالطريق العابر لطروح السلوم(2)، أما الطريق الثاني الذي عرف هو الآخر باسم الطريق الأعظم أو الجادة فينطلق من تلمسان عاصمة الزيانيين إلى مليانة بالأرض الحفصية، ثم يستمر بصفة تكاد تكون مستقيمة إلى سطيف، فقسنطينة، ثم تونس فالمهدية ليصل إلى خليج قابس ومنه إلى طرابلس حيث يلتقي بالطريق الأول ومنها الى الإسكندرية ويحدثنا الرحالة ابن بطوطة عن وجود فنادق في نهاية كل مرحلة من مراحل سير القوافل، حيث ينزله التجار ويتوفر على خدمات كافية خاصة بالتجار وعابري السبيل، كما توجد به أسواق تجارية صغيرة يعرض فيها ما يحتاجه المسافر(3)، وما يلزم الموظفين والدواب من الغذاء، وكان البغل البري يتبع طريق البريد الواصل من القاهرة إلى الإسكندرية إلى بلاد المغرب، ويتفرع إلى طريقين أحدهما يمر بوسط الدلتا عن طريق فليوب ومنطقة منوف، بينما يمتد الآخر غرب الدلتا مارا بمنطقة فرطسا ودمنهور(4)، وهناك طريق بري يربط مصر بوسط وغرب إفريقيا، به مركز جمركي يتولاه عشرون مقيما. يأخذون المكوس من التجار، ومنعا لأي تجاوز وضعت قوانين يسهر على تنفيذها قاضي وشهود، وقد إهتمت دولة المماليك بهذا الطريق وأمنته من القبائل الضاربة في الصحراء وقطاع الطرق الذين كانوا يهددون سلامة التجار، وكان الكاشف(5)، يقبض من وقت لآخر على بعض هؤلاء البدو الخارجين عن القانون، ويسوقوهم إلى القاهرة حيث يوقع بهم السلطان أشد أنواع العقوبات(6).

1- فييت: المواصلات في مصر في العصور الوسطى،مجلة المقتطف جامعة عين شمس، القاهرة 1937، ص42 48

2- د/سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 73

3- إبن بطوطة : رحلة إبن بطوطة، ج1، ب ت، ص11

4- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة .ج1، ص ص 42-48. فييت :السابق، ص45

5- الكاشف : هو رئيس فرقة من الشرطة، وظيفتها حماية القوافل التجارية وعابري السبيل .

انظر: د/سليمان عطية: سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر برسباي رسالة دكتوراه.غ.م، جامعة القاهرة 1980ص140

6- د.سليمان عطية : السابق : ص146

وكانت سلع الذهب والعاج والعبيد والمسك والجلود ترد على أسواق مصر من بلاد السودان وافريقيا، وجديدر بالإشارة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على بلاد النوبة سنة 674هـ/1276م، هادفا من وراء ذلك إلى توسيع دائرة نفوذ دولته وتأمينا لطرق المواصلات البرية التي تربط مصر بطرابلس وتونس(1). ونشير إلى أن القلقشندي قد أورد في كتابه صبح الأعشى أسماء بعض المدن التي كان الرحالة يتوقفون عندها، فعندما وجه السلطان المملوكي الناصر محمد سفارة بقيادة الأمير أيد غدّي الخوارزمي إلى سلطان إفريقيا سنة 706هـ سلكت الطريق الذي ينطلق من الإسكندرية إلى طلمثا ومنها اتجهت إلى مدينة قابس فصفاقس ثم قصد (2) المهدية لتنتقل بعدها الى سوسة فالعاصمة تونس (3)،

ب-الطريق البحري: تعتبر المسالك المائية أكثر ما يستخدمه الرحالة في نقل أمتعتهم ولذلك أصبحت ذات شأن عظيم، فالظروف البرية كانت كثيرة المتاعب لا تحقق أحيانا الأمن اللازم لراحة المسافر، إضافة إلى ذلك فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ما تحمله خمسمائة دابة في بعض الأحيان ومع ذلك فإن ثمن النقل أقل تكلفة من نفقة الدواب، ولهذا السبب سارعت المدن الإيطالية إلى بناء القوارب، والسفن(3)، لتنقل تجارتها إلى مختلف أنحاء البحر الأبيض المتوسط. وكان شعارهم «نحن بنادقه ونحن بعد ذلك مسيحيون»(4)، وكان الطريق البحري الرئيسي يربط ميناء سوسة بالإسكندرية مباشرة (5).

وأشير إلى أن الطريق البحري الممتد بمحاذاة الساحل من الاسكندرية إلى مدينة سوسة الحفصية، يعتبر أكثر أمنا من غيره، فقد كانت التجارة المصرية والحفصية والصقلية، وحتى الأندلسية تسلك هذا الطريق، وقد كانت المهدية مرفئا لجملة من السفن المصرية والشامية والصقلية، حيث تشحن فيها منتجات الدولة الحفصية التي عرفت بها كزيت الزيتون الذي يجلب من بساتين المهدية وبرقة وصفاقص(6)، كما تحمل العمائم التونسية المشهورة والثياب الحريرية التي يفصل السلاطين والأمراء لبسها في المناسبات الدينية(7)

1- د/سليمان عطية: سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر برسباي، رسالة الدكتوراه، ص140

2- انظر : القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص108

3- وصلت صناعات البندقية -الإيطالية إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالي بالجملة والتمويل الجماعي، وكانت سفن جميلة المنظر منقوشة الأشرعة في بعضها مائة وثمانون مجذافا، تربط البندقية بالقسطنطينية، وصور، والإسكندرية وتؤجر لتربط ميناء قرطاجنة بميناء الإسكندرية انظر ذلك في كتاب د/نعيم زكي: طرقالتجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى دكتوراه القاهرة 1968م، ص 114

4- د/نعيم زكي: السابق، ص 116

5- القلقشندي : صبح الأعشى، ج5، ص111

6- عن غزارة إنتاج الزيتون في المهدية وبرقة وصفاقص انظر الإدريسي: نزهة المشتاق ص109

7- ابن حوقل : صورة الأرض، بيروت بدون تاريخ ص72

ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج1، القاهرة 1973، ص141

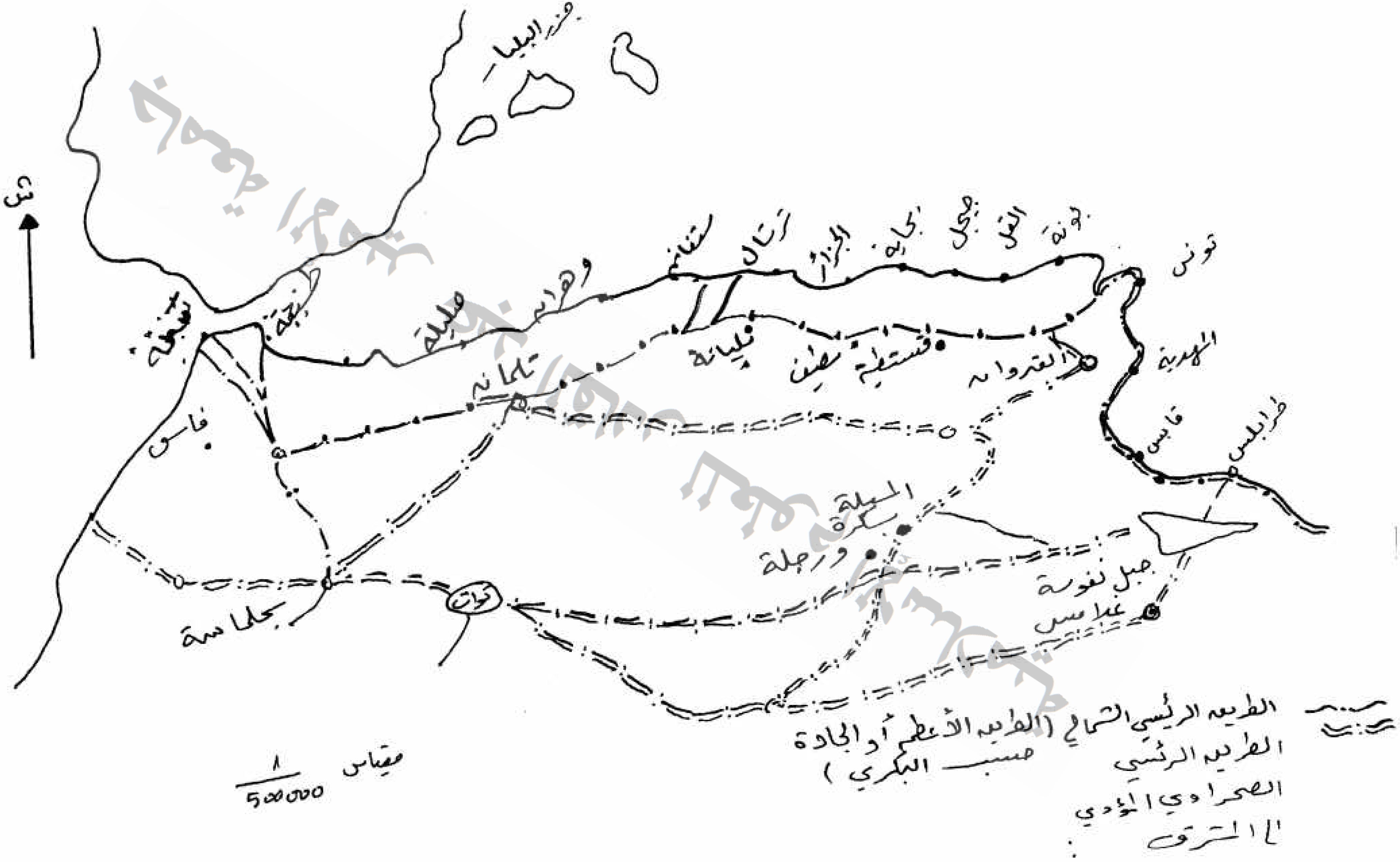
ش
جزر البليار
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
تنس
الجزائر
بجاية
جيجل
القل
بونة
تونس
المهدية
قابس
طرابلس
القيروان
مليانة
فاس
سجلماسة
توات
المسيلة
بسكرة
ورجلة
جبل نفوسة
غدامس
الطريق الرئيسي الشمالي (الطريق الأعظم أو الجادة حسب البكري)
الطريق الرئيسي الصحراوي المؤدي الى الشرق
مقياس
1/500000

دور تجار المدن الإيطالية في التجارة بين الدولتين:

شهدت إيطاليا وفرنسا وبعض الدول الأوربية إزدهارا كبيرا في ميدان التجارة وذلك منذ بداية القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي- حيث تمّ اكتشاف بعض المعادن مثل النحاس الأحمر، والذهب والفضة في جبال الألب(1)، وعلى إثر ذلك إزدادت سلع الأسواق تنوعا في الأواني، ووسائل العمل التي تدخل في كثير من الحرف، والنشاط الفلاحي.

وأدى ذلك إلى تشجيع أعمال التعدين التي تطورت وقتئذ بصفة سريعة، وأعطت المكانة الاقتصادية المرموقة للمدن الإيطالية وخاصة جنوة والبندقية وبيزة، وغيرها الأمر الذي أهلها لتكون أكبر مُصدر للمعادن الثمينة(2)، فقد بدأت عملية التصنيع تشق طريقها في أوربا وبالتالي فقد ظهرت آلة مائية لنشر الخشب لأول مرة في ألمانيا سنة643هـ/1244م، ثم انتشرت في إيطاليا وفرنسا (3)، كما ظهرت الطواحن الهوائية في إيطاليا وفرنسا واسبانيا، وتوسع إستعمالها في بلاد إفريقيا ومصر (4)، أما صهر الحديد فكانت تتم بواسطة فحم الخشب الذي يستخدم في أفران ظلت بحالتها البدائية حتى بداية القرن السابع الهجري.

إن عملية استغلال الموارد الطبيعية في أوربا وخاصة في ايطاليا باعتبارها قريبة جغرافيا من افريقيا ومصر، كان لها أثر واضح على قوة التبادل التجاري بين دول جنوب أوربا ودول العالم الإسلامي من جهة. وعلى تنشيط أسواق الحفصيين والمماليك من جهة ثانية(5)، والسبب في ذلك يرجع أن المدن الإيطالية كانت تعج وكثرة السلع المعروضة في الأسواق تطورا ملموسا في النشاط التجاري وذلك بظهور نقابات خاصة بأصناف التجارة (6)، همت في تنظيم عملتي توزيع السلع وبيعها في الأسواق الداخلية والخارجية، وعلى إثر إزدهار التجارة في إيطاليا.

1- اكتشف سنة 1175م، عدة معادن نحاسية وذهبية في جبال الألب الواقعة في جنوب

انظر:

2-كان معدن الحديد، النحاس والرصاص يستخرج من جبال هارز Harz، ومن فرنسا وكان أهل جنوة من أشد الناس حرصا على الكسب فشقوا لذلك طرائق البحر المتوسط التي مكنتهم من عرض سلعهم في تونس، والإسكندرية، وصور وعكا.

انظر ذلك د/محمد الصغير: علاقات مصر الخارجية بأوربا الجنوبية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة 1981، ص98

3- كانت مصر إبان دولة المماليك تستورد الخشب من إيطاليا : انظر : د/محمد الصغير: السابق، ص99

4- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص480

5- ستيفن (رانسمان) : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص567

وأيضا: د/عبد اللطيف محمد الصغير، العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، ص102

6- نقابة تجار الجملة، ونقابة الحرفيين، ونقابة تجار النسيج وهكذا

انظر ذلك بالتفصيل في Heyd /Histoire du commerce, T.2, P433

ظهرت عدة مدن اختصت بالتجارة نذكر منها مدينة تورينو، البندقية، جنوة، بيزة، صقلية، وكانت جنوة وحدها تنتج الحرير ذي الخيوط الذهبية بكميات تغطي حاجات سكان إيطاليا وزيادة، واسبانيا كانت نتتج أنواعا جيدة من الصوف(1).

وجذير بالإشارة إلى أن العالم الإسلامي شهد هو الآخر تطورا في تجارته الداخلية والخارجية ففي مصر والشام ظهرت مدن يغلب عليها طابع التجارة كالإسكندرية والقاهرة، وصور وعكا وغيرهم، أما على مستوى الدولة الحفصية فنلاحظ أن التجارة قد إزدهرت في كل من العاصمة تونس ومدن أخرى كبجاية، وبونة، وغيرهم من المدن الكبرى، فقد انتشر فيها الخبازون، والحدادون وكثير من الحرفيين المالكين لأوداتهم(2)، كما رافقت هذه الحركة بعض الصناعات المنزلية والمحلات الخاصة، كما نلحظ أيضا الكثير من الأسر التي كانت تؤدي بعض الأعمال الصناعية الخفيفة تلبية لاحتياجاتها. فقد كانت تصنع خبزها وتنسج ثيابها، وتخصف نعلها، وذلك بأدوات بسيطة ومحدودة(3)، مما يوحي بأن خطى التقدم والتطور في ميدان الصناعة بطيء في كل من المغرب والمشرق الإسلاميين مقارنة بما حصل في أوربا لكن إحتكاك التجار الحفصيين بالمدن الإيطالية، وتجوالهم بمختلف المدن وخاصة صقلية والبندقية وجنوة مكنهم من الإطلاع على الكثير من أدوات الصناعة، وأنواع مختلفة من السلع التي يرغب الأمراء والسلاطين في إقتنائها (4)، سواءا كانت تدخل في نوع الألبسة أو الأنواع الغذائية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-يعرف هذا النوع من الصوف باسم هيث Hith وهي أغنام المرينو التي تعتبر أهم مصدر من العملة، وكانت تونس ومصر تستوردان هذا النوع من الصوف.

انظر : د/عبد اللطيف محمد الصغير: العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، ص103

2-د/سليمان عطية : سياسة المماليك التجارية في البحر الأحمر، ص114.

3- د/محمد الصغير : السابق، ص115.

4- د.عبد الله ابراهيم محمد رابح : علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس ص114

انظر أيضا : فيبيت : المواصلات في مصر أثناء العصور الوسطى، ص25

التجارة الخارجية للدولة المملوكية مع المدن الإيطالية:

كانت التجارة الخارجية في مصر إبان حكم دولة المماليك تقتصر في جوهرها مع السلع العابرة، ومن ذلك تُكسب الأموال الطائلة، والسلع الأكثر رواجا في أسواقها هي الفلفل والرقيق، والحديد، والنحاس، والذهب، والفضة والسلاح، وهي كلها واردة من الخارج(1)، بينما السلع التي كانت تصدر وهي كميات قليلة تشكل نسبة صغيرة من التعامل التجاري الكلي، والسلع هي الأقمشة، السكر، الورق، السمك، الملح، الزيت، البلح، والشب، وأهم الواردات هي سلع كمالية مثل الفُراء والعبيد الذين يعتمد عليهم الجهاز العسكري والإداري(2).

وجدير بالإشارة إلى أن الحروب الصليبية أثرت على تجارة الشرق مع أوربا الغربية تأثيرا لصالح المسلمين، ذلك أن أساطيل المدن الإيطالية كجنوة والبندقية وغيرهما لم تكن تنقل الجنود فحسب بل كذلك المؤن والبضائع ذهابا وإيابا وفي الوقت الذي قضى فيه المسلمون على الإمارات الصليبية في شواطىء سوريا وفلسطين، ورثت منها جزيرة قبرص تركة الإزدهار (3)، و الملاحظة التي يجب إبداؤها هي أن الحركة التجارية التي حماها ونشطها سلاطين القاهرة أولا والحفصيين ثانيا قد ارتبطت بهذه التحولات.

وأن التجارة مع الإفرنج لم تنقطع نهائيا كما دعا إليها البابا(4)، وحتى المحاولات السياسية المسيحية لشق طرق واتصالات تجارية مستقلة بالشرق الأقصى بعيدا عن عبور مياه البحر الأبيض والأحمر لم تنجح، وبالتالي بقيت سيطرة المسلمين مغربا ومشرقا على تجارة العبور (5) واستمرت الحركة التجارية المصرية مع الأتراك واليمنيين والهنود وأهل إفريقية، والأكثر من هذا أن العلاقات التجارية بين مصر والدولة البيزنطية قد تحسنت ووقعوا معاهدات تجارية في زمن السلطان الظاهر بيبرس 658هـ/1260-1277م ، وبني مسجد في القسطنطينية وذلك سنة662هـ/1264م(6).

1-د.صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية، القاهرة 1973ص ص 70-88.

انظرأيضـــا: W.Heyd:Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen age . 2VOL , LEIPJIG, HARRASSOWITZ1923,VOL2, P39

2-د. محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة 1935ص222

3- د. محمد جمال الدين سرور : السابق ص223

4- د/محمد الصغير : علاقات مصر الخارجية بأوربا الجنوبية، القاهرة1981، ص112

5- W.Heyd ,op, cit, P321

وقد أشار هايدي في كتابه السابق : أن مصر كانت تسعى منذ زمن سابق إلى تأمين التجارة مع دول أوربا، وحرصا على استمرار التجارة وخوفا من مواقف أهل المغرب الإسلامي سارعت إلى الإستيلاء على الساحل الإفريقي الشمالي حتى القيروان وذلك منذ 586هـ/1187م، أنظر أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام القاهرة 1965، ص28

6- السعيد عاشور : السابق ، ص40

وكذلك تم تحسين العلاقات مع كل من صاحب صقلية شارل دي أنجو والأمير الفونس ملك اشبيلية وكذلك مع ملك آرجون(1)

وقد أرسل السلطان قلاوون إلى نوابه في جميع الثغور الإسلامية التابعة لدولة المماليك يأمرهم بحسن معاملة التجار الأوربيين والتودد لهم، وعقد عام 680 هـ/1281م، صلحا لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية في بلاد الشام(2)،

وأبرم معاهدات تجارية مع كل من صقلية وجنوة وامبراطورية روما(3)، وفي سنة 702هـ/1303م (4)، أبرمت معاهدة مع البندقية تضمن لهم ممتكلاتهم وأمنهم الشخصي وحقهم في إمتلاك المباني والكنائس، والحمامات والمخازن على الأرض المصرية، وفق رسوم تحددها المصالح المعنية(5).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- W.Heyd: Histoire Du Commerce,T2, P345

2-د/محمد الصغير: علاقات مصر الخارجية بأوربا الجنوبية، القاهرة 1981 ص120

انظر أيضا:د/علي ابراهيم حسن:مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني القاهرة 1964، ص58

3-د/محمد الصغير: السابق، ص115

4- د/محمد الصغير : السابق ص116.

5- د/السعيد عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، ص36

وأيضا: د/علي ابراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى، القاهرة 1964، ص60

ب-التجارة الخارجية للدولة الحفصية مع المدن الإيطالية:

تعود قوة العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية وبلاد المغرب عامة إلى سنة 586هـ/1087م، عندما استولى الإيطاليون على مدينة المهدية القريبة من تونس(1)، حيث تمّ عقد معاهدة بين حكام إيطاليا والسلطان تميم من المعز الزيري 501هـ/1107م، حاكم افريقيا آنذاك، وكان من بين بنود الإتفاقية ضمان حرية عبور السفن الإيطالية في المياه الإقليمية الإفريقية مقابل الجلاء على مدينة المهدية(2).

ولم تنقطع علاقة افريقيا بالمدن الإيطالية منذ ذلك الوقت، بل إزدادت قوة واضطرادا مع مرور الزمن، ولم تتأخر سوى جمهورية البندقية التي كانت مرتبطة أكثر بمصر (3)، ومع ذلك فإنها أرادت استغلال الوجود الإيطالي في بلاد المغرب، وأمضت أول معاهدة لها مع دولة الحفصيين سنة 630هـ/ 1231م(4).

وجدير بالإشارة إلى أن الجمهوريات الإيطالية حصلت على كثير من الإمتيازات والتسهيلات في بلاد الحفصيين، غير أن أهم صفة إمتازت بها العلاقات التجارية بين دولة الحفصيين، والمدن الإيطالية هي قصر المدة على عكس تلك التي تربط المدن الايطالية بدولة المماليك في مصر(5)، حيث كانت العلاقات تجدد بمجرد تولية حاكم جديد أو نزاع مسلح بين المدن الإيطالية والسلطات الحاكمة في شمال إفريقيا عامة(6).

ومما يؤكد مدى قوة العلاقات الإقتصادية بين دولة الحفصيين وجمهورية جنوة الإيطالية تلك المعاهدة التي تنص على أن تونس تمد جنوة بالقمح والشعير وغيرهما من الحبوب في حالة الأزمات الناتجة عن الفياضنات أو القحط الشديد (7) .

1- كانت المهدية محل أطماع جمهوريات جنوب ايطاليا وإمارات الأندلس المسترجعة وقد كانت المهدية قد خضعت من قبل النورمان لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، حوادث 543هـ/1145 م، ص292.

2- د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص306

3- MAS-latrie, I, -traites de paix et de commerce et documents divers page 196-199

4- Mas, latrie, op, cit, pp 196-199

5- د/نعيم زكي: السابق، ص101

6- Mas, latrie, op, cit, p109

7- انظر معاهدات جنوة سنة 1236م في كتاب MAS. latrie, traites de paix P118

كان حكام افريقيا يعتبرون أنفسهم حماة لجميع المسلمين الذين يترددون على بلدان المدن الإيطالية، لذلك أفردوا بخصوصهم نصوصا اشترطوا فيها على هذه الجمهوريات ألا يتعرض أحد من رعاياها أو قراصنتها لهؤلاء المسلمين بأذى أو ضرر سواء في البحر أو في البر(1)، ومن أجل المتابعة اليومية للمصالح التجارية الإيطالية في بلاد المغرب الإسلامي انتشرت الفنادق التي أصبحت فيما بعد مقرات لعقد المبادلات التجارية وجدير بالإشارة إلى أنه قد سمح لتجار الجمهوريات الإيطالية إمتلاك الفنادق في جميع الثغور التي بها دواوين جمروكية، بشرط الحصول على تصريح لهم بالإقامة(2)، وقد أظهرت الإتفاقيات في بنودها أن الفنادق كانت في جل المدن الحفصية الكبرى مثل طرابلس وتونس، وزويلة، وقابس، وصفاقص، وبجاية، بونة(3).

وعلى الرغم من أن فنادق المدن الإيطالية في بلاد افريقيا كانت متجاورة ولا يفصل بينها سوى حائط واحد، فقد منع على تجار كل طائفة أن ينتقلوا من فندقهم إلى فندق غيرهم إلا برخصة مسبقة(4) وأن هذه الفنادق لا تغلق أبوابها على التجار ليلا وفي أيام الجُمع، كما هو الشأن في فنادق مدينة الاسكندرية (5)، وربما كان سبب ذلك هو عدم حدة الروح العدائية لدى الأهالي المغاربة ضد الأوربيين بسبب قرب بلادهم من أوربا، وإتصالهم المستمر بأهلها، زيادة عن الكثرة من المسلمين المستوطنيين في قبرص، وصقلية، وجنوة وغيرهم.

وكما هو الحال في مصر فقد سمح لطوائف التجار الأوربيين في بلاد المغرب أن يقيموا في كل فندق من فنادقها فرنا ومقبرة وكنيسة(6).

1- انظر معاهدات البندقية لسنة 1271م مادة رقم 2 MAS. latrie, OP, cite, P204

2- معاهدات جنوة: لسنة 1234م مادة رقم 15/PP22-34 MAS. latrie, OP, cit,

3- كانت تحدد المدينة التي يقام فيها الفندق فمثلا كانت فنادق جمهورية بيزة في كل من بجاية وجونة، بينما تونس، زويلة، وقابس لجنوة وهكذا انظر MAS.latrie,OP,cite page 34-40 والمقدمة ص89-100

4- معاهدات البندقية لسنة 1251م/مادة 2.PP182-186 MAS.latrie, traite de paix

5-د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ص309.

6- عرفت كنائس البزانيين والجنويين في المدن الحفصية باسم القديسة مريم Sanite-Marie انظر MAS.latrie, traites de paix page 195-200

ولم يكن للجمهوريات الإيطالية كنائس خارج الفنادق مثل الكنائس التي كانوا يمتلكونها في مدينة الإسكندرية (1)، حيث كانت حرية العبادة مكفولة للأجانب، وأشير في الأخير إلى أن الفنادق كانت تضم أجنحة خاصة لسكن القناصلة، وأجنحة أخرى مخصصة للمحاكم والنظر في التجاوزات القانونية، وأيضا كانت لهم أقسام تعقد بها الصفقات التجارية(2)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص310

2- د/سامي سلطان سعد : الجالية الايطالية التجارية في المغرب الاسلامي مجلة سيرتا العدد10، ص19، جامعة قسنطينة 1408هـ/1988

تطور التجارة في الدولتين:

بفضل الحركة التجارية النشيطة التي كان تجار الدولتين يقومون بها وينتقلون في سبيلها إلى بعض الدولة الأوربية وخاصة ايطاليا، والأندلس وجنوب فرنسا، كثرت المؤسسات التجارية مثصل الفنادق التي إكتظت بكبار تجار أوربا في كل من مصر والشام وبلاد المغرب كافة، وفيها تبرم الصفقات التجارية بين التجار المسلمين والأوربيين، دون الخروج عن القوانين التجارية المعمول بها آنذاك، وبهذا يمكن للتجار الأوربيين إخراج بضاعاتهم إلى الأسواق وعرضها وفقا للاتفاقيات التجارية المبرومة(1)، وتتوزع الفنادق في المدن الكبرى مثل الاسكندرية و القاهرة، ودمشق، وصور (2) وبنفس الحجم تتوفر في بلاد افريقيا فتجد تونس وبجاية وغيرها تضم فنادق كثيرة ، يرتادها عادة تجار أوروبا، وحتى من العالم الاسلامي(3)، وهكذا تكونت شبكة من المؤسسات التجارية سرعان ما أخذت الطابع الرسمي باشراف الدولة المملوكية في مصر والحفصية بافريقيا على إدارة الفنادق وتطبيق الضرائب الجمركية على مختلف السلع التي يراد بيعها في أسواق الدولتين أو التي يتم إخراجها من أسواقها. وقد اتصفت فنادق الدولتين بالمباني المربعة، كان لبعضها أكثر من طابق، ولكل فندق فناءا داخلي مكشوف يستخدم في حزم وشحن وتفريغ السلع، مع وجود مخازن في الطابق الأرضي، تجاورها قاعة عامة مخصصة لعقد الصفقات التجارية بين التجار أما الأدوار العليا فكانت للإقامة (4)، ثم توسعت المؤسسات التجارية لتشمل الوكالات والقيساريات دعما لدور الفندق التجاري(5).

من الملاحظ أن القيساريات تنشأ في وسط سكنات الأهالي، وبها أجنحة متخصصة، فجناح مخصص لأقمشة النساء وجهازهن، وجناح آخر يبيع القماش الجديد الأبيض والأزرق للرجال، وهكذا وجذير بالملاحظة إلى أن الكتب الغربية لم تذكر هذا النوع من الأسواق وإن كان وصفها لأسواق المغرب، بما فيها أسواق افريقيا ينطبق على وصف القيسارية ويسمونها السوق المغطاة (6).وبهذه الأسواق يوجد باعة الأطعمة المتجولون، لضمان استمرار الحركة التجارية طول النهار دون توقف.

1- Heyed, Histoire du commerce, T2, P436

2- د/سليمان عطية: سياسة المماليك التجارية في البحر الأحمر ص126

3- الفنادق عمد بعض السلاطين والأمراء إلى تحويل بعضها إلى مدارس انظر: الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص37

4- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص468

5- عن الوكالات والقيساريات ودورهم في عقد الصفقات التجارية انظر المقريزي : الخطط، ج2، ص ص93-94

6- القيسارية هي عبارة سوق مغطى، وله أجنحة متخصصة في بيع نوع معين من البضائع، جناح للخضر والفواكه، وجناح لأقمشة النسوة، وآخر لأقمشة الرجال. انظر: المقريزي : الخطط، ج2، ص89.

الرسوم والضرائب:

إن العهد الحفصي المملوكي شهد قفزة نوعية في ميدان تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، فإذا صعب علينا تحديد بداية الإشراف الحكومي على إبرام الصفقات التجارية. وتنظيم دخول السلع وخروجها فإن الدولتين أحكمتا سيطرتهما على سيولة العملة الصرفية، وعززت المؤسسة المالية المشرفة على موارد بيت المال(1)، والتي تنحصر مصادرها في ثلاثة أدوار أولها الجبايات ثم بعد ذلك الزكاة والخراج، يضاف إلى ذلك إيرادات ضرائب الأنشطة الحرفية (2) والمهنية ومخالفي المراسيم والقوانين المعمول بها في الدولتين، والدارس للعلاقات الإقتصادية بين أقطار العالم الإسلامي يجد صعوبة كبرى في الحصول على ما يؤكد التبادل التجاري في شكله الرسمي، مما يجعله يقتصر على مدى التوافق والإختلاف في التنظيم التجاري، وهكذا نجد أنفسنا أمام الإتجاه الثاني، الذي يوضح مدى تقارب الدولتين في مجال التعامل التجاري مع التجار المسيحيين واليهود وغيرهم مما يسمح لنا بتأكيد التعاون التجاري في ميدان توحيد التعامل التجاري مع غير المسلمين(3).

ففي بلاد دولة المماليك كانت الرسوم الجمركية تقسم إلى رسوم رئيسة وأخرى ثانوية.

أما الرسوم الرئيسية تتمثل في ضريبة الرؤوس الخاصة بالأشخاص، وعدة رسوم أخرى مثل التي تؤخذ على العبور والواردات والصادرات من السلع المختلفة، وقد حددت دولة المماليك ضريبة الرؤوس بدوكتين(4)، على كل فرد وتصل إلى خمسة دوكات إذا كان من الحجاج كما حددت رسوما أخرى على السلع إذا لم يتم تفريغها وهي كمايلي:

1- رسم على السلع المفرغة وقيمتها 2٪ من قيمة السلع.

2- رسم على السلع الواردة دون تفريغها وقيمتها 10٪ من قيمة السلع (5).

1- فييت: المواصلات في مصر أثناء العصور الوسطى، مجلة المقتطف 1937، ص ص113-114.

2- إبن هجر شهاب الدين (أبو الفضل أحمد بن علي) : أنباء الغمر بأبناء العمر.

دار الكتب رقم 2476، مخطوط جامعة القاهرة ورقة 328

3- د/سليمان عطيجة : سياسة المماليك التجارية في البحر الأحمر ص146.

4- الدوكة معناها : المشخصة وهي التي تبين أن العملة ضربت في البندقية وفيها إسم السلطان ولقبه على أحد وجهي العملة وعلى الوجه الآخر مكان الضرب وتاريخه: القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص ص 441-444

وانظر أيضا : المقريزي : السلوك، ج1، ص68

5- د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى رسالة دكتوراه، كلية الآداب، القاهرة 1968، ص275

وجدير بالاشارة أن دولة المماليك كانت لا ترى مانعا من تطبيق هذه الرسوم. على الفرنج والمسلمين سواء بسواء (1) لدرجة أن تجارا من بلاد المغرب اشتكوا إلى السلطان قلاوون الألفي على أنه كان يؤخذ منهم أكثر من العشر الذي كان يفرض على سلعهم التي يعبرون بها قاصدين بلادهم. أو العكس حاملين بضاعة من المواد المنتجة في بلادهم ويصدرونها إلى مدن مختلفة من جنوب أوربا التي كانت مرتبطة مع العالم الإسلامي بعلاقات تجارية(2).

فغضب السلطان وأمر ألا يؤخذ من المغاربة إلا العشر(3)، هذا بالنسبة لدولة المماليك أما على مستوى الدولة الحفصية فقد حددت الرسوم على أساس عقيدة التجار، وخصت التاجر المسلم بتسهيلات، حيث حددت الضريبة على سلعته بـ2,5٪ من قيمة السلع الواردة، أما غير المسلمون فيدفعون 10٪ من قيمة البضائع الواردة(4)، في حين كانت ضريبة اليهود قد حددت بـ5٪ من قيمة السلع الواردة (5).

وأشير إلى أن القوانين الجمركية كانت غير ثابتة، بل تتحكم فيها ظروف البلاد الاقتصادية، فقد أعفت الدولة الحفصية بعض السلع من ضريبة العبور مثل الجمال والأغنام، وذلك بقصد تطوير وتشجيع تربيتها في بلاد افريقيا، خاصة وأن الظروف الجغرافية تساعد على ذلك في حين نجد دولة المماليك لا يغفل هذه الضريبة لكثرة الجمال بها(6)، وما يقال عن ضريبة الجمال يقال عن الأخشاب، فقد حددتها دولة المماليك ما بين 20٪ إلى35 ٪ ويطلق عليها إسم رسم الخمس (7) في حين تنخفض هذه الضريبة لتصل إلى 10٪ لأن أرض افريقيا غنية بأخشاب السلسلة الجبلية التلية، أما السلع التي يحتاج إليها السلطان فقد كانت في كثير من الأحيان تعفى من الضرائب مثل الجواهر، والأحجار الثمينة.

1- د/نعيم زكي: السابق، ص278

2- د/محمد الصغير: علاقات مصر الخارجية بأوربا الجنوبية، ص120

3- د/محمد الصغير: علاقات مصر الخارجية بأوربا الجنوبية، ص121.

4- الحسن الوزان : وصف افريقيا، ج2.

5- لأن اليهود كانوا يملكون الإقامة المزدوجة.

انظر : مارمول ، ص463

6- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص479.

7- القلقشندي : السابق ، ص 480.

وعرفت الأسواق التجارية في دار الإسلام عامة عدة ضرائب نذكر من بينها.

أ- السمسرة:

إن إتساع نطاق التجارة وظهور الصناعة في دول أوربا، وخاصة المدن الإيطالية، تطلب استعمال المال في المشاريع التجارية، ونشطت لذلك فئات مختلفة من الأشخاص تعرض نفسها على الزبائن من أجل تيسير الحصول على بعض السلع الكثيرة الطلب وتشترط مقابل ذلك أجرا وهذا هو المعروف بضريبة السمسرة وقيمتها 10٪ على كل الخدمات التجارية التي يقدمها الوسطاء، وتتم نقدا بين الوسيط والمشتري تارة وبين الوسيط والبائع تارة أخرى (1).

ب- المكس :

وهو ضريبة كانت تُحصل على الأماكن التي يعرض عليها التاجر سلعته أثناء تنظيم الأسواق الأسبوعية أو الموسمية، وجدير بالإشارة إلى أن الأشخاص قد توسعوا كثيرا في المكوس(2)، وعمت البلوى. حيث تضرر التجار عندما خرجت الضريبة عن إطارها المحدد، ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس (3)، وتم رسم أخر يفرض على المبادلات التجارية وهو رسم الترجمان الذي كان يقوم بالترجمة بين البائع والمشتري إذا كان أحدهما لا يفهم الآخر (4)، والرسم في هذه الحالة محدد، وهناك رسم القنصل، حيث يحصل نظير السروم المتحصلة على تصدير أو استيراد دولته من السلع، ويعرف هذا الاسم باسم نو-نوريس No.noraist(5)، وزيادة على ما سبق كانت الدولتان تفرضان ضريبة على المواد الصادرة وتخصص لذلك إدارة يتولى شؤونها ناظر الصادر (6)، شأنه في ذلك شأن ناظر الواردات.

1- د/أحمد محمد محمد عدوان : الوضع الاقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية رسالة دكتوراه رقم 17646 جامعة القاهرة 1972م، ص64.

2- الونشريسي : المعيار، ج6، ص106

3- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص470

ابن خلدون :المقدمة، ص327

المقريزي : الخطط، ج2، ص321

4- د/أحمد محمد عدوان: الوضع الإقتصادي في مصر، ص ص72، 75

5- د/أحمد محمد عدوان ك السابق : ص80

6- القلقشندي: صبح الأعشى، ح3، 416

وقد أشار القلقشندي إلى أن التجار المسيحيين كانوا يدفعون ضريبة الصادر في المشرق وتقدر بـ5٪ من قيمة السلع خلال السنة الواحدة، ونظرا لتقارب الإجراءات الجمركية في الدولتين، فليس من المستبعد أن تكون نفس الرسوم على السلع الصادرة في كل موانىء الدولة الحفصية وفي الوقت الذي راجت فيه التجارة في عصر السلطان قلاوون الألفي، حيث نشطت موانيء دمياط، الاسكندرية، السويس، نشطت تبعا لذلك موانىء افريقيا حيث انتعشت الحركة التجارية مع الجمهوريات الإيطالية التي تربطها مع الدولتين علاقات صداقة وتجارة(1).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ولم يرد المؤلف نصوصا صريحة في الاتفاقيات التجارية عن نسبة الرسوم التي يدفعها التجار عن البضائع الصادرة مثلما جاء عن الرسوم الخاصة بالوارد.

انظر: Mas. latrie de paix :P197

الأسواق في الدولتين:

تعتبر الأسواق التجارية ميدانا واسعا للتعبير عن واقع الحياة اليومية التي تعيشها القبائل والشعوب والأمم، والزسواق في عهد الدولتين متشابهة في كثير من الجوانب، مما يوحي بكثرة القوافل التجارية التي كانت تشد رحالها بين الدولتين، فيحدث من جراء ذلك نقل الحرف، وأسلوب العرض، وتطوير بعض الصناعان، وهكذا تبين من خلال وصف القريزي لأسواق القاهرة، والاسكندرية، والفسفاط أنه يكاد يتطابق مع أوصاف العلاقة ابن خلدون وبعض الرحالة لأسواق بلاد افريقيا، فالخاصية الأكثير وضوحا هي تنوع الأسواق وانفرادها للسلعة، فهمناك أسواق في الدولتين متخصصة في بيع نوع معين من السلع لدرجة أنها سميت باسم تلك السلعة، فيقال سوق الشماعين لانفراد السوق بالشمع وتوعه في الاصناف المختلفة من تلك السلعة، فيجد الزبون نمط الشمع القصير الرفيع، والطويل الثخين، والمتوسط، مع تنوع الأحجام والألوان(1)، ونفس الشيء يقال عن سوق الصياغة الذي تعرف فيه مختلف أنواع الجواهر والأحجار الكريمة(2)، كما يوجد سوق السلاح حيث تعرض فيه جميع أنواع الأسلحة المعرفة آنذاك من قسي ونشاب، وسيوف..الخ، ويقابله سوق العطارين الذي يزخر بأنواع مختلفة من العطور التي تستعمل في المناسبات، والأعياد، وحفلات الزواج(3).

أما تجارة اللحوم والخضر فلها أسواقها الخاصة بها، كما تنفصل أسواق القماش بأنواعها الزاهية عن بقية الأسواق، وجذير بالملاحظة إلى أن بعض الأسواق ارتبطت بعادات ومناسبات الأهالي، فالأسواق الخاصة بالحلوى تنشط بصفة فائقة، وتعرض كميات وافرة من الحلوى المختلفة الأحجام والأشغال والألوان وذلك في موسم نصف شعبان(4)، وعيد الفطر.

وسوق الشماعين ينشط خاصة في شهر رمضان حيث تعرض شموعا ضخمة تؤجر أو يشترك الناس في شرائها لتوضع في مداخل المساجد لأداء صلاة التراويح(5) ويجتهد الكثير من الباعة في تناول طعام الغذاء داخل محلاتهم،

1- انظر : ابن بطوطة : الرحلة، بيروت، ب.ت، ص49

2- د/سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة 1965، ص86

3- المقريزي : الخطط، ج2، ص44

4- د/سليمان عطية : سياسة المماليك التجارية في البحر الأحمر، ص120

5- المقريزي: الخطط، ج2، ص94.

ابن خلدون: المقدمة، ص114.

ولهذا ظهر باعة الطعام الذين يتجولون في جميع أجنحة السوق وساحاتها، وعلى رؤوسهم أطباق من الأطعمة المختلفة من لحم الخرفان-الضأن- والدجاج والإوز(1)، وبهذه الخدمة يحافظ السوق على حيويته ونشاطه خلال اليوم بكامله، وعلى مدار السنة إن كان السوق دائما.

ومن أهم مميزات عوامل ازدهار التجارة في الدولتين وجود علاقات تجارية وودية تربطها بالدولة الأوربية وخاصة الإيطالية منها (2). وهو الدليل الواضح على وجود أسواق بكاملها مخصصة لعرض السلع الأوربية مثل سوق الجوخ لبيع كتان الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج، وسوق الخيل الذي يجلب إلى أسواق مصر من بلاد برقة وطرابلس وحتى من جنوب الدولة الحفصية(3)، وسوق الأدوات المصنوعة سواء خشبية أو معدنية التي ظهرت في الدول الأوربية ثم نقلها التجار الى أسواق مصر والشام وبلاد افريقيا والمغرب عامة(4).

ومما سبق فإنه يبدو أن التجارة عرفت رواجا كبيرا في أسواق الدولتين، وحتى تستقر الأسواق عمدت دولة المماليك إلى تعزيز وظيفة المحتسب بالكثير من الخفراء يطوفون بساحات السوق، ويرقبون تصرفات التجار، وطريقة تعاملهم مع المشترين والزوار، ومنع اللصوص من سرقة الحوانيت، والمشترين فصاحب العسس لا يكف عن الطواف، ولم يتوقف دور الدولة عند هذا الحد بل تعدى إلى الإشراف على المكاييل والموازين، والمقاييس، وهذا كله من اختصاص المحتسب الذي يعد من كبار الفقهاء ويشترط فيه العفة والورع، من قبول الهدية باعتبارها رشوة (5)، ويلزم أعوانه بذلك لتنتفي عنه الظنون (6)، ونظرا لدور السوق وأهمية استقرارها فإن وظيفة المحتسب تتم بمقتضى مرسوم سلطاني(7).

1- المقريزي: السابق، ص45.

2- د/أحمد محمد عدوان : الوضع الاقتصادي في مصر في عصر المماليك، ص102

د/نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص278.

3- د/قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر السلاطين المماليك، القاهرة 1918، ص36

4- كانت سوق الأدوات المصنوعة داخل الجزيرة بالقاهرة، تعرف بصناعة الروضة: انظر القلقشندي، ج3، ص379

5- د/قاسم عبد قاسم: السابق، ص40.

6- المقريزي: الخطط، ج1، ص464

7- المقريزي: السابق : نفس الجزء والصفحة.

إحتكار السلع:

إن عملية تحديد الأسعار لمختلف السلع وخاصة النادرة منها كانت تتم في بداية كل موسم من كل عام(1)، وتتم العملية بالإتفاق بين أعضاء هيئة التثمين والتي تتكون من منذوب عن السلطان، وقنصل البلد المعتمد وممثلين عن تجار الدولة (2)، في الأخير يوافق الجميع على جدول أسعار البضائع والسلع(3)، غير أن هذه الأسعار لا تحترم في الأسواق المصرية والتونسية على حد سواء. لأن المكلف بشراء حاجات السلطان يحظى بأولوية البيع وطبيعي جدا أن ينتج عن ذلك التحكم في أسعار البيع حيث يرفعها بمستوى معين، وهناك عامل آخر يدفع التجار والمتحجين إلى إحتكار سلعهم، ويتمثل في الظروف المناخية، حيث يخفي التجار سلعهم عندما يكون المنتوج متوفرا ثم يعرضونه في السوق أنشاء اشتداد حاجة الناس إليه ويوجد نوع آخر من الاحتكار الذي وجد في عهد الدولتين الحفصية والمملوكية وإن كان قد ظهر وانتشر بكثرة في المشرق الإسلامي وهو اتفاق يعطي حق إنتاج وبيع.

صنف معين من الغلات بضمان (4)، وكأمثلة علي ذلك نذكر مصائد الأسمات كانت محظورة علي غير حاشية السلطان(5)، أما علي مستوى الدولة الحفصية فتذكر المصادر المكتوبة باللغة الأوربية أن الصيادين في سواحل صفاقس كانوا يستخرجون الصوف المعروف عند العامة في دولة الحفصيين باسم «صوف السمك» ، وهذا النوع من الصوف كان يدخل في صناعة الثياب النفيسة التي كان السلاطين والأمراء يحرصون علي إقتنائها وقد أشار القلقشندي إلى ذلك دون وأن يتعرض إلي إستعمالاتها(6).

1- Heyed, Histoire du commerce, T2, P446

2- إن تكتل العمال وإنضمامهم الى هيئة تجارية تسهر على مصالح التجار وتحميهم من تقلبات الأسواق وتطبيق الإتفاقيات بين الدول ظهرت أول الأمر في بداية القرن الثالث عشر الميلادي وهي ما تدعوه حاليا بنقابة العمال ومن غير شك أن المبدأ انتقل إلى العالم الإسلامي ابتداءا من المغرب (افريقيا خصوصا) لقربها من جزيرة صقلية وجنوب ايطالي االلتين كانتا مسرحا للنشاط التجاري وخاصة بعد قرار الامبراطور روجا الثاني (1101-110) الذي يقضي بضم تونس بصفاقس، وهران، طرابلس، إلى ملكه انظر :د/قاسم عبد قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك القاهرة 1980، ص ص 37، 46

3-البيع بضمان معناه : دفع رسم على السلعة قبل الحصول عليها.

انظر: د/عبد الله إبراهيم محمد راجع : علاقات مصر الخارجية، ص140

4- كانت بحيرة نستروه بالبرلس وبحيرة تنيس بدمياط تتبعان ديوان السلطان ولا يقوم بالصيد فيهما ولا الصيادون القائمون بالضمان وهناك برك بأيدي أفراد من أسر الحاكمة مثل بركة الفيلة بالقاهرة، والتي يملكونها أولاد السلطان الظاهر بيبرس، لهم الحق في بيع صيدهم بضمان، حيث يجفف جزء منه ويصدر إلى الشام، وقبرص ، وبلاد المغرب، أنظر: المقريزي: الخطط، ج1، ص108

5- القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص106

6- القلقشندي السابق، ج5، ص107

أهم السلع المتبادلة:

كان تجار الدولتين الحفصية والمملوكية يسعون دائما إلى تنظيم القوافل التجارية بينهما من أجل بيع ماهو غير متوفر في دولة دون الأخرى، وهذا بعيدا عن الإطار الرسمي الذي تحدده الإتفاقيات والمعاهدات بين الدولتين.
توجد عدة عوامل تساعد على نقص ووفرة بعض السلع الضرورية لحياة الناس، وهذه العوامل في الغالب تكون ناتجة عن إختلاف تضاريس مناطق الدولتين(1)، ومناخها المحلي، الأمر الذي جعل عدة مناطق تختص في إنتاج سلع معينة، وهذا بطبيعة الحال يساعد على تحديد الفائض من الإنتاج. وحجم السلع التي تصدر أو تستورد.

وزيادة على ماسبق، نرى رحلة التجار المسلمين لاتنقطع بين الدولتين من جهة، وإلى جنوب أوربا من جهة ثانية، وبالرغم من كثرة النشاط التجاري الحفصي في مدينة البندقية، وجنوة وسردينية، فإن العائد من السلع التي كانت تعرض في أسواق الدولة الحفصية يشحن في سفن قادمة من البندقية في إتجاهها نحو الأسكندرية، حيث تفرغ هناك بضائعها ثم تعود بربح يعادل نسبة كبيرة قدرت في بعض الأحيان بألف في المائة. وفي هذا يقول إبن خلدون: «... يتحين التجار والفلاحون تغير الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه أو ينقله إلى بلد آخر حيث تنفق فيه تلك السلعة بأسعار أغلى..»(4).

1-أنظر الكتاب: ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا: تحقيق اسماعيل العربي، ط2 الجزائر 1982 ص - 131 126.

2- المقريزي: السلوك، ج1، ص 608

ابن سعيد المغربي، السابق، ص 181.

- ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ص 157.

3- د / عبد اللطيف محمد الصغير: العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية، ص 140.

- ابن خلدون: المقدمة ، ص 355.

أهم السلع الصادرة من أفريقية إلى مصر:

إشتهرت إفريقية في عهد الحفصيين بالإنتاج الوفير للحبوب بصفة عامة يليها بعد ذلك إنتاج الثمار والصابون والإسفنج(1)، تنحصر مناطق زراعة الحبوب في الشريط المحصور بين الساحل وسلسلة جبال الأطلس التلي. نذكر من بين هذه المناطق، منطقة تاهرت التي تكنى ببغداد المغرب(2)، وتنتشر أيضا هذه الزراعة في سهول قسنطينة التي يصل بعض سهولها إلى منطقة باجة بتونس حاليا، ثم تتجه نحو الساحل لتقترب من مدينة القل(3).

وبالمقابل نجد تضاريس ومناخ أرض مصر لايسمحان بإعطاء إنتاج كاف يغطي حاجات السكان في بعض الحبوب، الأمر الذي يؤدي إلى تنقل القوافل التجارية من المغرب محملة بأكياس القمح والحمص، وغيرهما لتباع في أسواق مصر ثم تعود بمواد أخرى قليلة الإنتاج في أفريقية(4)، ويلاحظ أن هناك مناطق إشتهرت بإنتاج مواد معينة من الإنتاج الزراعي.

1- النخيل : حيث تنتشر زراعته في منطقة بلاد الزاب(5)، تنتج تمورا وفيرة ومتميزة، وتفاصيل من الصوف الجيدة، تليها منطقة طرابلس التابعة للدولة الحفصية والمجاورة لحدود مصر(6).

لذلك يعرض في أسواق كل من تونس، وبجاية، والإسكندرية وتليها تمور منطقة بسكرة التي تعرض هي الأخرى في أسواق مصر لنوعيتها المتميزة. ورغبة الملوك والسلاطين في تناولها وتقديمها في المناسبات إكراما للضيوف (7).

1- محمد أفندي مختار بكباشي: المجموعة الشافية في علم الجغرافية، مطبعة أركان حرب الجهادية تونس 1294 هـ، ص 114.

2- القلقشندي: صبح الأعشى،ج5 ص 116

3- القل مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، وهي مدينة متحضرة مليئة بالصناع. لهم تجارة مع أهل جنوة الإيطالية، تفصل بينها وبين قسنطينة، جبال شاهقة ومسافة مائة وعشرين ميلا، أنظر الحسن الوزان الفاسي: وصف إفريقية: ج 1، ط2 بيروت 1983 ص 54.

4- من الأمثلة على ذلك نجد سكان مدينتي غدامس وفزان القريبتان من تخوم مصر الغربية يتلهفون على شراء القمح ومختلف اللحوم، ولذلك ترتفع أسعارهما في أسواق الدولتين.

أنظر الحسن الوزان الفاسي: السابق، ص 146-147.

5- ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط2 الجزائر 1982ص 127.

6- محمد أفندي بكباشي: السابق ص 112.

7- القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 107.

2- الزيتون: عُرفت بلاد إفريقية بوفرة إنتاج الزيتون، والأمر الذي إقتضى إقامة عدة معاصر لإستخراج الزيتون وتصفيته، ثم حمله في براميل مختلفة الأحجام إلى جهات عديدة من مدن الدولة الحفصية وبعض مدن مصر، والدول الإفريقية(1)، ومناطق إنتشار أشجار الزيتون تنحصر في شمال سلسلة جبال الأطلس التلي المطل على المناطق الساحلية، نذكر أهم مناطقه: وهي بجاية، جيجل، جزيرة جربة، منطقة قفصة، ويذهب الحُميري في كتابه الروض المعطار إلى أن مصر في أيام المماليك ومن قبل كانت لاتنتج الزيت المستخرج من الزيتون بشكل يلبي حاجات السكان، مما يجعل القوافل التجارية تحمل البراميل المملوءة زيتا أثناء عودتها من إفريقية وبلاد المغرب عامة(2).

ويبقى أن أشير إلى أن الفلاحين والعاملين بالزراعة كانوا ينتجون من العنب والتين، والعناب ما يكفي سكان مناطق زراعتها، ولايتاجرون بها خارج حدود مناطقهم خوفا من تعفنها وتلفها أثناء الطريق. ويعظم إنتشارها في مناطق عنابة، وبنزرت، وقسنطينة(3).

3- تربية الخيول: كانت تجارة الخيول رائجة في بلاد المشرق، لذلك كان الإهتمام بتربيتها فائقا في بلاد المغرب الإسلامي عموما، وخاصة بلاد طرابلس (4)، ومنها كان التجار يسوقون قطعانا من الخيول نحو مصر في أيام الأيوبيين والمماليك، حيث تباع في أسواق الخيل المخصصة لهذا النوع(5) مصر(6).

4- إنتاج الذهب والفضة: لم تكن أرض إفريقيا تنتج الكثير من معدني الذهب والفضة(7)، بل كان التجار هم الذين يجلبونهما من بلاد السودان عبرمسالك مختلفة، أهمها ذلك الطريق الذي يصل إلى بسكرة مرورا بتقرت وورقلة حتى يصل إلى منطقة الزاب،

1- الشيخ الصادق أبو السرور: جغرافية الإقليم التونسي، ط1، تونس 1354هـ / 1935م، ص 65.

2- ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، ص 387.

3- القلقشندي: السابق، ص 14.

4- الشيخ الصادق أبو السرور: السابق، ص48.

5- القلقشندي: السابق، ص 14.

6- ابن دقداق (صلاح الدين ابراهيم بن محمد) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، دار الكتب، رقم 1522، ص 226.

7- كانت الدولة الحفصية تستخرج كميات من الذهب والفضة من الشطوط البحرية، وفي الأماكن الوسطى إلى حدود فزان وواحة غدامس. أنظر: محمد أفندي مختار: المجموعة الشافية في علم الجغرافية ص ص 112- 113

ومنها يوزع إلى أهم مراكز تجارة الذهب، وكانت قسنطينة من أهم مراكز تجارة الذهب في الدولة الحفصية(1)

و من هذه المناطق تأخذ القوافل التجارية البضائع ومن جملتها معدني الذهب والفضة، متجهة نحو بلاد مصر مرورا بطرابلس وبرقة ذهابا وإيابا.

5-الزجاج والخزف: ظهرت صناعة الزجاج والخزف في بلاد افريقيا خاصة وبلاد المغرب عامة منذ عهد الفاطميين، ثم إنتقلت هذه الصناعة إلى مصر، حيث إزدهرت وتطورت بعد هجرة الفاطميين إلى مصر، ولما جاء الأيوبيون ومن بعدهم المماليك روجوا تجارتها وأبدعوا فيها، ومن تمّ عاد بها التجار مرة أخرى إلى بلاد افريقيا(2)، ودخلوا فيها من باب المنافسة لصناعة الأفارقة في مدينة الطرا(3)، الواقعة بالجنوب الحفصي.

6- الصوف والكتان: بالرغم من أن سكان افريقيا كانوا يفضلون قطن وكتان مصر، إلا أن السكان اهتموا بزراعة القطن والكتان في العديد من المناطق، لكن بصفة محدودة، لا تكاد تلبي حاجات السكان، ومع ذلك فإن القماش الافريقي المحلى والمزركش بخيوط لماعة صفراء اللون يباع في أسواق القاهرة والاسكندرية (4)، لأن معمال النسيج على بساطتها قد بلغ عدد عمالها ألفا ومائتي نساج وكان في مدينة بونة وحدها خمسمائة نساجا، والباقي يتوزعون على مدينة تونس حاضرة الحفصيين وبلاد الزاب، وهذا يرجع إلى كثرة الماشية وغزارة انتاجهامن الصوف(5).

1- محمد أفندي مختار: السابق، ص 111.

2- ابن دقداق (صلاح الدين ابراهيم بن محمد: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، دار الكتب رقم 1522، ص 226.

3-أ.عبد الله إبراهيم محمد راجع : علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس، ص135.

4- مدينة الطرا: تقع جنوب مدينة بسكرة على مسافة مسيرة يوم ونصف.

انظر : التجاني: رحلة التجاني، ص114.

القلقشندي : صبح الأعشى، ج5، ص108.

القلقشندي : صبح الأعشى، ج5، ص103، ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص129.

Bronschvig.r, la berberie orientale, T2,Paris 1940 P.120-5

السلع الصادرة من مصر إلى افريقية:

حاولت دولة المماليك منذ التأسيس أن تهتم بتنظيم القطاع الفلاحي وتسهيل الحركة التجارية في الداخل والخارج، ويبدو من خلال الأسواق الداخلية والسلع المصدرة إلى الخارج بصفة عامة، أن حياة الشعب في ظل الدولة المملوكية كانت حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف، ويظهر ذلك من خلال احتفالاتهم(1)، في المناسبات المختلفة، حيث وجه سلاطينهم العناية الفائقةإلى الصيد(2)، وتربية الخيول وتشجيع الفنون الموسيقية، ورغبتهم في الإكثار من تأثيث البيوت بالرياش الناعمة(3)، وتزيين أبواب وسقوف منازلهم بالعاج(4)، الأمر الذي لا يتجلى في المجتمع الحفصي إلا بصفة محصورة في أضيق المجلات لدى الأمراء والسلاطين، فقد ذكر المؤرخون أن مؤسس الدولة الحفصية أبوزكريا يحي الأول كان زاهدا محبا لحياة التقشف، يرتدي الثياب الخشنية مبتعدا عن حياة الزهو والترف، فقد ذكر الزركشي أنه كان يرقع ثوبه بنفسه، ويأمر حاشيته بالإبتعاد عن حياة الترف(5)، وكانت أسواق الدولة الحفصية تضيق ببعض المنتوجات فيقوم التجار بنقلها وتصديرها إلى جهات مختلفة في الوقت الذي تشهد فيه نقصا واضحا في بعض السلع فيتلهف الفرد إلى إقتنائها، وهذا ما أعطى الفرصة إلى التجار لجلبها من ديار مصر وأهم هذه السلع هي:

1- السكر:

إمتازت الزراعة في مصر بانتاجها الوفير في مادة السكر، وانتصبت لذلك معامل لعصر قصب السكر، فقد أورد الرحالة إبن بطوطة أن مدينة ملوي(6)، وحدها كانت تضم إحدى عشرة معصرة للسكر، وقد أدت وفرة السكر في مصر إلى ظهور أنواع كثيرة من الحلوى، وخاصة أنها اشتهرت بنوع من السكر عرف باسم السكر المصري الأبيض الذي يصدر إلى معظم الأسواق في دار الإسلام منها حاضرة دولة الحفصيين.

1- المقريزي : الخطط، ج2، ص105

2- أ.عبد الله إبراهيم محمد راجع: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر، ص130

3- المقريزي: السابق، ص106

4- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص11

5-يشير ابن الشماع إلى أنه يلبس جبة صوف وحزام صوفي انظر:إبن الشماع: الأدلة البينة، ص56.

6- مدينة ملوى تقع على بعد مسافة ميلين من نهر النيل إلى الجنوب

انظر: ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، بيروت، ب.ت، ص49.

2- الكتان:

بالرغم من إنتاج الكتان في كل من منطقة بونة (عنابة) وتوزر بتونس حاليا فإن تجار افريقيا كانوا يجتهدون في جلبه من مصر التي يزرع فيها بشكل واسع، وبعد نموه تقلع قضبانه فيصبح على شكل أسلاق تنشر في موضعها حتى تجف ثم يحمل ويعزل جوزه ليستخرج منه بذر الكتان والزيت الذي يصدر إلى دول المغرب، وكذلك إلى الدول الأوربية(1).

3- الورق:

من المفيد أن أشير في البداية إلى أن أهالي الصين هم أول من قاموا بصنع الورق من الخزف وألياف النباتات، ولبّ الأشجار، ثم نقل عنهم المسلمون هذه الصناعة إلى سمرقند التي أقام بعض أسرى الصين لدى المسلمين سنة 134هـ ومنها انتقلت صناعة الورق إلى العراق فاليمن ثم الشام، إلى أن تطورت وكثر الطلب عليها في مصر ثم انتقلت إلى ديار افريقيا قبل قيام دولة الموحدين والمرابطين بالمغرب(2).

4- العنبر والعطور:

كانت هذه المادة تحظى بقيمة كبيرة لما لها من رائحة طيبة يستعملها المسلمون بكثرة في أيام الجمعة والأعياد، وكانت مصر رائدة في صناعته وتجارته وقد كانت هناك الأسواق الخاصة بهذه الأنواع من العطور منها ما كان يطلق عليه العنبر، وكان التجار يأتون من مختلف أنحاء العالم لجلبه وبيعه في أسواق بلدانهم، ومنهم تجار برقة وطرابلس وتونس وبلاد المغرب عامة(3).

1- يشير الدكتور قاسم عبده قاسم إلى أن هذا النوع من السكر يوجه بصفة خاصة إلى أسر الأمراء والسلاطين دون عامة الناس:

انظر : د/قاسم عبده قاسم :أزسواق مصر في عصر السلاطين المماليك، ص45

2- ابن عثمان (عمر بحر الحافظ البصري): التبصرة بالتجارة نشر حسن حسيني، دمشق1934، ص22

3- ابن عثمان (عمر بن يحي الحافظ البصري): التبصرة بالتجارة، ص26

4- د/قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في سلاطين المماليك، ص54

القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص416

5- البلسم :

هو إنتاج شجر البلسان الذي كثرت زراعته في الحدائق المصرية قرب القاهرة ويعتبر أفضل أنواع البلسم، ونظرا لأهميته وقلة إنتاجه فإن الإشراف على زراعته وأنتاجه يكون تابعا لأمراء وسلاطين الدولة المملوكية، وأثناء جمع غلاته يحتفظ السلاطين بما يكفيهم، ويباع الباقي، حيث يوضع المحصول في كؤوس من الفضة، ويرسل السلطان هدايا البلسم إلى أمراء وسلاطين المسلمين في المغرب واليمن(1).

وتنتج أرض مصر ما يكفي السكان من الذرة، والسمسمة والأرز، وورق النيل والقطن، وقصب السكر، وتصدر بعض منها إلى أهل افريقيا وخاصة القطن والأرز، وورق النيل(2).

6- المرجان :

تنتج دولة المماليك المرجان بكميات وافرة، ويمتاز المرجان المصري عن غيره بالجودة مما يجعل أسعاره غير مستقرة، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك، ومع هذا فإن أسعاره بسواحل الإسكندرية أعلى بكثير من الأسعار التي يباع بها في أسواق الدولة الحفصية (3)

1- القلقشندي، السابق، نفس الصفحة

2- د/قاسم عبده قاسم السابق، ص106

شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، القاهرة 1347هـ/1929م، ص208

3- انظر ذلك : في كتاب الأعشى للقلقشندي، ج2، ص116

حيث حدد ثمنه من خمسة إلى سبعة دنانير حفصية أي ما يعادل دينارين في دولة المماليك.

الموازين والمكاييل

أ- الموازين :

الموازين في دولة المماليك غير ثابتة، فلكل منطقة أو جهة في مصر والشام التقدير الخاص لوحدات الوزن، وإن كانت جميع جهات مصر تستعمل الأوقية والتي تساوي بدورها من عشرة إلى إثني عشرة درهما(1)، ثم يليها الرطل الذي يحدد بمائة وأربعة وأربعين درهما في كل من الفسطاط والقاهرة(2)، وذلك على أساس الأوقية تساوي اثنتي عشرة درهما، ويصل تقدير الرطل إلى ثلاث مائة واثنتي عشرة درهما في الإسكندرية(3)وما جاورها، ويختلف عنهم جميعا الرطل الدمياطي(4)، ويزداد تقديره في الشام ليصل إلى سبعمائة وأربعة وتسعين درهما(5)، وينخفض في كل من بغداد والحجاز ليصل إلى مائة وعشرين درهما(6)، وتبعا لذلك يتغير القنطار الذي يساوي مائة رطل بالمصري، وتوجد جهات أخرى في دولة المماليك تستعمل وحدة من الوزن تعرف باسم المنّ، وهي تعادل مائتين وستين درهما أو ستة وعشرين أوقية(7).

هذه الصورة الخاصة بتقدير وحدات الميزان في دولة المماليك موجودة بنفس الشكل لدى الدولة الحفصية فعلى سبيل المثال نجد الرطل الحفصي يأخذ التقديرات الثلاثة الآتية:

الرطل الواحد يساوي ستة عشرة أوقية ومرة أخرى في جهة أخرى يساوي اثنتي عشرة أوقية(8)، ويرتفع مرة أخرى ليصل إلى ثمانية عشرة أوقية(9)، ومن ثمّ يتغير القنطار تبعا لتغير الرطل وتجار الدولة الحفصية يستعملون وحدات لوزن الأشياء الثمينة نذكر منها.

القيراط ودرهم الكيل وحبة الشعير الغير مقشرة، والأرزة وهي تعادل وزن أربع حبات من السمسم(10).

1- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص445

2- القلقشندي: نفس المصدر، والصفحة

3-4- القلقشندي: السابق، ص446

5-6- القلقشندي: السابق، ص447

7- القلقشندي: السابق، ص448

8- ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، القاهرة، 1973م، ص136

9- الفرق بين الرطل الحفصي والرطلالمملوكي هو أن الحفصي يأخذ إسما في كل مرة فيعرف الذي يساوي بستة عشرة أوقية بالرطل العطاري، والذي يأخذ التحديد إثنتي عشرة أوقية يعرف برسم الشرعي، أما الذي يحدد بثمانية عشرة أوقية فيسمى بالرطل السوقي، انظر في ذلك : ابن يوسف، الدوحة المشتبكة، ص104

10- إبن فضل الله العمري: السابق، 228

ب- المكاييل:

إن السلع التي تكون على شكل حبوب أو سوائل كانت تقدر في عهد الدولتين الحفصية والمملوكية تعرف بالمكاييل، وأول ملاحظة يستنتجها الدارس هي إختلاف أسماء الوسائل وتقاربها في المقدار، فكان أهل القيروان وتونس وماجاورهما يستعملان القفيز كوسيلة(1)، لتقدير كمية السوائل وهو يساوي 58 ،187ليرا أو 16 وَبية مع إختلاف طفيف بين القيروان وتونس وبقية المدن التابعة لهما، بينما أهل المشرق يستعملون القدح المصري كوحدة أساسية للكيل.

والأوبية الواحدة تساوي ستة عشرة قدحا مصريا مع الملاحظة أن الأقداح مختلفة في مصر وهي حسب النواحي(2)، والويبة تقسم إلى إثنتي عشرة صاعا(3)، والصاع يساوي إثنتي عشرة مدًا قرويًا، وهو يقارب المدّ النبوي الذي يعادل ثمانية أمداد بالكيل الحفصي، وقد استعمل الحفصيون كيلا آخر عرف باسم الصّحفة وهي تساوي اثنتي عشرة مدًا بالحفصي(4).

أما دولة المماليك فعرفت وحدات الكيل الآتية:

الأردب ويساوي ستة وتسعين قدحا، والكرّ العراقي ويساوي أربعين أردبا(5).

1- القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص114

2- إبن فضل الله العمري: سالك الأبصار، ص227

3- القلقشندي: السابق، نفس الجزء والصفحة

وذكر ابن فضل الله الصالح واستبدله القلقشندي بالمد القروي وكلمة الصالح متداولة في أفريقية.

ابن فضل الله : سالك الأبصار، ص230

4- القلقشندي: السابق، نفس الصفحة

5- المد يساوي رطلا وثلثا بالبغدادي، ورطلا بالمصري وهو عبارة عن ملء كفي إنسان معتدل انظر : ابن حماتي ص241

العملة

لم تكن الدولتان المملوكية والحفصية تتوفران على معدني الذهب والفضة بالقدر الكافي، ولهذا كانت بلاد السودان التي تتوسط الطريق الرابط بينهما، أهم موردلهما في المعدنيين المذكورين، فقد كانت الدولة الحفصية تستقبل القوافل الوافدة من بلاد السودان عبر الطريق المار بمنطقتي ورقلة وتقرت ليصل في الأخير إلى منطقة بسكرة بوابة الصحراء الإفريقية ثم بعد ذلك يتحول الطريق إلى سجلماسة حيث تلتقي قوافل تجارة الذهب والفضة لبلاد المغرب كافة، فتقوم بشحن حمولتها قاصدة دولها (1)التي جاءت منها، في حين تواصل قوافل تجارة الذهب الوافدة من مصر والشام طريقها نحو السودان عبر برقة، وصحراء ودان(2)، وفزان(3)، وتشحن هي الأخرى حمولتها هناك بالسودان وتعود. وفي الكثير من الأحيان تصدر قوافل تجارة الذهب والفضة من بلاد السودان قاصدة مصر والشام لتبيع سلعتها هناك ثم تشتري سلعا أخرى وتعود وهلم جرا، أما عن دور ضرب العملة كانت متوفرة في كل من الدولتين. وتتم علمية الضرب تحت إشراف الدولتين مباشرة، وهذا حرصا على تطوير النظام النقدي في الدولتين، فبالنسبة لدولة الحفصيين كانت الدور النقدية متوفرة في كل من طرابلس، بجاية، قسنطينة، ورقلة، تونس، وبالإضافة إلى صك النقود فإن أجهزة دور الضرب كانت تقوم بعملية مراقبة نسبة الحلي في العملة (4)، وشراء المعادن الثمينة. بينما في دولة المماليك كانت العملة المتداولة تضرب في ثلاث دور.

1-الفلوس كانت تضرب بالقاهرة.

2- الدراهم تصك في مدينة الإسكندرية.

3- الدينار كان يضرب في مدينة قوص(5)

1- تعتبر مدينة قسنطينة التابعة للدولة الحفصية في ذلك الوقت من أهم مراكز تجارة الذهب.

انظر: ابن خلدون : المقدمة، ص331

ابن القنفذ : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، ص120.

2- مجهول: الإستبصار، ج2، ص110.

3-د/جمال الشيال : تاريخ مصر الإسلامية، ج2، القاهرة 1967م، ص267.

د/قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر السلاطين المماليك، ص110.

4- الونشريسي: المعيار، ج5، ص270

5- د/محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص330

وكما هو معمول به في دولة الحفصيين، حيث يشرف قاضي على دار السكة بهدف إحراز الثقة بين المتعاملين والتجار(1)، فإنه بالمثل في دولة المماليك حيث يعين قاضي القضاة مشرفا على دور الضرب(2)، من أجل تحقيق نفس الأهداف التي تنشدها دولة الحفصيين ومع هذا فقد تعرضت العملة في ل من الدولتين إلى عملية تزييف وغش، وإذا كان تجار اليهود في دولة الحفصيين قد اشتهروا بالغش والتزوير في العملة، فإن العملة المملوكية لم تسلم من عملية الغش والتزوير، ونشطت لذلك طوائف عرفت باسم «الزغلية» (3) حيث تقوم هذه الجماعة بضرب عملة مشابهة عرفت باسم «الزغل» وإن النقود المصرية استعملت بالعدد ثم بالوزن لما رخصت، فكان كل 48 فلسا تقدر قيمتها بدرهم حتى جاء السلطان كتبغا سنة 695هـ/1296 م، قرر أن يكون الرطل منها وزنا بدرهمين(4)، وقد كان الدنيار أعلى قيمة نقدية يتعامل بها في كل من الدولتين(5)، ثم يأتي الدرهم بعد ذلك في المرتبة الثانية ولكل منها أجزاء (6) وهناك نوع ثالث وهو الفلوس، حيث ضرب لأول مرة في دولة الحفصيين سنة 660هـ/1261م، وكان هذا إستجابة الضرورة التجارة وعرف باسم الحدوس، ويذكر الزركشي أنها سحبت من التداول في نفس السنة(7).

1- الونشريسي : المعيار،ج5، ص271

2- د/قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر السلاطين المماليك، ص112.

المقريزي: الخطط، ج1، ص114.

3- إبن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص167

4-5- إبن إياس: السابق، نفس الجزء والصفحة

6- إن للدينار الواحد قتم مختلفة، فقد وصلت قيمة الدينار في عهد السلطان الظاهر بيبرس إلى 28درهما، ودينار الناصر ب25 درهما.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص440

وعن أجزاء الدينار الحفصي انظر : الونشريسي : المعيار، ج5، ص80

وعن أجزاء الدينار: المملوكي: المقريزي : الخطط، ج1، ص45

7-الزركشي: تاريخ الدولتين، ص38.

خاتمة البحث

الجديد الذي أضيفه للمكتبة التاريخية :

لقد كان الهدف الأساسي من هذه الدراسة العلمية منصبا على خصوصيات العلاقات السياسية والثقافية والإقتصادية بين المشرق والمغرب الإسلاميين، خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي -ذلك لأن بوادر الوحدة الإسلامية ظهرت إبان الفترة التي أبحث حوادثها، وخير مثال على ذلك ما أنشده الشعراء ورددته الشعوب

قال الشاعر

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصليب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب من أرض مصر وصارت مصر من حلب

ومن مظاهر الوحدة الإسلامية في الشعر العربي تلك الفرحة التي هزت المشاعر والعواطف وحركت الوجدان والإحساسا أثناء هذه الفترة ما قاله أحد الشعراء حينما هزم لويس التاسع في حربه مع تونس بعد أن هزمه المصريون في دمياط والمنصورة . ثم أسروه وقيدوه وجعلوه في دار ابن لقمان .

قال الشاعر التونسي يحذر لويس هذا ويتوعده بالهزيمة النكراء منطلقا من إيمانه بالوحدة الإسلامية.

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دارابن لقمان قبرا وطواشيك منكر ونكير

فهذا أقوى دليل وأوضح برهان على أن الوحدة الإسلامية كانت سائدة بين المسلمين في الشرق والغرب أثناء فترة البحث التي درستها وقد بينت لنا الدراسة أن مصر والشام كانتا مرتبطتين ببلاد إفريقية بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة وكثيرا ما تجسدت هذه الصلات في أوقات المحنة والشدائد فقد عمل السلاطين على تقديم العون والوقوف الواضح بجانب الطرف الذي يعاني المحنة والأزمة، وخير مثال على ذلك ما قام به السلطان أبي زكريا يحي الحفصي أثناء الحملة الصليبية الثامنة على مصر وبالمقابل اتخذت دولة المماليك مواقف جد مشرفة إزاء الحملة الصليبية التاسعة التي قام بها لويس التاسع على تونس، والحقيقة أن حملة لويس التاسع تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ العلاقات بين المغرب والمشرق الإسلاميين .

فالواقع التاريخي يحدثنا أن الحملة الصليبية التاسعة خرجت عن أهدافها المعلنة نحو الأراضي المقدسة التي تبعد عن بلاد أوربا بآلاف الكيلومترات لتحريرها كما يزعمون ومن المنطق أن تتوجه نحو الشام لدعم الكيان الصليبي هناك لكن الذي حدث هو أنها توجهت نحو تونس، حيث أتاحت الفرصة للمسلمين لتدميرها وكان هذا سببا مباشرا في ترجيح كفة انتصار إخوانهم في دولة المماليك التي تعمل جاهدة على استئصال الوجود الصليبي من الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، الأمر الذي أدى إلى تحرير مدينة عكا بفلسطين وهي آخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام

عام 692هـ/ 1294م، وأكبر من هذا فإن الدراسة أبانت عوامل أخرى كانت الصليبية الماكرة تخفيها والمتمثلة في نهب ثروات المسلمين ، وبفضل تنسيق المواقف واتخاذ التدابير اللازمة ، تمكن المسلمون في الدولتين من تغيير وجهة مسار الحملة نحو تونس ، ثم العمل معا على افشالها في المرحلة الثانية وكان ذلك نتيجة المجهود السياسي الكبير الذي تحمله كل من السلطانين، الظاهر بيبرس والمستنصر بالله الحفصي أبو عبد الله محمد .

وحسبنا في هذه الدراسة أن نكون قد ساهمنا بإلقاء الأضواء لإبراز قوة التعاون ومدى فعاليتها عندما توحد الجهود، وقد أظهرت هذه الدراسة حقيقة وجه الصليبية وكشفت ما احتار المؤرخون في تبرير حقيقة الأسباب التي دفعت الملك لويس التاسع إلى صرف نظره عن غزو الأراضي المقدسة وتحوله نحو تونس حاضرة افريقية لقد واجهتنا على امتداد البحث عدة مشاكل ومسائل ولكن بفضل الله ومنته توصلنا إلى عدة استنتاجات منها :

1- تطور الصراع الصليبي الإسلامي في المغرب :

لقد شهد المغرب الإسلامي فترة تعتبر أشد وأصعب فتراته ، وتجسدت في انحصار قوته العسكرية، وتقلص نفوذه الأمر الذي شجع الصليبين على مطاردة المسلمين واخراجهم من الأندلس ونتج عن ذلك تفكك وحدة المغرب الإسلامي إلى دويلات أقل ما توصف به العلاقات بينها هي التدابر والثورات وكنتيجة لهذا الصراع الصليبي الإسلامي ظهرت قدرة المسلمين السياسية فكانت دولة الحفصيين قد تمكنت من إبرام معاهدات تجارية مع ملك صقلية شارل دانجوى وجمهوريات ايطاليا وقد استغلت هذه الإتفاقيات في عملية افشال الحملة بالتنسيق والتشاور مع دولة المماليك التي تربطها علاقات صداقة وتجارة مع كل من جنوة، والبندقية ، وملك صقلية وقد أكدتها على ضوء المصادر والشواهد التاريخية التي تمكنت من الإطلاع عليها .

2- الصراع الصليبي الصليبي:

لقد تعرضنا إلى فكرة اسهام ملك صقلية مع قادة جيوش جنوة من أجل إقناع الملك لويس بغزو تونس ، مستغلين فضلهم عليه أثناء الإستعداد للقيام بهذه الحملة وكانت نتيجة الحملة لصالح الملك شارل وجمهورية جنوة وقد أدى إفشال الحملة إلى يقظة المسلمين وارتفاع معنوياتهم، حيث تكرست ميدانيا ضرورة العمل المنسق والتعاون بين الدول الإسلامية، وفي المقابل تركت الحملة آثارا سيئة في أوساط الصليبيين وأخذ كل طرف يحمل الطرف الآخر مسؤولية الفشل ومن ثم بدأت الحركة الصليبية في العد التنازلي.

3- العلاقات الإقتصادية بين الدولتين

لقد تعرضنا إلى مسألة العلاقات الإقتصادية بين دولة الحفصيين بافريقية ودولة المماليك بمصر وحاولنا التعمق في دراسة هذا المجال الحيوي، وتوصلنا إلى عدة نقاط نحسبها بداية لبحث معمق خاص بهذا المجال .فالذي ينظر ظاهريا إلى الموضوع يعتقد أن هناك شبكة قوية من العلاقات الإقتصادية المبنية على الإتفاقيات والمعاهدات لكن الدراسة بينت حقائق غير هذه وهي :

أ- العلاقات السياسية :

لقد ورث المماليك والحفصيون وضعا سياسيا متوترا في أغلب الأحيان حيث كانت دولة الموحدين تسعى إلى قيادة المسلمين في المغرب والمشرق ، في الوقت الذي كان فيه بنو أيوب في حاجة ماسة إلى جهود إخوانهم في المغرب ولم يحصل التقارب والتعاون بين الدولتين.

ب- لم يعبأ شعبا الدولتين بمواقف الحكام من بعضهم ولذلك نجد القوافل التجارية لا تكاد تنقطع بين الدولتين، وتوصلت إلى وجود حجم تجاري كبير حر بين الدولتين وقد تعدى الأمر إلى أن استوطن الكثير من سكان افريقية ببلاد مصر والشام ، واحتكر تجارة بعض المواد لدرجة أنها أصبحت تعرف باسم " التجار المغاربة " وقد ترك هذا التعامل بعدا وحدويا بين الدولتين تجسد أثناء الأزمات الخطيرة التي مر بها العالم الإسلامي آنذاك .

4- العلاقات الثقافية:

تميز عصر السلاطين المماليك بعدة سمات حضارية معينة ميزته عن سائر العصور التاريخية التي مرت بها مصر، وكذلك الشأن بالنسبة لدولة الحفصيين في إفريقية فإذا كان المماليك في المشرق الإسلامي قد استأثروا بالقوة العسكرية والممارسة السياسية وتركوا ميدان التعليم وغيره إلى العلماء والشيوخ الأمر الذي سمح لهم بالحفاظ على مكتبسات العصر الأيوبي مع شيئ قليل من التحسين والتغيير تبعا لنظام حكمهم.

أما مسلمو المغرب والأندلس فقد تعرضوا لأبشع حملة صليبية الأمر الذي شجع النزوح والهجرة الجماعية من الأندلس إلى تونس والمشرق فتكون بذلك في إفريقية وضعا ثقافيا مميزا يجمع بين الطابع المحلي والأندلسي وحتى المشرقي وهكذا تفاعلت هذه التيارات الثقافية مع بعضها لتعطي دفعة قوية لتطوير التعليم ومناهجه و لكن الصليبيين لم يكونوا بمنأى عن هذا التطور فراحوا يعكرون الجو بشنهم معارك وحروب على المسلمين من وقت لآخر ورغم هذا الظرف العسير فإنني توصلت إلى وجود علاقات ثقافية واسعة بين شعبي الدولتين، وقد تجسدت هذه العلاقات في تطابق أنماط الحياة اليومية والمؤسسات التعليمية، وتشابه في المناهج التعليم هذا فضلا عن الرحلة العلمية التي لا تتوقف بين الدولتين ونتج عن هذا التبادل الثقافي توحيد الرؤية وتوطيد الروابط بين الشعبين وتطور التعليم بفضل الرحلة العلمية والعائدون من المشرق بعد نيلهم إجازات التدريس ، والفتوى ، والقضاء زيادة عن التأليف المختلفة .

إني إذ أسجل هذه النتائج والملاحظات العامة أؤمن بأن بحثي هذا ليس إلا محاولة باحث مبتدئ في دراسة العلاقات السياسية، والثقافية والإقتصادية بين دولتين إسلاميتين عبر هذه الفترة الزمنية القصيرة إذ ليس لباحث مثلي مهما بذل من جهد أن يزعم لنفسه الإحاطة بجوانب موضوع مثل هذا وأخيرا فإني لأرجو أن أكون قد وفقت بهذا العمل المتواضع إلى تحقيق ما أطمح إليه من استجلاء مصادر تاريخ العلاقات بين الدول الإسلامية عبر مراحل تاريخية معينة .

والله ولي التوفيق

الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق رقم 1

رسالة إبن عميرة إلى إبن الآبار على إثر سقوط بلنسية (1)

ألا فيئة للدهر تدنو بمن نـــأى
وبقيا يرى منها خـلاف الذي رأى
ويا من غديري منه يغـدر من أوى
إليه ولا يدري سـوى خلف من وأى
دخائر ما في البرّ والبـحر صـيده
فـــلا لؤلؤ أبـقى علـيه ولا أوى

أيها الأخ الذي دهش ناظري لكتابه، بعد أن أدهش خاطري من أغبابه، وسرني من بشره إيماض، بعد أن سادني من جهته إعراض جرت على ذكره الصلة فقوم قدح نبعتها، وروى أكفاف تلعتها، وأحدث ذكرا من عهدنا الماضي فنقط وجه عروسه، وشعشع خمر كؤوسه وسقي بماء الشبيبة ثراه وابرز مثل مرآة الغريبة مرآه، فبورك فيه أحوذيا وصل رحمه وكسا منظره من البهجة ما كان حرمه وحبا الله تعالى منه وليا علي سالف عهدي تمادي وبشعاري ودي نادى، وبيّن الإحسان شيمته، وأبان والبيان لا تنجاب عنه ديمته ولا تغلو بغير قلمه قيمته، واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها، ودعوة ذكر وجوم النادي لها، ثم أرسلها ترجف بوادرها من خيفة وتوغر بوغم صدر قلم وصحيفة، وتنذر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها وتحدق إليه طرفها، واتقى غارة على غرّة من الناجي برأس طمرة ولم يأت من هجران المهاجر بعد وصله، وعكر عكرمة المغطى بحلمه على أبي جهله، وعند ذكر كتيبة خالد أحجم، وذكر يوم أحاطت به فارس فاستلحم ، فاعتذر عما قال وأضمر الحذر إلا أن يقال، فمهلا أيها الموفى علي علمه، النافث بسحر قلمه، أتظن منزلتك في البلاغة ومهيعها لا حب، ومنزعها بالعقول لاعب تسفل وقد ترفعت أو تخفي وإن تلفعت، عرفناك يا سودة، وشهرت حلة عطارد الملاحة والجودة فلم حين تهيب الاخ الأوحد من قصي غطاريفها ولو استشار من حفائظها تالدها وطريفها.

المقريزي: نفح الطيب، ح4، ص ص 490-496

ولم يذكر قومه عند أبيها، وقد رام خطة أشرف على تأبيها، حين أهاب بكم لمهمه ودعا منكم أخاه لأمه، ولولا ذلك لما خلا له وجه الكعبة، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة وبأن اعرتموه نجدتكم الموصوفة، غلب على ما كان بأيدي صوفة، فكيف نجحد اليد عند عمنا أو نشحذ أسنة الألسنة لذمنا، أو كيف نلقاكم بجدنا، وأبوكم أبوبكر معدنا-وماتيا منك (1)، إلى سبأ من يشجب، وأن أطلنا فيه التعجب، بالذي يقطع أرحامنا، ويمنع اشتباكنا وإلتحامنا.

بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم، ورأينا أقدامنا في نعالكم، ولو شئتم توعدتم بأسلوب سؤددكم عند الإقدام وإلحاح الحافكم في ضرب إلهام، لكن نقول إن قومنا كرام، ولو شاؤوا كان لنا منهم شرة وعرام.

وأعود من حيث بدأ الأخ الذي أبثه شوقي، وأستطعم حلاوة عشرته باقية في حاسة ذوقي طارحني حديث مورد جف وقطين خف، فياالله لأتراب درجوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا قُصت الأجنحة وقيل طيروا ،وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا وافتقروا أيدي سبا، وانتشروا ملء الوهاد والربى، ففي كل جانب عويل وزفرة، وبكل صدر غليل وحسرة، ولكل عين عبرة لا يرقأ من أجلها عبرة، داء خامر بلادنا حين أتاها، ومازال بها حتى سجل على موتاها. وسجا ليومها الأطول كهلها وفتاها، وانذر بها في القوم بحران أنيجة (2)، ثم أثاروا أسدها المهيجة، فكانت تلك الحطمة طلّ الشؤبوب، وباكورة البلاء المصبوب، أثكتلنا إخوانا أبكانا نعيهم، ولله أحوذيهم وألمعيهم، ذاك أبوربيعنا(3).

وشيخ جميعنا، سعد بشهادة يومه، ولم ير ما يسوده في أهله وقومه، وبعد ذلك أخذ من الأم بالمخنق، وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق، وما لبث ان أخرس من سجدها لسان الأذان وأخرج من جسدها روح الإيمان، فبرح الحقاء، وقيل:«على أثار من ذهب العفاء»، وانطفأت الموائب مفردة ومركبة، كما تعطف المفاء، فأودت الخفة والحصافة، وذهب الجسر والرصافة، ومزقت الحلة والشملة، وأوحشت الجرف والرملة ونزلت بالحارة وقعه الحرة، وحصلت الكنيسة من جاذرها وظبائها على طول الحسرة، فأين تلك الخمائل ونضرتها، والجداول وخضرتها والأندية وأرجها، والأودية ومنعرجها، والنواسم وهبوب مبتلها، والأصائل وشحوب معتلها.

1- يتحدث عن مآثر بني مخزوم وذكر بعض الرجال، ثم عن قضاعة مواقفها، ثم تحولها بنسبها إلى يمن .

2- البحران (المرضى) الذي أصاب أنيجة كان إنذارا بما بعده من سقوط بلنسية.

3- هو أبو الربيع ابن سالم شيخ ابن الآبار الذي استشهد في أنيجة مقبلا غير مدبر.

دار ضاحكت الشمس بحرها وبحيرتها، وأزهار ترى من أدمع الطل في أعينها ترددها وحيرتها، ثم زحفت كتيبة بزرقها وشقرها حتى أحاطت بجزيرة سقرها، فاها لمسقط الرأس هوى نجمه، ولفادح الخطب سرى كلمه، وبالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها وروضة أجاد أبو اسحاق نعتها(1)، وانما كانت داره التي فيها دبّ وعلى أوصاف محاسنها أكب، وفيها أتته منيته كما شاء وأحب، ولم تعد بعده محبين قشيبهم إليها ساقوه، ودمعهم عليها أراقوه وقد أثبت من النظم ما يليق بهذا الوضع، وإن لم يكن له ذلك الموقع.
والقصيدة مطلعها:

أقلوا ملاحي أوفقولوا واكثروا
ملومكم عما به ليس يقصر
وهل غير صبّ ماتني عبراته
إذا صعدت أنفاسه تتحذر
يحن وما يجدي عليه حنينه
إلى أربع معروفها متنكر (2)

ونعود إلى حيث كنا من تبدد شمل الجزيرة، وطي بساطها. أما شاطبة فكانت من قصبتها شوماء والطرف، وببحطائها عروما في نهاية الظرف، فتخلى عن الذروة من أخلالها، وقيل للكافر شأنك وإعلاها، فقبل أن تضع الحرب أوزارها كشط عنها أزراها فاستحل الحرمة أو تأولها وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها، وأما تدمير فجاد عودها على الهصروأنكنت عدوها من القصر فداجى الكفر الإيمان وناجى الناقوس الأذان، وما وراءها من الإجتماع التي باض الكفر فيها وفرّخ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومن أرّخ فوصفكم على الحادثة فيها أتى وفي ضمان القدرة الإنتصاف من عدو عثا وعتا، وانا لنرجوها كرة تفك البلاد من أسرها وتجبرها بعد كسرها. وإن كانت الدولة العامرية منعت بالقراع ذمارها، ورفعت على اليفاع نارها فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق والعدو ولها أهيب ومنها أفرق وما يستوي نسب مع البقل نبت بالمستفيض من النقل ما ثبت وآخر علة أسماؤه على اللمس، ورسا ركنه في الإسلام رسو قواعده الخمس، وكان كما قال : أبو حنيفة في خبر المسح جاءنا مثل الشمس.

1- يعني ابن خفاجة وهو بلدي أبي المطرف فهما من جزيرة شقر.

2- القصيدة طويلة انظر: نفح الطيب، ح4، ص ص 493-494

والأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية، ومن شاء عدها من اليرموكية إلى الأركية، وهذه الأيام الزهرة هي زبدة حلاوتها وسجدة تلاوتها، وإمامتها العظمى أيدها الله تعالى، تمهل الكافر مدة إملائه ثم تشفي الإسلام من دائه، وتطهر الأرض بنجس دمائه بفضل الله تعالى المرجو زيادة نعمه قبلها وآلائه.
راجعت سيدي مؤديا ما يجب أداؤه، ومقتديا وما كل أحد يحسن اقتداؤه، وإنما ناضلت ثعليا (1)، وعهدي بالنضال قديم، وناظرت جديلا وما عندي للمقال تقديم، وأطعنته في الجواب ولقريحتي يعلم الله تعالي نكول، ورويتي لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسلة عصف مأكول، أتم الله تعالى عليه آلاءه، وحفظ مودته وولاءه، ومتّع بخلته الكريمة اخلاءه يمنّه.

والسلام

1- أي من بني ثعل وهم مضرب المثل في رمي السهام

الملحق رقم2

رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى ملك قبرص

أرسل السلطان الظاهر بيبرس أسطولا مؤلفا من إحدى عشرة سفينة إلى قبرص لغزوها فكسرتها الريح وأسر من فيها وأرسل ملك قبرص يخبر السلطان بذلك ويعيرها فأجابه السلطان بمايلي:

إلى حضرة الملك أوك: ذكر ببالي، جعله الله ممن يوفي الحق أهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتاى قبله أو بعده بخير منه أو مثله. نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير وأحسن إليه بالتدبير فيما جرت به المقادير، وقد كنت عرفتنا أن الهوا كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبجح وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من الصين، وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح. وما النصر بالهواء مليح، إنّ النصر بالسيف هو المليح، ونحن ننشىء في يوم واحد عدة قطايع. ولا ينشىء لكم من حصن قطعة، ونجهز مائة قلع ولا تجهز لكم في مائة عام قلعة. وما كل من أعطى مقدافا وما كل من أعطي سيفا أحسن الضرب به أو غرف، وإن عدمت من بحرية المراكب أحاد فعدنا من بحرية المراكب آلاف، وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به في الوصول، وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل العراب. وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب.

ولئن كنتم أخذتم لنا قربة مكسورة، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا، فيرى أينا أغنم، ولو أن الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت، وما تكلم.

كتاب السلوك: للمقريزي: ج 1، ق2، ص594، حاشية رقم 3

الملحق رقم 3

النص الكامل لإتفاقية
المبرمة بين المستنصر بالله الحفصي والصليبيين

بسم الله الرحمان الرحيم، صلى الله على سيدنا محد النبي وآله وصحبه وسلم تسليما.

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبوزيان محمد بن عبد القوى الملك الأجل المعظم المختار فيليب(1)، بنعمة الله تعالى ملك فرنسا إبن الملك الأجل القديس لويس والملك الأجل شارل(2)، بنعمة الله تعالى ملك صقلية والملك الأجل المعظم تيبباط(3)، ملك نفارة أمدهم الله تعالى بتوفيقه والخليفة الإمام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد من الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم على شروط يأتي ذكرها (4).

أ- أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين ومما هو تحت طاعته ومما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والإقماط(5) والزعماء وإلى جزيرة من الجزائر المعروفة بهم أو ما تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم في أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل.

---

*أعتمدنا على صورة للإتفاقية في حجم الأصل كتبت من طرف GUY.Beaujouan الذي نقلها عن الأصل المحفوظ بالأرشيف الوطني الفرنسي في ورق مقوى، Carton.j937

1- هو إبن الملك لويس التاسع.

2- هو الملك شارل دانجو Charle d'anjou ملك صقلية وأخو القديس لويس التاسع.

3- هو: ملك نفاره Thibaut de champagne roi de navarre

4- الحروف المتتالية لفقرات المعاهدة هي من وضعنا للتميز فقط.

5- أي الكونتات المراء، والإقماط جمع قمط أو كمت (Comte) من ألقاب الشرف بأوربا في العصور الوسطى انظر: درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف العجم، القاهرة 1974م، ص105.

ب- وأن يكفوا كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم من مسطحات (1)، وقطع وشياطي(2) وغيرها من سائر الأجفان (3)، كبيرها وصغيرها لضرر أو نقد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما ستنضاف إلى طاعته وما بينهما من البلاد والجزائر والسواحل والمراسي أو على أحد من ساكنيها، فمتي أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده سواء كان المسلمون واردين علي البلاد المذكورة أو صادرين عنها وعلى أنهم لا يمدون أحدا يريد ضر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها.

جـ - وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن أو جفن للنصارى وفيه أحد المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى برّه طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم، ورد جميع ذلك إلى المسلمين وعلى أن يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين، في أمن مثل أمن أهل البلاد ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين أو واردين أو صادين.

د- وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين وجميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على العهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم وأشريتهم محفوظين في ترددهم واقامتهم ماداموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط(4)، هذا الصلح ويكون لهم من الشروط مثل ما إشترط على الملوك المذكورين سواء حرف بحرف. وعلى أن يكون رهبان النصارى وقسوسهم سكانا في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعا يعمرون فيه دياره(5)بيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين (6)، يعضون ويصلون مجهرا في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم.

1- المفرد مسطح: وهي نوع من السفن قد يكون له سطح وهي ذات وظيفة حربية عرفها واستخدمها كل من المسلمين والفرنج على إمتداد العصور الوسطى وتتسع لخمسمائة نفر أو أكثر.

انظر: درويش النخيلي: السفن الاسلامية، ص110

2- وهي من المراكب الحربية الصغيرة الخفيفة استخدمت في البحر المتوسط، وكانت تستخدم للحراسة والتجسس وكشف الموانىء.

انظر: درويش النخيلي: السابق، ص111

3- الأجفان : المفرد جفن وهي سفينة دائرية أقرب منها إلى القصعة.

انظر: درويش النخيلي: السابق، ص111

4- ربوط ورباط جمع ربطة : والمقصود بها بنود وشروط المعاهدة

5- هكذا كتبت بالأصل وتعني جمع «دير»

6- هكذا كتبت في الأصل وصحته المذكورين

شهد على جميع من ذكر في عاليه الشاهدون بما فيه بعد تقريره عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر جميعهم، وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضمانا من تجار النصارى للملوك المذكورين، وأن كل من يكون عدوا للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل-وشهد أيضا من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك وأمير المؤمنين أيده الله تعالى وولده المبارك الأسعد (1)و الشيخ الأجل أيوزيان بن عبد القوي وعدوا على دينهم وأمانتهم بتمام ذلك بتاريخ الخامس لربيع الأخر عام تسعة وستين وستمائة. وينضاف إلى هذا العقد أن يؤدي إلى الملك الأجل شارل ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدي للأنبرور سواء(2).

ويؤدي للملك الأجل المذكور من اليوم فصاعدا في كل عام ما كان يؤدى للانبرور مثنيا (2)، والحمد لله تعالى.

شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته، عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي(3)، وعلي بن أبي عمرو التميمي (4) وأبو القاسم بن أبي بكر اليمني.

1- هو الأميرأبو الزكرياء يحي بن المستنصر بالله الحفصي،أمه أم ولد رومية اسمها طرب ولد سنة 647هـ/1249 م، تولى الحكم عقب موت والده عام 675هـ/1277م، وتلقب بالواثق بالله وتنازل عن الحكم عام 677هـ/ 1279م، وتولى بعده عمه أبو القاسم،

انظر: الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ص، 31، 33

2- أي يدفع المستنصر بدءا بالعام الجديد(669-670هـ، 1270-1271م)، ستة آلاف قطعة ذهبية، وهي ضعف الجزية المقدرة بثلاثة آلاف قطعة)، مما يؤكد ما وصلنا إليه بصدد حصول شارل دانجو على اكبر قدر ممكن من المكاسب نتيجة فشل الحملة دون أن يبذل أي قدر من الجهد كمحصلة لموقفه منها وتعاونه مع المسلمين،

انظر: الزركشي: تاريخ الدولتين ، ص ص 36-37.

3- كان مفتيا للديار الافريقية، ولد سنة 606هـ، وله تآليف كثيرة منها العقيدة في أصول الدين. وكتاب فيمن لقي من الصالحين، وكتاب الإيضاح والبيان في العمل بالظن المعتبر شرعا بالسنة الصحيحة والقرآن، أخذ عن الفقيه الحسين بن يوسف بن الحسين الشاطبي، كان من المشهورين في الفقه على طريقة القرويين، أي الحفظ والنقل دون أعمال النظر والإجتهاد تولى قضاء تونس، توفى عام 684هـ/1286م

انظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص ص 122-123،

الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم، ج4، ص56

4- قاضي الجماعة وصاحب العلاقة، وكاتب الإنشاء في عهد المستنصر بالله الحفصي، رغم أنه من بيوتات افريقية المشهورين الا أن المعلومات عنه قليلة ، انظر: ابن خلدون أبوزكريا يحي)، بغية الرواد، ص131

5- هو أبو القاسم بن أبي بكر اليمني المعروف بابن زيتون ولد سنة 620هـ/1223م، تولى قضاء تونس وكان فقيها مقتدرا، إعتمد عليه المستنصر بالله الحفصي مرتين في تقوية روابط الصداقة مع ملوك المغرب، فشكرت رسالته وحمدت همته وسياسته ، انظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص ص 114-115

الزركلي:السابق، الأعلام، ج3، ص95.

هـ - وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوائدهم في جميع أمورهم ويرد لهم كل شيء أخذ منهم، وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس، وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا(4)، في بلادهم من يكون عدوا لأمير المؤمنين ولا ينجدوا لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده، وعلى أن من فضل حصل من الأسرى بيد المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حيا فيرد كل أسير أهل دينه

و - وعلى أن يقلع الملوك المذكورين وجميع من إليهم وفي محلتهم من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد(2)، وغيره كائنا من كان ولا يبقى في برّ المسلمين أحد إلا أن بقى لهم أثقال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه إلى حين ورجوع المراكب إليهم، وعلى أن مدة انعقاده هذا الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاما شمسية أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ (3).

ل- وعلى أن يعطى لهم مائتا ألف أوقية ذهبا وعشر آلاف أوقية كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ماقدره خمسون درهما من دراهم في الوزن والطيب يجعل لهم منها نصف العدد محضرا والنصف الثاني مقسد بين عامين شمسيين من تاريخه، ونصف المقسد يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين.والانبرور الأجل بلدوين صاحب قسطنطينية(4)، والكمت الأجل جي كمت دافلندر(5)، والكمت الأجل هنري كمت لوكسمبورغ وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك.

1- هكذا كتبت في الأصل وصحته لا يقبلون.

2- هو الذي أصبح بعد ملكا على انجلترا تحت إسم «ادوارد الأول» وقد وصل ميناء قرطاجة في ثلاثة عشر مركبا بعد وفاة الملك القديس لويس التاسع، ثم توجه بعد عقد الهدنة الى الشام ونزل بعكا: انظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب بيروت، 1982، ص148 حاشية رقم 14

3- إن السنة الشمسية تزيد عن القمرية بحوالي أحد عشرة يوما تقريبا، وعلى ذلك فهناك زيادة في مدة الإتفاقية تعادل خمسة شهور ونصف، سوف تكون في صالح الصليبيين وكانت تضيع منهم لو حسبت مدة الاتفاقية حسب السنين القمرية.

4- في الأصل «بادوين» والمقصود امبراطور القسطنطينية اللاتيني بلدوين الثاني(1228-1261م)، الذي خلعته الجنوية عام 1261م، عندما أسقطوا الحكم اللاتيني هناك وأعادوا الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس إلى العرش.

انظر: روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين : ترجمة د/حسن حبشي، القاهرة 1964م ، ص115

5- في الأصل «كي» وهو جي دابيبير، Gui De Daupière كونت الفلاندر التي آلت إليه بزواجه من الكونتية مرغريت Margurite ولقد دمرت الكونتية على يد فيليب الجميل Philippe le beau عندما هاجمها لتأديب جي الثائر. انظر : روبرت كلاري: السابق، ص120، وما بعدها.

قائمة المصادر العربية

-أ-

-ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/ 1260م) " الحلة السيراء "
تحقيق د/حسين مؤنس، ط1القاهرة1963

-ابن الأثير : أبو الحسن علي (ت630هـ/1232م)
الكامل في التاريخ، بيروت 1967

-ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد أبي القاسم
المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس
تحقيق محمد تمام، تونس 1388/1968م

-ابن أبي زرع : علي بن عبد الله الفاسي (ت726هـ/1327م)
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المغرب 1842م

-ابن أبي الضياف : أحمد (ت1291هـ/1874م)
إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الزمان
تحقيق لجنة من الأساتذة تونس 1963

- الإدريسي : محمد بن عبدالعزيز الشريف (ت560هـ/1164م)

-ب-

-ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (ت770هـ/1368م)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف ب" رحلة ابن بطوطة " بيروت ، بدون تاريخ

-بيبرس الدودار : المنصوري
التحفة الملوكية في دولةالتركية رقم 24029
مكتبة القاهرة

-ت-

- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ/1469م)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
القاهرة 1383هـ/1963م

- التجاني : أبو عبد الله محمد بن أحمد
رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب
ليبيا / تونس 1981

-ج-

- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم
تحقيق د/عبد الأمير شمس الدين، ط2، بيروت 1989

-خ-

-ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت776هـ/1374)
الإحاطة في أخبار غرناطة
تحقيق د/محمد عبد الله عنان- القاهرة 1397هـ/1971م)

-ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن (ت808هـ/1405م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت1983

-ابن خلدون :أبي زكريا يحي (ت
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - الجزائر 1321هـ/1903م

-ز-

-الزركشي : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن اللؤلؤ (ت883هـ/1478م)
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

-الزرنوجي : تعليم المتعلم
تحقيق د/سيد ابراهيم الجبار ، بدون تاريخ

-س-

-السبكي : تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م)
مفيد النعم ومبيد النقم، مصر 1317هـ

-ابن سحنون : محمد (ت240هـ/854م)
كتاب آداب المعلمين تحقيق محمود عبد المولى
الشركة الوطنية للنشر- الجزائر 1981

-ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ/1286م)
كتاب الجغرافيا تحقيق اسماعيل العربي ، ط2، الجزائر
1982

-السخاوي : شمس الدين محمد عبد الرحمن (ت903هـ/1497م)
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
بيروت بدون تاريخ الطبع.

- السراج: محمد بن محمد الأندلسي (ت1149هـ/1736م)
الحلل السندسية في الأخبار التونسية
تونس 1970

- السيوطي :جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م)
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
القاهرة، بدون تاريخ

-ش-

-الشطنوفي نور الدين
بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ، مصر 1304هـ/

- ابن الشماع : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع
الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية
تحقيق د/الطاهر بن محمد المعموري -الدار العربية للكتاب 1984

-شهاب الدين العمري : التعريف بالمصطلح الشريف - القاهرة1894

-ع-

-ابن عبد الظاهر : محي الدين عبد الله بن نشوان بن عبد الظاهر المصري (ت
692هـ/1292م)
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر
تحقيق د/عبد العزيز خويطر، الرياض 1396هـ/1976م

-ابن عبد المؤمن محمد الحميري عاش في القرن الثامن الهجري
الروض المعطار في خبر الأقطار
تحقيق احسان عباس -بيروت 1974

- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت821هـ/1418م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء- القاهرة 1915م

- ابن القنفد القسنطيني : أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (ت 810هـ/1407م)
-الوفيات " تحقيق عادل نويهض - بيروت 1971م
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية
تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ود/عبد المجيد التركي
تونس 1968م

-م-

-المانوي : محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي (ت1031هـ/1621م
النقود والمكاييل والموازين
تحقيق : رجاء محمد السمرائي ، بغداد 1981م

-مبارك : علي باشا

-المراكشي : محي ادين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي
المعجب في تلخيص أخبار المغرب - القاهرة، ط1، 1914

-المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)
السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة 1971

- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار
بولاق - القاهرة 1270م

-المقري : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت1042هـ/1631م)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة 1302هـ/

-ن-

-النعيمي :
الدارس في تاريخ المدارس

-النووي: محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف الدين (ت676هـ/1277م)
التبيان في آداب حملة القرآن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

—و—

-الونشريس : أحمد بن علي (ت914هـ/1508م
المعيار المقرب والجامع المغرب
تحقيق محمد حجي - بيروت 1981

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المراجع العربية

—أ—

-الأبراشي : محمد عطية الدكتور : التربية الإسلامية وفلاسفتها، بيروت 1982

-أسعد : طلس محمد الدكتور : التربية والتعليم في الإسلام، بيروت 1957

-أمين محمد محمد الدكتور : الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر من سنة 648هـ/1250م-923هـ/1517
دراسة تاريخية ووثائقية، ط 1، القاهرة 1980

-أمين : مصطفى الدكتور : تاريخ التربية، مصر 1968

-الأهواني أحمد فؤاد الدكتور : التربية في الإسلام، بيروت 1981

—ب—

-باشا (نجاة) الدكتورة : التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى الثامن الهجري ، تونس 1976

—ت—

-تورنو (روجي لي): حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي
ترجمة أمين طبي - ليبيا - الجزائر 1982

—ج—

-جوليان (شارل أندريه): تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح إلى 1830م
ترجمة الأستاذ : محمد مزالي والبشير بن سلامة
تونس 1978

- جوزيف (نسيم يوسف) الدكتور : العدوان الصليبي على مصر وهزيمة لويس التاسع في المنصورة الإسكندرية 1969

- الجوهري : يسري عبد الرزاق : شمال أفريقيا- دراسة جغرافية وتاريخية، الإسكندرية 1970

-الجيلالي (عبد الرحمن) علي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - القاهرة 1983

—ح—

- الحريري : محمد عيسى الدكتور : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي
الكويت
1985

-حسن : زكي محمد الدكتور : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى بيروت
1981

-حسن الحسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ط2، تونس 1925

—د—

-الدولاتي علي عبد القادر : مدينة تونس في العهد الحفصي
ترجمة محمد الشابي ، تونس 1981

—ر—

-ريبيرا خوليان : التربية الإسلامية في الأندلس
أصولها الشرقية وتأثيراتها الغربية
ترجمة : الطاهر أحمد مكي - القاهرة 1981
-رانسمان (ستيفن) : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي - الإسكندرية 1982

-سرور : جمال الدين الدكتور : دولة بني قلاوون - القاهرة 1963
سعاد ماهر (الدكتوره) : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية -
القاهرة 1967

-سليمان أحمد السعيد : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ،
القاهرة 1972

—ع—

- عاشور (سعيد عبد الفتاح): أوربا العصور الوسطى - القاهرة
1986
-العبادي (أحمد مختار) الدكتور : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس
الإسكندرية ، بدون تاريخ

-عنان (محمد عبد الله) الدكتور : عصر المرابطين والموحدين في النغرب
والأندلس القاهرة 1964

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (القرن الثمن الهجري -الرابع عشر الميلادي)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب
الرباط1963م

-ابن عبد العماد : حنبلي(أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ/1678م)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي بدون تاريخ.

-غ-

-الغبريني : أبو العباس أحمد بن محمد(ت704هـ/1304م)
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية
تحقيق د/عبد الحميد حاجيات - الجزائر 1400هـ/1981م

- الغزالي : أبو حامد
إحياء علوم الدين
المجلد 3-كتاب رياضة النفس دار الكتاب العربي بدون تاريخ

-ف-

-ابن فضل الله العمري : شهاب الدين زحمد بن يحي (ت784هـ/1347م)
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
مستقطف من كتاب وصف إفريقية والأندلس
نشره محمد الطالبي - القاهرة 1973

-التعريف بالمصطلح الشريف - القاهرة 1894م

- ابن فهد : محمد بن محمد بن فهد القرشي الهاشمي المكي
المعروف باسم : النجم عمر
إتحاف الورى بأخبار أم القرى
تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، مكة 1404هـ/1984م

-ق-

-ابن القاضي : أبو العباس أحمد بن محمد الكناسي
ذيل وفيات الأعيان «ذرة الحجال في أسماء الرجال »
تحقيق د/محمد الأحمدي أبو النور - القاهرة1390هـ/1970م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

—غ—

-غانم (محمد زيان) الدكتور : صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك - القاهرة 1978

—م—

- المدني (أحمد توفيق) : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبنيا (492 ام-1792م)الجزائر 1968

-المطوي (محمد لعروسي) : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ،بيروت1986

- المعموري (الطاهر : جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهد التركي والحفصي - تونس / ليبيا /1980

—ن—

- نويهض (عادل) : معجم إعلام الجزائر ، ط3،بيروت 1983

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر الأجنبية

-ANNALES DE TERRE SAINTE(1095-1291),PUBLIEES PAR G. RAYNAUD,T,II(GENOVA,1928)

-JOINVILLE,SIR JEAN DE,VIE ET MIRACLE DE SAINT LOUIS,BIBLE,NAT,PAR,M,S,FRANCAISE,N°2829

-HISTOIRE DE SAINT LOUIS, TEXTE ORIGINAL DU XIV SIECLE (TRADUCTION EN FRANCAISE MODERNE PAR M. NATALIS DE WAILY,PARIS 1874

-MARGUERITE(LE CONFESSEUR DE LA REINE) GENOVA 1929

-NANGID, GUILLAUME DE
VIE DE SAINT LOUIS PARIS 1825

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المراجع الأجنبية

-BRONSCHVIG,R
LA BERBERIE ORIENTALE SOUS LES HAFSIDE, DES ORIGINES à LA FIN DU XV E SIECLE, 2TOMES, PARIS 1940

-JULIEU, CH.A
HISTOIRE DE L'AFRIQUE DU IVCL DE L'AFRIQUE DU IVOD DE LA CONQUETE ARABE A 1830 2C Ed, PARIS 1980

-MAS LATRIE.L.,
- TRAITES DE PAIX ET DE COMMERCE CONCERNANT LES RELATION DES CHRETIENS AVEC LES ARABES DE L'AFFRIQUE AU MOYEN AGE PARIS 1866

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرسائل الجامعية والدوريات

أ- الرسائل الجامعية:

- أحمد محمد محمد عدوان (الدكتور) : الوضع الإقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية - دكتوراه - جامعة القاهرة 1972

- د/ عبد الله ابراهيم محمد راجح : علاقات مصر اتلخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس
جامعة الأزهر - رسالة ماجستير 1982

- جمال الدين سرور محمد (الدكتور) : دولة بني قلاوون في مصر - رسالة ماجستير - القاهرة 1963

-حامد زيان غانم (الدكتور) : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحرب الصليبية - القاهرة رقم 1182

- نعيم زكي الدكتور : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى
رسالة دكتوراه- جامعة القاهرة 1968

- محمد محمد أمين الدكتور : شمال إفريقية والحركة الصليبية
القاهرة 1974

-محمد الصغير عبد اللطيف (الدكتور) : علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بيبرس
جامعة الأزهر 1982

ب الدوريات

- بونار (رابح) : عبقرية الشذلييهن العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر . الأصالة - الجزائر عدد1974/19

-ابن حمدة (وسيلة بلعيد) : الرحلة في طلب العلم
مجلة سيرتا (جامعة قسنطينة) عدد3 .1980

- حاجيات (عبد الحميد) : المسالك والدروب في المغرب الأوسط
المجلة العربية للثقافة - تونس عدد605-1983

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-شيخة (جمعة) : ثورة الميورقيين بافريقيا وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس كراسات تونسية عدد115،116سنة 1981

-أ.عبد العزيز فيلالي : مجلة سيرتا - جامعة قسنطينة - العدد1سنة

-أ.العربي اسماعيل : بجاية من خلال النصوص الغربية
مجلة الأصالة الجزائر العدد19.سنة1974

-د. القاضي وداد : المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع الهجري
أعمال مؤتمر التربية الإسلامية المنعقد في بيروت مارس 1981

- المبارك (أحمد عبد العزيز) : الطرق التعليمية والمواد الدراسية وتاريخها الفكري الهداية (تونس) عدد04 1980

-محمد محمد أمين (الدكتور) : شمال افريقيا والحركة الصليبية [1189-1390م] مجلة الدراسات الإفريقيةالعدد 03القاهرة 1974

-مصطفى محمد (الدكتور) : الإنقطاع في الشرق
مجلة المستمع العربي - مصر سنة1982

- محمد علي : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ المماليك
مجلة كلية الآداب ، ج 1، ماي 1936

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوع:	رقم الصفحة
مقـــــدمة	(3 ـــــ 1)
ـ دراسة نقدية لأهم المصادر و المراجع الواردة في الرسالة	3
ـ محتويات الرسالة	8
البـــاب الأول	(84 ـــــ 9)
الفصل الأول:	
1 ـ الوضع السياسي في إفريقيا	
ـ نسب الحفصيين واستغلالهم بإفريقية	12
ـ توسع دولة الحفصيين	16
ـ العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية و دولة المغرب المجاورة	17
2 ـ الوضع السياسي في مصر	24
ـ الأخطار التي جابهت المماليك	26
ـ الصراع بين المماليك أنفسهم	29
الفصل الثاني:	(55 ـــــ 32)
ـ إحياء الخلافة الإسلامية في تونس	33
ـ موقف المماليك من الخلافة الحفصية	36
ـ إحياء الخلافة الإسلامية في القاهرة	38
ـ موقف الحفصيين من إحياء الخلافة في القاهرة	40
ـ فتور العلاقات بين الدولتين	41
ـ الخطر الصليبي المشترك بين الدولتين	43
ـ موقف الحفصيين من الخطر	46
ـ موقف المماليك من الخطر	51

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث: ..... (83 ـــــ 57)

- أسباب الحملة
- موقف دولة المماليك من صليبي الشام 57
- قبرص و دورها في ظهور الحملة 61
- الدعوة و الإعداد للحملة 64
- تحويل مسار الحملة 66
- الإتصالات بين الدولتين بشأن الحملة 68
- وصول الحملة 71
- إفشال الحملة 72
- نهاية الحملة 74
- تقسيم الحملة 78

البـــاب الثاني (176 ـــــ 86)

الفصل الأول: ..... (142 ـــــ 86)

1 ـ المؤسسات التعليمية

- التعليم في الكتاتيب 87
- مناهج التعليم في الكتاتيب 88
- التعليم في المسجد 90
- الزوايا 94
- الرباط 96
- الخانقاه 100
- إنشاء المدارس 102
- ملحقات المؤسسة التعليمية 108

2 ـ نظام التعليم في الدولتين 110

- ميزات نظام التعليم 111
- مبادئ و قواعد التدريس 115
- منهج التدريس في الجوامع و المدارس 117
- مكانة الأستاذ 119
- رواتب المدرسين 122
- شهادات التخرج 123
- الرحلة العلمية 126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 ـ الحياة العلمية في الدولتين 130
3 ـ 1 ـ علوم اللغة و الدين 131
3 ـ 2 ـ التاريخ و الجغرافيا 135
3 ـ 3 ـ التصوف 137
3 ـ 4 ـ العلوم العقلية 140

الفصل الثاني: ..... (142 ـــ 173)

ـ تقديم 143
ـ موقع الدولتين وأثره التجاري 145
ـ طرق القوافل التجارية 147
ـ دور تجار المدن الإيطالية في التجارة بين الدولتين 150
ـ التجارة الخارجية للدولة المملوكية مع المدن الإيطالية 152
ـ التجارة الخارجية للدولة الحفصية مع المدن الإيطالية 154
ـ تطور التجارة في الدولتين 157
ـ الرسوم و الضرائب 158
ـ الأسواق في الدولتين 162
ـ إحتكار السلع 164
ـ أهم السلع المتبادلة 165
ـ أهم السلع الصادرة من إفريقية إلى مصر 166
ـ أهم السلع الصادرة من مصر إلى إفريقية 169
ـ الموازين و المكاييل 172
ـ العملة 174

خاتمة البحث ..... (176 ـــ 178)

الملاحـــــق ..... (179 ـــ 188)

ـ الملحـــق الأول:
* رسالة بن عمير إلى إبن الأبار على إثر سقوط بلنسية 180
ـ الملحق الثـــاني:
* رسالة السلطان الظاهر إلى ملك قبرص 184
ـ الملحق الثـــالث:
* النص الكامل للإتفاقية المبرمة
بين السلطان المستنصر بالله الحفصي و الصليبيين 188

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر و المراجع: ..... (201 ـــ 189)
ـ قائمة المصادر العربية: 189
ـ قائمة المراجع العربية: 194
ـ قائمة المصادر الأجنبية: 198
ـ قائمة المراجع الأجنبية: 199

الرسائل الجامعية و الدوريات: ـــــــــــــــ (201 ـــ 200)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية